خليل الـــرز

منديل بالفراولة

رواية

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
Editions Difaf

منديل بالفراولة

خليل الـــرز

منديل بالفراولة

رواية

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

الطبعة الأولى

1443 هـ - 2022 م

ردمك 978-614-02-4549-5

جميع الحقوق محفوظة

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
9 شارع محمد دوزي برج الكيفان
الجزائر العاصمة
هاتف 0776616609
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأيَّة وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أيَّة وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

رایا

I

لم يكن لباب غرفتي قفل. لم يكن فيها، كما أظنّ الآن، ما كنت أحرص عليه آنذاك سوى الكتب، فدخلتْ رايا في غيابي ذات يوم. تركتْ لي قصاصة ورق صغيرةً مطويّةً على طاولة كتابتي مع ثلاث حبّات فراولة في طبق أبيض صغير. ثم خرجتْ دون أن يلاحظها قريبُها ومُضيفها وشريكي بالشقة: أبدول.

أبدول رجل أذريٌّ بدين لا تغادر فمَه ابتسامتُهُ الدبلوماسية حتى حين تشي لك عيناه بأنه لا يطيقك. وكان قد فهم، قبل الكثيرين من حوله في تلك الأيام، أن الانتماء إلى الحزب الشيوعي السوفييتي سوف يصبح في القريب العاجل عبئـًا على مستقبله، فانسحب من صفوفه وأعلن للمقرّبين من أصدقائه أنه قد تعمّد في إحدى كنائس موسكو. ولعلّه أراد، بحدسه المبكّر نسبيـًا لما كانت ستؤول إليه الأحداث، أن يؤكّد على جدارته وتمسّكه بالدقائق المعدودة التي كان قد بدأ يتحدثها شهريّـًا في تلفزيون أذربيجان عن أخبار السينما في موسكو. كان، في تلك الفترة، قد تخرج من قسم النقد السينمائي في معهد السينما منذ بضعة شهور لا أكثر. وقد تمكّن من انتزاع تلك الدقائق الثمينة، في ختام برنامجٍ للمنوعات، بفضل اتصالٍ هاتفي من زوج رايا بمدير التلفزيون في باكو، كما سأعلم بعدئذٍ.

غير أن سارا، زوجة أبدول، كانت لطيفة حقـًا إلى درجة أنني كنت أشعر بغبنها كلما رأيتهما معـًا. وكان يبدو لي، ويعزّيني ربما بعض الشيء، أنها كانت غالبـًا ما تضجر منه خاصةً حين كان يستميتُ أمام زائريه في تبرير تخلّيه المفاجئ عن معتقداته السابقة التي كان يُبَعبِع بها بمناسبة ودون مناسبة قبل ذلك. وكان موزّع شقتنا بمثابة مطبخٍ مشترك، فكانت سارا تلجأ إليه في بعض الأحيان لتستنشق هواءً خاليـًا من أنفاس أبدول ومن صوته العالي، كما كان يحلو لي أن أتصوّر. وكان من عادتي، حين لا أعثر في قاموسيَّ على معانى كلمات جديدة تعترضني في كتاب أقرؤه بالروسية، إما أن أبحث عنها في اليوم التالي في القواميس المتاحة في مكان عملي، أو أن أخرج من الشقة لأستوقف أحد الجيران وأسأله عنها. غير أنني كنت أشعر بالغبطة حين كنت أصادف سارا في موزع الشقة في هذا التوقيت، فأعرض عليها، كأنما بسرورٍ كبير، جهلي المطبق بالكلمات الجديدة. ثم صرت، إذا استعصى عليّ شيءٌ من هذه الكلمات، أنتظر ضجرَها الدوريّ من أبدول ثم خروجَها إلى الموزّع، فأظهر بعد ظهورها بلحظات قليلة كما لو بمحض المصادفة. كانت تستطرد بالشرح بإخلاصِ من يؤدّي رسالة سامية بصوتٍ متعاطفٍ خفيض، وعندما تتأكّد من فهمي كانت تبتسم لي ابتسامة طفيفة من باب المجاملة. وربما من باب التأكيد على أنني لن أزعجها إذا استفسرتُ منها عن معاني كلمات أخرى يمكن أن تعترضني في المرات القادمة أيضـًا. وأحيانا كانت تتّهمني، بنبرةٍ جادّةٍ مهذّبة، بالنمل الذي يظهر أحيانـًا في خزانتنا المشتركة في الموزّع لأنني، برأيها، لا أتأكّد ربما من إغلاق علب السكر والمربى والبسكويت بشكل جيد عندما أقوم بحصّتي من تنظيف الشقة.

في قصاصتها الأولى، التي تركتْها رايا في غيابي على طاولة كتابتي، طلبتْ مني أن أحضر في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي إلى أول مقعد في الدرب الضيق الذي يخترق الغابة القريبة من حيّنا. لم أنتبه، في ذلك الصباح، إلى السماء الداكنة المحمّلة بالغيوم ولا سمعتُ نذير رعودها البعيدة. ولعلّي لم ألتفتْ إليها أصلاً عبر النافذة الواسعة في غرفتي قبل أن اخرج إلى موعدي في الغابة، فما احتطتُ بمظلّتي ولا ارتديتُ معطفي المطريّ.

كبسني مطر صيفي دافئ متقطع خفيف في منتصف الطريق. لكنه، مع دخولي الغابة، سرعان ما أصبح غزيراً قويّاً متواصلاً جعل أشجار البتولا العملاقة من حولي أشدّ اخضراراً وكثافةً ورهبةً. كان الدرب الضيق الطويل المستقيم، الذي يشق الغابة، مقفراً تماماً لولا رايا. وحدها لاحتْ لي واقفةً إلى جانب أول مقعد أخضر.

كانت تنظر باتجاهي، وقد وصوصتْ عينيها، تماماً كما كنت أفعل، لتتمكّن من الرؤية تحت غزارة الماء المتدفّق فوقها دون توقف. كانت ترتدي فستاناً مزهّراً رقيقاً التصق بجسمها الآن، فبدت أكثر نحولاً. ومع اقترابي منها، كانت شفتاها ترتعشان كأنما من البرد، وعلى خدّيها الأبيضين المغسولين كانت تنمحي آثارٌ أخيرةٌ لكُحْلٍ سال من عينيها.

جمدنا واقفَيْن لا نجد ما نقوله، ولا نعرف بأيّ شيء نتذرّى من المطر الهاطل بين سوق الغابة المستقيمة العالية. وكان مفهوماً، لكلينا على الأغلب، أن علينا أن نعود أدراجنا في الحال، إلا أنني دنوتُ منها، دون أن أنبس بكلمة، ووقفت بمحاذاتها تماماً. ثم بدا أن تلاصقنا الأول

لا مفرّ منه، كما لو كان الشيء الوحيد الذي يمكن أن يفعله رجل وامرأة متواعدان، للمرة الأولى، في غابةٍ تحت مطرٍ مباغتٍ شديد. وكذا كان لا مفرّ، كأنما، من تشابك أيدينا الأول وقبلتنا المفاجئة المبلّلة اللذيذة الأولى. وإذ دَمْدَمَ فوقنا رعدٌ رهيب، خيّل إلينا أن صاعقةً قد قصفتْ شجرةً عملاقة في مكان قريب، فانقطعتْ قبلتنا فجأةً وانحنينا معًا، لنحتمي كأنما من ساقٍ ضخمةٍ تميلُ نحونا، أو من غصنٍ غليظٍ مبتورٍ سيهوي فوق رأسَينا الآن. ثم ما لبثنا أن انطلقنا مسرعَيْن ما أمكننا، متماسكَيْن يداً بيدٍ، فلا يزلق أحدنا من الآخر في طريق العودة.

حرصنا طبعًا على أن لا نصل إلى الشقة معًا، إلا أن أبدول، بحاسّته التلفزيونية النامية، لم ينخدع بالدقائق الخمس المزيفة التي فصلت بين وصول رايا ووصولي. ولعله استطاع، فوق ذلك، أن يفهم، الآن فقط، معنى أن تُعيد رايا غسل قميصي الذي أسقطتْه، كأنما دون قصد، من حبل الغسيل على بلاط الموزّع صباح البارحة، ثم أن تغنّي في العشيّة أغنيتها الأذريّة الحزينةَ التي وصلتني حتمًا عبر الحائط، وأن تُبدي، قبل ذلك بأيام، إعجابها البالغ بالطريقة السوريّة في لفّ اليبرق على شكل أصابع، عندما شرحتُها لها فيما كانت وزوجته سارا في الموزّع تحشوان ورق العنب على شكل بُقَج. ولا بدّ أنه قد تخيّل، فوق ذلك، غير القليل من تفاصيل حميمة مقلقة، حدثت بيني وبين رايا، كان عليه أن يلاحظها أولاً بأول قبل ذلك الصباح الماطر. ومن ثم لم يكن مستبعَداً أبداً، كما فكرتُ بعدئذٍ، أن تكون الحميّة قد أخذتْه، في ذلك اليوم، على القرابة والصداقة اللتين تربطانه بزوج رايا، فتسلّح بمظلّة زوجته الحمراء ونزل إلى أقرب مركز بريد وأرسل برقيةً إليه- عبّر له فيها عن قلقه، على الأقل، من عدم

التحاقه بزوجته كل هذه الفترة. ولعلّه تمنّى عليه أيضـاً، بلهجة صديقٍ مخلصٍ غيور، أن يحجز في أول طائرة قادمة إلى موسكو دون إبطاء.

ثم بدا أن الأمر قد جرى فعلاً على هذا النحو، فقد وصلتْ إلى أبدول، في اليوم التالي، برقيةٌ من زوج رايا، أعلن له فيها أنه سيضطر إلى تأجيل ما أمكنه من أشغاله الضرورية الكثيرة في باكو لكي يأتي إلى موسكو، في غضون أيام قليلة، إذا كانت رايا ستتأخر فيها أكثر من ذلك.

عبّرتْ سارا، زوجة أبدول، عن استيائها فوراً، وإن بصورة ملتوية، من قدوم زوج رايا بهذه السرعة. كانت تحضّر طعام الغداء في الموزّع، وكان باب الحمّام المفتوح يتيح لي أن أراها أمامي في مرآة المغسلة تقشّر البطاطا، وأنا أطرّي ذقني بالماء الساخن ومعجون الحلاقة.

كان أبدول يقف مزهواً إلى جانب البرّاد بعد أن قرأ البرقية ووضعها في جيب قميصه مثل برهان على نجاح خطته المُحكمة. لم أتقصّد، عندئذٍ، تجاهل وجوده أمامي هو أيضـاً في المرآة، بيد أنني انشغلتُ بتفسير استياء زوجته من قدوم زوج رايا. ظننتُ، وأنا أراقب زحفَ شفرة الحلاقة على خدّي بانتباه شديد، أن سارا، باستيائها هذا، إنما أرادت أن تبدي لي ولرايا تفهمـاً مبطنـاً لما يمكن أن يكون قد حدث فعلاً، وما يزال يحدث، بيني وبينها.

لم يكن بوسعي رؤية رايا لأقرأ في ملامحها ما كان يجول في خاطرها في تلك اللحظات- كانت طيلة قراءة البرقية تقف، خارج مرآة الحمّام، في فجوة باب الشقة. لكنها، وقد ساد صمتٌ طويلٌ مُلغزٌ بعد تعبير سارا عن استيائها، ظهرتْ فجأةً لثوانٍ معدودة لم تمكّنّي من التقاط أيّ انطباعٍ من بروفيلها، وهي تتجه مسرعةً نحو باب الغرفة على الأغلب.

وهنا التفت أبدول إليّ في مرآة الحمّام حيث كنتُ الآن أجفّف وجهي. كان يمطّ على شفتيه ابتسامته الدبلوماسية المعهودة الباردة. وكانت المنشفة، التي تغمر وجهي، تمنعه بإصرار من النظر في عينيّ مباشرةً. حاولتُ، ما بوسعي، أن أبالغ بتجفيف وجهي لأتمكّن من تنظيف ملامحي تمامًا من أيّ اهتمامٍ بالبرقية التي قُرِئت في الموزّع قبل قليل. لكنّ أبدول كان قد تقدّم باتجاهي في هذه الأثناء، وكَمَنَ لي عند باب الحمّام تمامًا. وكان من غير المعقول طبعًا أن أستمر في تجفيف وجهي أكثر من ذلك، فرميت بالمنشفة على كتفي والتفتّ نحوه كما لو أنني لم ألاحظه حتى الآن. ثم بدا لي، وأنا أنزلق من باب الحمّام بمحاذاة كرشه تمامًا، أنني أستطيع أن أصفّر من شدّة لامبالاتي به لولا يده الثقيلة التي حطّت فجأةً فوق كتفي وبدأتْ تربتُ عليها. تريّثتُ في مكاني مثل مُربَك. وكنت لا أريد أن أظهر أمامه مُتحرّجًا من ذنوبي الفظيعة التي كان يتخيّلها، فسألته عمّا إذا كان قد حضر فيلم "المقابلة" الذي يعرضونه في سينما كوسموس المجاورة. لم يجبني، إنما هزّ رأسه بطريقة فهمتُ منها أن ما يشغله في هذه اللحظة شيءٌ أهم من فيلم فلّيني الجديد. ولسببٍ ما خيّل لي، وأنا أنظر الآن مباشرةً في عينيه الراكدتين كعينّي سمكة ميتة، أنه أراد، بِرَبْتِهِ البطيء على كتفي، أن يعدني بأحداثٍ ذات طبيعةٍ خاصة سأشهدها حتمًا في يوم قريب، وأنه، إلى ذلك، يبرّئ نفسه منها منذ الآن.

في الأيام التالية بدأتْ سحنات أذرية كثيرة، لم أرها من قبل، تتردّد إلى الشقة. ولربما كانوا يترددون في واقع الأمر، لكنني لم ألاحظهم بهذه الوفرة إلا بعد وصول برقية زوج رايا. كانوا يرطنون بمزيج من اللغتين الروسية والأذريّة ويروزونني بعيونٍ كانت تبدو لي، كلّها، حمراء صغيرة

ومدوّرة كلما صادفوني خارجـاً مـن غرفتي أو واقفـاً على بـاب الشـقة أو ماشيـاً باتجاهها في كوريـدور الطـابق الرابـع عشـر. ثـم مـا لبثـتُ أن فهمـتُ أنني الشخص الوحيد الذي كان يراهم عدوانيين ومحشورين في كل مكان من الموزّع والحمّام وكوريدور الطابق ومصعد البناية وفي الشارع المؤدّي إليها أيضـاً. رايا مثلاً لـم تكـن تُشـعرني أبـداً بأنهـا كانـت تشـعر بوجـودهم. كانـت تسـتمرّ كالعـادة بـاختراع الفراغـات الآمنـة الممكنـة في الشـقة لكـي تهمس في أذني كلمةً سريعةً طيبةً أو لتترك قصاصةَ ورق جديدةً تحت بـابي أو على طاولة كتابتي. وقد ظلّـت قصاصـاتها المتتاليـة تأخـذني إلى مقاعـد قصيّة في أعماق غابة البتولا القريبة، وأحيانـاً إلى ظلام صـالةٍ مـن صـالات السينما، أو إلى طاولة منزوية في مطعم لا يخطر على بـال أبـدول، أو إلـى مقعدٍ في حديقـة عامّـة بعيـدة، أو إلـى رصـيف مـزدحم بمسـافرين غربـاء في محطة قطارات لا تسافر إلى باكو ولا تأتي منها. وذات مسـاءٍ أخـذتني إلـى شقة في حيّ مجاور لتعرّفني بصديقتها الأرمنية أنّوش.

ثـم سرعان ما أصبح واضحـاً للجميـع أن زوج رايـا لـم يـتمكّن، وقـد لا يتمكّن في القريب المنظور، من لفلفة أشغاله الضرورية في باكو كما كان متوقعـاً. لقد مضى أكثر من خمسة عشـر يومـاً علـى برقيتـه دون أيّ إشـارة جديدة إلى احتمال ظهوره الوشيك في موسكو.

لعلّ أبدول، في برقيته العاجلة التي أرسلها إليه في ذلك اليوم المـاطر، قد بلّغه بضرورة قدومه إلى موسكو دون أيّ تلميحٍ إلى الأسباب، فكّرتُ. فلو كـان بلّغـه باسـتنتاجاته الخاصـة مـثلاً، عمّـا كـان يـدور بيني وبـين رايـا باعتبارهـا حقـائق دامغـة لا يرقـى إليهـا الشـكّ، لكـان أجـبره حتمـاً علـى مغادرة باكو بالسرعة التي أملها وخطّط لها.

لكنْ ماذا كان يستطيع أبدول أن يقول، دون أن يبدو مضحكًا، إذا اضطرّه أحدّ في الدنيا إلى أن يحدّد، بدقة ودون مواربة، الحيثيات التي أسّس عليها استنتاجاته "الخطيرة" حول علاقتي برايا؟

إن قميصي الذي أسقطتْه "بالخطأ" من حبل الغسيل وأعادت غسله ذات صباح، وأغنيتَها الأذرية الحزينة التي غنتْها لي عبر الحائط، والبللَ الذي ظهرنا به في الشقة عندما عدنا من الغابة بفارق خمس دقائق مزيفة، وأصابعَ اليبرق السورية التي شرحتُها لها ولزوجته سارا، وأبيات مجنون ليلى المترجمة إلى الروسية التي ألقتْها رايا حين فتحتُ ذات يوم باب الشقة ودخلتُ، ثم طلبَها منّي، في يوم آخر، أن ألقي شعراً بالعربية، ومديحَها، بعد ذلك مباشرةً، موسيقا الأبيات التي ترنّمتُ بإلقائها من معلّقة لبيد بن ربيعة، وافتخارَها بالكلمات الأذرية الكثيرة التي تعود أصولها إلى العربية، فضلاً عن تكاثر خروجي ودخولي من وإلى غرفتي في الفترة الأخيرة، وذقني التي أصبحتُ أحلقها دون أن أغلق ورائي باب الحمّام، بالإضافة إلى آلة البزق التي استعرتُها من جارنا التركي في الطابق الخامس عشر لأعزف عليها بشكل سيّئ من وقت إلى آخر، وكذلك الكلمات الروسية التي بدأتُ أجهلها بكلّ قواي في الصباح والمساء وآخر الليل، والتي أصبحت رايا تشرحها لي في الموزّع بدلاً من سارا، إنما بمباركتها وتحت اشرافها.. إن كلّ تلك التفاصيل التي حدثت، أو كان يمكن أن تحدث فعلاً في الشقة أمام أعين الجميع، ما كانت لتثبت، لأيّ شخص عاقل، الأشياءَ "الفظيعة" التي كان أبدول يتخيّلني أفعلها مع رايا من وراء ظهره. غير أنه، خصوصاً بعد تأخّر قدوم زوجها، لم يعد كأنما قادراً على التحكّم لا بأعصابه ولا بمخيلته الفاجرة.

هل كان أبدول، في ماضيه الأذريّ، يكنّ غراماً دفيناً برايا لم تُتَح له فرصة التعبير عنه؟

لا أدري، ولم يكن هذا السؤال حيويّاً أبداً بالنسبة لي فيما بعد لأطرحه على رايا.

لقد أصبحتْ طريقتُه بالنظر إليّ، وكلماتُه الباهتة القليلة التي كان يتبادلها معي عند الضرورة، وابتساماتُه الدبلوماسية الخرقاء، التي غدتْ مكهربةً وقصيرة، وكذلك بربرتُه الغاضبة باللغة الأذريّة التي صارت تصلني أحياناً عبر الحائط في غياب رايا، وملاحظاتُه الجديدة، المهذّبة بصعوبة شديدة، التي صار يبديها لي حول تزايد الأشياء التي أحشرها في برّادنا المشترك، وحول ليفتي التي وجدها في قلب البانيو، وحول خروجي أحياناً في وقت متأخر من الليل دون أن أتأكّد من قفل باب الشقة، وحول الكثير جداً من مساوئي الأخرى التي كنت أقترفها كأنما دون علمي، ما كان يضطرّه دائماً إلى اكتشافها، أو اختراعها، أولاً بأول وتنبيهي إليها دون كلل.. أصبح كلّ ذلك يؤكّد لي، يوماً بعد يوم، أنه قد وصل إلى حدٍّ من الضيق بي لن يطيق معه انتظار زوج رايا أكثر من ذلك. ومن ثم لن يبقى حتماً مكتّف اليدين ريثما يأتي من باكو، بل سوف يبادر هو نفسه، في أيّ لحظة، إلى تخليص نفسه من جحيم مخيّلته البذيئة الخصبة ولو بصورة جزئية على الأقل.

وهذا ما حصل بالفعل.

II

ذات مساء عدت من عملي، في النسخة العربية من جريدة أنباء موسكو، في وقتٍ متأخرٍ نسبياً. وإذ انعطفتُ من فسحة مصعد البناية إلى كوريدور الطابق الطويل لمحتُ، من بعيد، أبدول وصديقه ساشا يدخنان عند باب الشقة. ومع وقع خطواتي الحثيثة باتجاههما لاحظتُ أنهما قد قطعا حديثاً خافتاً كانا يتبادلانه قبل اقترابي. وكان طبيعياً أن ألقي عليهما التحية قبل أن أدخل إلى الشقة، غير أن تجهّم وجهيهما واصرارهما على تجاهل وصولي إلى الباب منعاني من المبادرة بالتحية. ثم أكّد ما داخلني من الهواجس المُقْبِضة، بعد دخولي إلى موزّع الشقة المظلم، أنني انتبهتُ إلى إضاءة متسرّبة من تحت باب غرفتي المُطبَق، فاقتربتُ منه ودفعت مَسْكَتَهُ بحذرٍ وخوفٍ غامضٍ وفضولٍ شديد.

كانت رايا تجلس إلى طاولة كتابتي تقرأ في كتاب.

لم أجرؤ على سؤالها عمّا حدث، ولا وجدتُ ما أقول لها أصلاً. كنت في تلك اللحظات مصدوماً تماماً من فكرة أن أكون معها في غرفتي وراء بابها المطبوق بينما يدخّن أبدول المتجهّم على باب الشقة. ثم ضاعف من صدمتي أنني لاحظتُ حقيبة سفر مركونةً إلى جانب المكتبة- وددت بكل قواي أن لا تكون لرايا، مع أن احتمال أن تكون هي صاحبتها كان الآن مُرَجَّحاً في نفسي إلى درجة مرعبة. ما أردت

أن أتحقق مما إذا كانت لها، ولا كنت قادراً في تلك اللحظة على فعل ذلك على أيّ حال. كانت النافذة مفتوحة في صدر الغرفة، فاقتربت منها تلقائيًا وفتحتُ درفتها إلى الآخر ثم وقفت أستنشق الهواء الطازج بملء رئتَيّ. لفتت نظري طائرةٌ صغيرةٌ في أعالي سماء موسكو، فجعلتُ أتابعها دون هدفٍ وهي تمضي أمام عينيّ ببطءٍ شديد في ظلمة أول المساء.

- أبدول وسارا انتقلا إلى غرفة ساشا في الطابق الثالث وساشا انتقل إلى هنا.

قالت رايا، بعد صمت طويل، بصوت خفيض.

ثم استدركتْ بنبرةٍ أخفض:

- لم أنتقل معهما.

لم ألتفت إليها.

فهمتُ الآن سبب التجهم الصريح الذي استقبلني به أبدول وصديقه ساشا عند باب الشقة. كما تأكّدتُ، دون لبس، أن حقيبة السفر لرايا، وأن أبدول، بانتقاله إلى الطابق الثالث، إنما أراد أن يُحمّلها وحدها مسؤولية تردّدها إلى الشقة التي أسكن فيها ريثما يأتي زوجها. لكنّه لم يتوقع حتمًا، ولا كان بوسع أحدٍ أن يتوقّع، أن ترفض انتقالها معه وأن تحمل، فوق ذلك، حقيبة سفرها وتدخل بها إلى غرفتي بالذّات. لابدّ أن وجودها المعلن في غرفتي الآن كان يعني ببساطة أنها قد رمت في وجهه، أمام أعين الجميع، وصايتَه عليها كمُضيف وكقريبٍ وصديقٍ لزوجها بصورة فجّةٍ ومُهينة. ولا شكّ أن إحساسه بالإهانة قد تضاعف في هذه اللحظات بعد عودتي إلى غرفتي التي لا يملك الحق في منعي من دخولها.

ما كنت لأتخيل طبعـًا، عندما خرجتُ إلى عملي في الصباح، أنني سوف أجدني عند عودتي في المساء متورطـًا، دون إرادتي وعِلمي، في مواجهةٍ كنت على يقين من أنها لن تنتهي على خير. لم تعد علاقة رايا بي الآن تخمينـًا لدى أبدول، ولا عاد يحتاج إلى مخيلته الخصبة ليثبتها لنفسه بأفجر الصور، فوجود رايا وحقيبتها الآن في غرفتي حقيقة جارحةٌ صارخة. ولا بدّ أن إحساسه العارم بالإهانة قد دفعه إلى أن يتصل بزوجها في باكو وينقل إليه هذه الحقيقة الموجعة فورَ حدوثها حرفـًا بحرف، وبشيء ربما من التشفّي بنفسه وبي وبرايا وبزوجها أيضـًا. وإذا كان قد فعل ذلك حقـًا في الصباح، فلابدّ أن زوج رايا قد حجز حالاً أول مقعدٍ شاغرٍ في أقرب رحلةٍ متاحةٍ لطائرةٍ قادمةٍ من باكو إلى موسكو. ولعله، إذا حالفه الحظ ضدّي، سيكون هنا في غضون يوم واحد فقط أو يومين على أبعد تقدير، فكّرتُ.

كان مفهومـًا طبعـًا أن أشعر بالفزع الشديد في مثل هذا الموقف، إذ لم أكن أملك، حتى ذلك الحين، أيّ خبرة في إدارة أيّ صراع مكشوف مع أيّ رجلٍ في الدنيا من أجل امرأة أو من أجل أي شيء آخر. دائمـًا كنت أنسحبً في الوقت المناسب من أي خطوة يمكن أن تؤدي بعد عشر خطوات إلى صراع فظّ معلن مع أحدهم على أيّ شيءٍ من الأشياء. ولسببٍ، غير مبرّرٍ غالبـًا بشكلٍ قاطع، كان يملؤني، في تلك الفترة، شعور غريب بالوفرة، وربما بالضعف وهذا الأرجح، جعلني دائمـًا أُسَخّف فكرةَ التنافس العنيف مع الآخرين على أي شيء تَسْتَحْليهِ عيني.

لكنّ ما حيّرني، وأنا ما أزال واقفـًا أمام النافذة، أنني كنت متأكّداً تمامـًا من أن تغيّراً جوهريـًا لن يطرأ على علاقتي برايا لو أنها طاوعت

أبدول وانتقلت معه إلى الطابق الثالث. كنا سنستطيع، في كل الأحوال، أن نلتقي، كما في السابق، في الغابة والسينما والحدائق العامة البعيدة والمطاعم التي لا يتردّد إليها الأذريون الموسكوفيون وفي محطات القطارات وزوايا الشوارع القصيّة وعند صديقتها أنّوش في بعض الأحيان. كما كنا سنجترح حتماً أماكن جديدة أكثر بعداً وراحةً وملائمةً لاكتشاف رغباتنا الدفينة التي لم نتعرف عليها بعدُ بشكل جيد. لم تكن الهواتف المحمولة معروفة في تلك الأيام، لكنّ أنّوش مثلاً كانت تستطيع أن تكون مرسالنا مبدئيًا، ريثما نخترع وسائل أخرى، لتدقيق أوقات المواعيد وأماكنها. ولابدّ أن رايا كانت تعرف جيداً كلّ تلك الاحتمالات العملية والآمنة لنواصل رعرعة مشاعرنا الجديدة دون منغّصات من أحد. لكنها، مع ذلك، اختارت لعلاقتنا الغضّة في خطواتها المتعثّرة الأولى، أكثر الطرق وعورة وخطراً حين رفضت الانتقال مع أبدول، ثم حين حملت حقيبتها ودخلت بها إلى غرفتي على مرأى من الجميع.

هل وجدتْ رايا، في علاقتها غير المتوقعة بي في موسكو، فرصةً سانحةً كانت تنتظرها ربما منذ وقت طويل، لتصفّي، دفعةً واحدةً، حسابات متراكمة قديمة مع زوجها؟

لا أدري، ولا أعتقد أنني كنت لأهتمّ بذلك في تلك الفترة، فقد كنت أربّي معها مشاعر طازجة فريدة لم أختبرها من قبل برغم المسافات، الطويلة أحيانًا، التي كنت أقطعها يوميًا أحيانًا بعربات المترو والتروللي والترام لكي أصل إلى أماكن مواعيدنا البعيدة. لكنني أذكر أنها كانت قد قالت لي، ذات يوم، جملة عابرة مفادها أنها جاءت إلى موسكو لأنها لم تعد تطيق البقاء في باكو. لم أتوقف وقتها عند تلك الجملة. ربما لكي

لا أبدو متطفّلاً على تفاصيل من حياتها لم تكن جاهزة بعدُ لنبشها أمامي من تلقاء نفسها. أو لأن فتنة لقاءاتنا المتنامية لم تترك لي مجالاً آنذاك لأهتم بحياتها الشخصية السابقة.

ظللتُ أتابع زحف الطائرة البعيدة في ظلمة أول المساء في سماء موسكو. وقد ألفيتُ الآن في نفسي شعوراً ملحّاً كان يلتبس بخوفي الشديد وهو أن رايا، برغم خروجها الشجاع السافر على وصاية أبدول، ستكون الآن وحيدة تماماً من دوني. وكان ذلك يعني، أول ما يعني، أنها سوف تحتاج حتماً، عاجلاً أو آجلاً، إلى من يحميها ويدافع عنها. وكان من الطبيعي، والحال هذه، أن أهيّئ نفسي، سلفاً، لأن أتحمّل، أنا قبل أيّ شخصٍ آخر، ما كان سيترتب على وجودها في غرفتي بوصفها قريبةَ أبدول المهان الذين يدخّن الآن على باب الشقة وبصفتها، وهذا الأهم، زوجةَ رجلٍ غاضبٍ مخدوعٍ يوشك أن يصل إلى موسكو. وبما أنني لم أكن خبيراً على الإطلاق في الدفاع عن أيّ شيءٍ أو أحد، كما سبق وأشرتُ، فقد رجّحتُ، دون عناء كبير، أن أفشل فشلاً ذريعاً في الدفاع عنها، وعن نفسي طبعاً. وما أكّد إحساسي المسبق بفداحة فشلي المنتظر أنني تذكّرتُ على الفور الأذريين ذوي العيون الموحّدة الصغيرة الحمراء المدوّرة، الذين صرتُ ألاحظ تكاثرهم، وحدي، في كل مكان في الفترة الأخيرة. وقد كان مفهوماً جداً بالنسبة لي أن أحداً لن يلوم زوج رايا إذا استعان بهم في استرداد امرأةٍ ما تزال تحمل كنيته رسمياً في سجلّات الإدارات المدنيّة المختصّة. بل لم أستبعد أن يتطوّعوا هم، من تلقاء أنفسهم، بالوقوف إلى جانبه، صفاً واحداً، من باب تملّقه والتقرّب إليه، فقد كان يشغل منصباً مهماً في اتحاد نقابات عموم أذربيجان، كما فهمت

من رايا. وهكذا فقد انجرفتُ الآن في تخيّل صنوف العنف المحتملة التي كانوا يستطيعون تطبيقها عليّ وعلى رايا دفاعاً عن ما يسمّى عادةً بالشرف أو بقدسيّة الفراش الزوجي أو بغير ذلك من الكلمات المحترمة والتعابير المبدئية الصارمة التي تُنبَش، تلقائياً، في مثل هذه الظروف.

لكنني، برغم كل شيء، لم أشأ كأنما أن أسلّم، هكذا ببساطة، بالبشاعة التي كانت تنتظرنا، أنا ورايا، كما لو أنها نهاية طبيعية لا فرار منها. ولعلّي حاولتُ، وأنا لا أشيل عينيّ عن الطائرة الزاحفة في سماء موسكو، أن أبسّط لنفسي ما حصل حتى الآن باعتباره سوءَ فهمٍ يمكن تداركه في النهاية بقليلٍ من الحكمة والصبر. غير أن شيئاً لم يتبسّط معي للأسف. ربما بسببٍ الخوف المريع الذي كان يتلبّسني. وربما لأنني ظننتُ، في لحظةٍ مُخزية، أنني لست واثقاً تماماً من أن مشاعري نحو رايا قد تجاوزت فعلاً درجةَ الانجذاب القويّ إلى امرأة جميلة. وما كنت لأطيق هذا الظنّ المريب بطبيعة الحال، فلجمته في نفسي دون إبطاء- كنت شبه متأكّد من أنه كان سيدفعني، لو سايرْتُه، إلى التشكيك بما إذا كانت مشاعري نحو رايا تستحق فعلاً الثمن الباهظ الذي سأدفعه من أجلها قريباً وربما قريباً جداً. ثم لم أعرف كيف أتخلّص من إحساسي بسوء نيّتي. لم أصدّق أن يخطر ببالي، ولو من باب الظنّ وتداعي الخواطر، أن أشكّك بمشاعري نحو رايا الآن عندما كان عليّ أن أهيئ نفسي لحمايتها والدفاع عنها. نعم إن فترة تعارفنا كانت أقصر، وأقلّ عمقاً ربما، من أن أشعر نحوها بالمشاعر الجارفة العمياء. لكنّ إحساسي بالعار من فكرة التشكيك بمشاعري الراهنة تجاهها جعلني مستعدّاً كأنما لأن أصدّق، في تلك اللحظة المشينة على الأقل، أنني أعبدها ولا أستطيع

الحياة من دونها ولن أتردّد بدفع نفسي ربما إلى الهلاك في سبيلها. ثم تخيّلتُ أنني قد دفعت نفسي وانتهيتُ إلى الهلاك فعلاً من أجلها، دون أن أعرف بالضبط أين تمّ ذلك وكيف، فاغرورقت عيناي فوراً بدمعٍ حقيقيّ لذيذٍ من شدّة حبّي لها. وفي اللحظة نفسها كنت أشعر بأسفٍ لا يوصَفُ على نفسي.

التفتُّ إليها أخيراً بصعوبة.

كانت ما تزال جالسةً إلى طاولة كتابتي، تمسك بالكتاب الذي كانت تقرؤه وتنظر إليّ بعينين جميلتين مستطلعتين وبريئتين كأنما من كلّ ما كان يضطّرم في نفسي من المشاعر والهواجس.

- ماذا كنت تقرئين؟

قلتُ بصوتٍ حذرٍ، قريبٍ من الهمس، لكي لا يسمعه أبدول.

- ألكسندر بلوك.

قالت بنبرة واضحةٍ مفعمةٍ بمشاعر رهيفة، كما لو أنها كانت ما تزال مفتونةً حتى الآن، وربما فخورةً أيضاً، بجسارة وجودها المُعلَن في غرفتي لأول مرة. كأن أبدول المتجهّم، الذي يدخن على باب الشقة، لم يكن يعني لها شيئاً على الإطلاق. لكنها ما لبثتْ أن نقزتْ معي فجأةً على أثر صوتٍ مدوٍّ أحدثه فينا باب الشقة الذي انطبق في تلك اللحظة بقوّةٍ متعمّدة.

لابدّ أن أبدول هو من صفق الباب بتلك الرعونة المُتوعِّدة قبل أن يذهب، فكّرتُ. وكنت على يقين من أنه لن يتأخر، في هذه الليلة، بردٍّ مناسب للإهانة التي لحقت به، إنما بعد تفكير سامٍّ عميق. ولعلّه كان يستطيع ابتلاع هذه الإهانة والسكوت عليها، أو تأجيل ردّة فعله المباشرة

عليها، لو أنها حدثت دون شهود. أما وقد تفشّتْ الآن، عبر أسلاك الهاتف وشهود العيان، بين كلّ أصدقائه ومعارفه الذين يعيشون في بنايتنا الضخمة وبين معظم الأذريين المتناثرين في أحياء موسكو الأخرى وفي العاصمة باكو حتماً وفي كواليس تلفزيونها بصورة خاصة، وهذا الأكثر إيلاماً بالنسبة إليه، فما كان ينبغي له أن يمرّرها ببساطة. المسألة الآن لا يمكن اختزالها فقط بسمعته التي مرّغت بالوحل لأنها، في واقع الأمر، قد وضعت في الميزان كل حساباته الدقيقة حول مستقبله المهنيّ في باكو وموسكو معاً. إن الدقائق التلفزيونية المعدودة التي ظفر بها في برنامج المنوعات لم تكن، على الاغلب، سوى موطئ قدمٍ على أول سلّم المجد الذي طالما حلم به وسعى إليه. لكنّ أحداً لن يضمن له الآن أن لا يخسرها لأيّ سببٍ تافه من الأسباب. فزوج رايا، حجر أساس ظهوره على الشاشة البارحة واليوم وغداً، قد لا يجد بعد الآن مسوّغاً لأن يحمي ظهره من منافسيه على هذه الدقائق العزيزة. ومن ثم لا بدّ له من أن يُقْدم، الليلةَ بالذّات، على عملٍ حاسمٍ محدّدٍ يمكّنه من تبييض وجهه أمام زوج رايا قبل أن يصل إلى موسكو.

وقد كان في مقدوري أن أفترض، تحت وطأة اضطرابي الشديد، أسباباً كثيرة أخرى لأبدول، المهان المتطّلع إلى مستقبله المشرق، لكي يرتكب بحقّنا أشياء رهيبةً كان علينا أن نتوقع حدوثها في أيّ لحظة. وقد بدأتُ أشعر، مع صدى صفْقهِ بابَ الشقة الذي ظلّ يتردّد في نفسي، بأنني فقدتُ سيطرتي على تكاثر هذه التهيؤات في رأسي. وكنت قابلاً، على الأغلب، للانجرار الأعمى وراءها إلى النهاية لولا رايا- شعرتْ، كأنما في اللحظة المثالية المناسبة، بكل ما كان يفتك بي بصمت، وقرّرتْ أن

تنتشلني، بدرايةٍ وعطفٍ وحزم، من أوهامي المتكالبة عليّ بضراوةٍ لا تطاق- نهضتْ من على الكرسي وراء طاولة كتابتي، وقد احمرّ وجهها وازداد ألق عينيها بمشاعرها العذبة السافرة نحوي، كأنّها لم تنقز معي عندما صفق أبدول باب الشقة قبل قليل. ثم ابتسمت لي وفردتْ أصابع كفّيها نحوي تدعوني إليها.

اقتربتُ منها مثل مُنوَّم.

حشرت نفسي، برفقٍ وإصرار، في المسافة الضيّقة بينها وبين المكتبة المنصوبة وراءها بمحاذاة الحائط. سندتُ ظهري إلى الكتب، كما أستند إلى جدار مجرَّب متين. ثم أمسكتُ بكفّيها الأمينتين بين راحتَيْ، وقد بدأتُ أستوعب الآن، بصعوبةٍ أقلّ، أن أبدول الدبلوماسي الأخرق، كما عرفته دائماً في الماضي، أجبنُ ربما من أن يحضّر لنا أيّ مفاجأة. وما دامت ساعة المواجهة مع زوج رايا لن تحين عملياً قبل يوم أو يومين، فلا حاجة بي ربما إلى أن أستسلم لهواجسي المرعبة منذ الآن. لابدّ أنني قد بالغت بهذه الهواجس نتيجة جهلي المطبق بالصدام العنيف المباشر مع الآخرين لا أكثر. ثم رأيتُني أقبّل أصابع رايا قبلاً صغيرةً خافتة، وأنا أشعر بأن أمامنا، في غالب الظنّ، وقتاً طويلاً جداً يستحق أن نعيشه معاً، بعيداً عن أي مساءلة أو مؤاخذة أو حسابٍ عسير. أما ساشا، الذي أصبح الآن ثالثنا في الشقة، فلن يكون قادراً، في كل الأحوال، على ملء الفراغ الكبير الذي تركه صديقه أبدول. كلّ ما كان متوقّعاً منه الآن لن يتعدّى، ربما، نقلَ أخبارنا الجديدة، أولاً بأول، إلى صديقه في الطابق الثالث. ثم حاولت جاهداً، وأنا ألتصق تماماً برايا، أن أخفّف من عبء الانشغال بجارنا الجديد، فوددتُ، من كل قلبي، لو كان الآن قد دخل إلى غرفته وأغلق بابها عليه ونام.

- كنت أحب رجلاً آخر في باكو قبل أن أتزوج.

همستْ لي رايا، كما تؤمّنني على سرّ ثمين. وكنتُ قد أصبحتُ، بفضل حرارة قربها مني، مستعداً تقريباً لأن أحتفي معها، بأقل قدْرٍ ممكنٍ من الخوف، بحضورها الصريح عندي دون لُبْس ولا غطاء. ثم وددتُ لو أعثر، بين أغراضي في الغرفة، على شيء رمزي يليق قدر الإمكان بهذا الحدث المفاجئ الشجاع الذي اجترحته وحدها دون علمي. زجاجة نبيذ مخبّأة في مكانٍ ما مثلاً كان يمكن أن تفي بالغرض. أو باقة وردٍ، لن أجدها طبعاً، بين أغراضي. أو مجموعة أرانب كريستالية صغيرة جداً كالتي لمحتُها ذات يوم في فيترينة مخزن هدايا في شارع أربات- لن أجدها عندي هي الأخرى. لكنّ رايا كانت تستطيع أن تضعها في جزدان نقودها الصغير وتعبث بها برؤوس أصابعها، فكّرتُ. وكان كريستالها يستطيع، من ناحيته، أن يُطَرْطِق من أجلها كلما أخرجتْ خمسة كوبيكات لتستقل المترو أو الباص أو الترام.

خرجنا معاً من وراء طاولة كتابتي، وأنا لا أُفلت خصرها الرهيف من ذراعي، فيما شرعتْ تحدثني، بسعادة بادية، عن الرجل الذي أحبته في باكو قبل ان تتزوج.

- كان مهندساً معمارياً.

قالت،

وكانت خطاي الوئيدة تحاذي خطاها، وأنا أتفقّد أغراض غرفتي المألوفةَ وأدقّق بها، كما لو أنني أراها لأول مرة- مقعدان. ديوانة. طربيزة عليها بيك آب قديم مغلق. طاولة طعام واطئة على سطحها مجلة زناميا كنت قد اشتريتها قبل يومين لكي أقرأ قصيدة أندريه فوزنيسينسكي

الجديدة وأحتفظ بها. ومن سقفٍ عالٍ يتدلّى فوق الطاولة مصباح ذو ثلاث لمبات صغيرة. ساعة منبّه فوق طربيزة مجاورة لسرير مرتّب. خزانة ألبسة في داخلها غيارات داخلية مطوية، ومجموعة بنطلونات وقمصان وربطات عنق معلقة، وجاكيتا سبور، وبذلتان رسميتان، ومعطف مطري وآخر شتوي في أحد جيوبه علبة محارم ورقية مختومة وقلم رصاص قصير، وفي الجيب الآخر خمس كوبيكات وبطاقة مستعملة لمسرحية "حلم العم" في مسرح مالي.

- كان لا يهوى الذهاب كثيراً إلى السينما، لكنه كان يأخذني إلى هناك لأنه كان يحب أن يتفرّج عليّ وأنا أتفرج على الفيلم.

تابعت رايا كلامها عن حبيبها السابق بحنانٍ بالغ، فيما كنت أقف على أصابع قدميّ وأمرّ بأصابع يدي على ظهر الخزانة لأعرف ما إذا كان ثمة شيء مناسب لهذه الليلة. لا شيء هناك. أثر غبار خفيف على رؤوس أصابعي لا أكثر. ثم لا شيء وراء ستارة مسدلة تغطي جزءاً صغيراً من نافذة واسعة بدرفتين إحداهما مفتوحة إلى الآخر، لا شيء سوى زجاج نظيف مطلّ على سماء نصف معتمة وعلى أضواء أبنية الجانب المقابل من الشارع. لا شيء لافتاً أيضاً على طول حرف النافذة. بعد ذلك تتكرّر زهور صغيرة بنفسجية فاتحة مرسومة على ورق جدارٍ يستمرّ حتى بداية المكتبة. ثم تمرّ كتب متتالية، مبوبة حسب موضوعاتها، فوق رفوف متوازية- يبرز من بينها كتالوغ أيفازوفسكي مركوناً بالعرض، مجموعة من الأسطوانات، راديو روسي مطاول يحجب وراءه قسماً من أعمال نيكولاي ليسكوف الكاملة قرميديّة اللون. لم أكن قد سمعت بليسكوف عندما لفتتْ نظري أعماله في مخزن الكتب المستعملة قبل تلك الليلة

بسنتين. ولعلّ ما دفعني إلى شرائها آنذاك ثمنها الرخيص جداً، وربما لون مجلّداتها القرميدي الذي أحبه للأحذية الجلدية والقمصان الصيفية وربطات العنق. غير أنني لم أستطع، بعدئذٍ، قراءة أيّ منها إلى الآخر. كنت أشعر بغصة في حلقي كلما قرأت بضع صفحات منها. برغم ذلك لم أجرؤ على التخلّص منها حتى الآن، ربما لأن مكسيم غوركي كان قد امتدح نيكولاي ليسكوف ذات يوم.

كانت رايا تشرح لي، في هذه الأثناء، كيف أنها كانت متيمة بالمهندس المعماري إلى درجة أنها قسّمت شوارع مدينة باكو إلى قسمين- الشوارع التي سارا فيها معاً والشوارع التي لم يسيرا فيها معاً، فكانت، بعد فراقهما، تسير وحدها في الشوارع الأولى لتتذكّر أنهما مرّا من هناك معاً، ثم تسير وحدها أيضاً في الشوارع الثانية لتتذكّر أنهما لم يمرّا من هناك أبداً معاً.

ثم بدأ يتشكّل لديّ انطباع واضح تقريباً بأنني قد لا أجد بين أغراضي شيئاً يليق بشجاعة رايا في هذه الليلة. وكدْتُ، في واقع الأمر، أن أيأس من ذلك تماماً لولا أنني لمحتُ، في اللحظة الأخيرة، برجَ موسكو في أفق النافذة البعيد. كان، حقيقةً، أجمل الأشياء الموجودة في غرفتي. وما كان لي أن أدّعيه لنفسي، فقد كان موجوداً حتماً في كل نوافذ الطوابق العليا في كل بنايات الشوارع التي يُشرف عليها، بما فيها نافذة غرفة أبدول السابقة حيث ينام الآن صديقه ساشا كما تمنّيت قبل قليل.

ثم عزّ عليّ كثيراً أنني حاولت، ولم أستطع، أن أجد شيئاً لائقاً خاصاً بي لكي نحتفل، رايا وأنا، بحضورها العلنيّ الرهيب الأول في غرفتي.

كانت ملامحها الآن قد أصبحت حزينة جداً من شدّة التأثر، فقد وصلتْ، في كلامها الذي لم ينقطع، إلى نهاية علاقتها بالمهندس

المعماريّ. كانت نهاية كئيبة لا أذكر شيئًا منها، الآن، سوى أنها أودت بحياته. ثم صمتت صمتًا مؤسفًا قصيراً قبل أن تخبرني، بأسىً ظاهر، أنها تزوجت بعد موت المهندس المعماري بستة أشهر. وأرادت كأنما أن تضيف شيئًا آخر، لكن بصيص أملٍ غامضٍ لاح لي فجأةً حين انتبهتُ إلى غطاء سريري- كانت شراشيبه المتدلّية نحو الأسفل تكاد تلامس أرض الغرفة. أفلتّ خصر رايا من ذراعي، فأمسكتْ عن الكلام، واقتربتُ وحدي من السرير. قرفصتُ ورفعتُ الغطاء المنسدل بيدي، ثم جعلتُ بعينيّ اليقظتين أسبرُ، متلهفًا، الظلمةَ المستقرّة أمامي تحت السرير.

تراءى لي، فجأةً، شيء غامض شبه مكوّم على نفسه. وقفتُ على ركبتيّ، ثم انحنيت حتى طالته يدي، فأخرجته- كان دميةً من قماش لا أذكر أنني رأيتها من قبل في غرفتي. كان شعرها أشقر قصيراً وعيناها زرقاوين وفمها صغيراً مشغولاً بخيوط حمراء.

- هذه هي!

هتفت رايا فجأةً بحرارة، وقد تناولتْ الدمية من يدي برفق، كما لو كانت تعرفها جيداً من قبلُ، ثم جعلتْ تنفض عنها غباراً عالقًا بها بحنانٍ وحذر.

- هذه هي، لقد رأيتها البارحة في منامي.

قالت.

- إنها هي!

كرّرتْ بنبرةٍ أعلى، ثم نظرتْ إليّ تستدرجني إلى أن أؤكّد لها أنها قد رأتها فعلاً في منامها كما لو كنت شاهداً على ذلك، فهززتُ لها رأسي موافقًا دون تردّد. وكانت برؤوس أصابعها قد بدأتْ تمرّ على ملامح الدمية بحذرٍ وعطفِ من يداعب شخصًا عزيزاً نائمًا لا يريد إيقاظه. ثم

ألفيتُني، أنا الآخر، أشعر بصلةٍ غامضةٍ، قديمةٍ كأنما، تربطني إلى الدمية دون أن أفهم، ولا كان يعنيني أن أفهم في تلك اللحظات، كيف ومتى وأين نشأت تلك الصلة بيني وبينها لأول مرة. لقد كنت، ببساطة، سعيداً جداً مرتين. مرةً لأنني عثرتُ في غرفتي أخيراً على شيءٍ يخصّني ويليق بشجاعة رايا في هذه الليلة، ومرةً أخرى لأن ما عثرتُ عليه تحت سريري بالذّات كان الدمية التي رأتها رايا في منامها ليلة البارحة.

وهنا سعل ساشا فجأةً وراء باب غرفتنا تماماً.

انخطفت أعيننا، معاً، باتجاهه، وقد ضمّت رايا الدمية إلى صدرها في الحال. بدت لي كما لو كانت خائفةً عليها كثيراً، فيما بدأتْ هواجسي العنيدة السوداء تتململ في نفسي من جديد.

لم يكن لباب غرفتنا قفل، تذكّرتُ.

نظرتْ رايا إليّ، وقد شعرتْ كأنما بعودة اضطرابي إليّ، فأمسكتْ دميتَها بيدٍ، وبيدها الثانية أمسكتني من ذراعي. ثم كأنها ودّت لو أكفّ عن التحديق بالباب الذي يمكن أن ينفتح في أي لحظة، كما كنت أتخيّل وأنتظر، فسحبتني بعيداً عنه باتجاه النافذة المفتوحة. كانت عيناها نظيفتين كأنما من أيّ أثر لسعال ساشا. وقد شجّعتني، بهما، أن لا أموّه اضطرابي أمامها، فأظهرتُه لها، ولنفسي، بجلاء كامل كما لو كان جزءاً معيباً حقيقياً مني. وكان لا ينبغي كأنما أن نشغل بالنا به كثيراً، بل أن نحاول الاعتياد عليه لا أكثر. وهكذا عدتُ وأظهرته بجلاءٍ أكبر حين اقتربنا من النافذة وجعلتُ أطلّ به، كأنما بشجاعة، على الشارع المضاء، على المارة والسيارات والدراجات وعربة الترام التي كانت تخترقه. بدوتُ لنفسي، وأنا ما أزال أشعر بقبضة رايا على ذراعي، كأنني لا أخاف مما يعتقده

الأذريـون المقيمـون في موسـكو وفي أذربيجـان، وفي بنايتنـا علـى وجـه الخصوص، حول ما يحدث في غرفتنا الآن. كنت متيقناً تقريبـاً من أن ما يظنّونه آثامـاً لا تُغتفر تحصل الآن بيني وبين رايا إنما تظنّه رايا، وكذلك أنـا، آلامـاً عـابرة لا غنـى عنهـا في هـذه الليلـة. وكنـت أستطيع، في أغلـب الظـن، أن أشـعر بالمزيـد مـن الجـرأة تحـت قبضـتها لـولا ساشـا الـذي لـم يمهلني طويلاً، فقد سعل مرةً ثانية كأنما في خشب الباب.

نقزتُ مرةً أخرى، وكذلك فعلتْ رايا.

لكـنّ مـا فاجـأني بـي هـذه المـرّة أننـي ابتعـدت عـن رايـا في الحـال وتوجهت وحدي إلى الباب بخطى متهيّبة بطيئة، كما لو أنني قد قـررت أن أفعل شيئـاً برغم كل شيء.

وقفـت أمـام مَسْـكَة البـاب مباشـرةً، وتلبّثـتُ جامـداً في مكـاني ربمـا لدقيقةٍ مُضنيةٍ كاملة.

ثم أدركت أنني لا أعـرف، في الحقيقـة، مـا الـذي جعلني أبتعـد عـن قبضة رايا، وما الذي كان بوسعي حقـاً أن أفعله، وحـدي، أمـام بـاب رقيـق غير مقفول يفصلني عن ساشا.

تلفّتُ من حولي، فألفيتُ طاولة كتابتي على مقربة مني. اقتربتُ منها تلقائيـاً كمـا أقـترب أخيـراً مـن خشـبة أمينـة طافيـة علـى وجـه مـاء عميـق. جلستُ على كرسيّي الخيزران، وأنـا أظـن أنني أشـغل، الآن فقـط، مكـاني المثاليّ الاعتياديّ الصحيح المطلوب. شعرتُ بأنني هنا بالذّات أستطيع، على الأغلب، أن أكون شخصـاً مفيداً، وربما عمليّـاً جداً، وقـد أقـوم فعـلاً بأشـياء مفاجئـة جميلـة ضـرورية يمكـن اسـتخدامها بسـهولة في الأوقـات الحرجة. مددت يـدي، بتلقائيـة شـديدة، إلـى كتـاب ألكسـندر بلـوك الـذي

كانت رايا قد تركتْه على سطح الطاولة. فتحتُه لا على التعيين، وجعلتُ أقرأ منه بصوت مسموع.

كان في القصيدة التي وجدتها أمامي ليلٌ جليدي وشارع ومصباح وصيدلية. وكان فيها أيضاً أنك لو عشتَ ربع قرن آخر، أو حتى لو متَّ، فإنك لن تجد هنالك مخرجاً ولن يكون أمامك سوى الليل الجليدي نفسه والشارع نفسه والمصباح نفسه والصيدلية نفسها.

قاطعتني رايا فجأةً بصوت معلّمة رؤوم، وكانت الآن تقف أمام طاولتي وهي تحضن دميتها. نبّهتني، هي الاختصاصية بتعليم النطق السليم للأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة، إلى التغيرات التي تطرأ على نطق بعض الحروف باللغة الروسية عندما تجاورها حروف محدّدة أخرى. ثم قرّبتْ هذه التغيّرات من عقلي، فشرحتْ لي مثلاً متى تُنطق السين زايـًا ومتى تُلفظ اللّام مرقّقة دون أن تحتاج إلى علامة تخفيف ومتى تخرج الدال مزيجاً من التاء والزاي. ثم صارت تضرب لي أمثلةً من القصيدة التي كنت أقرؤُها. وعندما بدا عليّ، بعد جهدٍ طويل، أنني قد فهمتُ ملاحظاتها، طالبتني بأن أعيد عليها قراءةَ القصيدة من جديد، لتتأكّد من فهمي. وكانت في هذه الأثناء قد جلست، مع دميتها، أمامي على الطاولة، وجعلتْ الآن تصغي بكلّ حواسّها المشدودة إليّ. وإذ كرّرتُ، في قراءتي الجديدة أيضاً، معظمَ الأخطاء الصوتية التي ارتكبتُها في قراءتي الأولى، لم تتضايق. ابتسمتْ ابتسامةً طويلةً صافية، وهي تفكّر. ثم وجدتْ أنني لن أشعر، بوضوح، بأصوات القصيدة كما أرادها ألكسندر بلوك ما لم تحفّظني إياها غيباً كما يفعل تلاميذ المدارس. يجب أن أتحرّر من الجهد الذي أُبَذّره في كل مرة على تهجئة الكلمات لأنه يصرف

انتباهي في كل مرة عن رنين أصواتها، قالتْ. ثم كأنها أخذت بيدي وصارت تقودني إلى قلب القصيدة عبْر ممرات صوتية سرّية لا يعرفها أحدٌ سواها، فلم أشعر بمرور الوقت. بيد أنني بدأتُ أسمع، مع تدفّق تصويباتها الرشيقة، رنيناً مختلفاً تماماً صار ينبعث تدريجياً من فمي. كأنني أصبحت أقرأ قصيدة أخرى، فجعلتُ أردّدها مسحوراً بأصواتها المتعدّدة المُتناغمة بصوت عال. ثم لاحظتُ ابتسامة رايا، وقد امتلأت الآن بِرِضَاً شديدٍ عنيّ، فيما ظللتُ أنشد وأنشد وأنشد، بأعلى صوتي، أجراساً جديدةً متنوعةً ترنّ في الليل الجليديّ نفسه وفي الشارع نفسه وفي المصباح نفسه وفي الصيدلية نفسها وفي الحياة نفسها بعد ربع قرنٍ آخر وفي الموت نفسه وفي العجز نفسه عن العثور على أيّ مخرج. نعم لقد كان النور شحيحاً جداً في القصيدة، برغم وجود المصباح في الشارع، كما أدركتُ الآن دون عناء. غير أن جوقة أجراسها، التي ظلّت تتواصل في بالي حتى بعد أن سكتُّ، أذهلتني إلى درجة أنني نهضتُ فجأةً من على كرسيّي الخيزران، وتوجهت نحو باب الغرفة وفتحته إلى الآخر.

كان ساشا في الموزّع يفقس بيضتين في مقلاة فوق عين الغاز القويّة.

رميتُ عليه السلام بصوتٍ طليق.

لم يردّ عليّ.

اعتقدتُ مباشرةً أن صوتي كان ضعيفاً جداً وأن نشيش الزيت في المقلاة قويٌّ جداً فلم يتمكن من سماع سلامي لكي يردّ عليه. ثم سرعان ما انتبهتُ إلى بروفيله العكر المنيع الذي يصرف بأسنانه كأنما من شدّة انفعالٍ مكبوتٍ. كان يتجاهلني بعدوانيةٍ جاهزةٍ وإصرارٍ محسوب برغم أنني كنت واقفاً في بابي المفتوح إلى الآخر. وكانت أجراس ألكسندر

بلوك قد اضمحّلتْ تماماً في ذهني فبدوتُ الآن كما لو أنني ما اكتشفتُها جرساً جرساً ولا أنشدتُها بأعلى صوتي قبل قليل.

ثم ما لبثتُ أن فهمتُ أن ظهوري في الموزّع في تلك اللحظة المحتدمة كان حماقةً في غير محلّها. فقد كان من الممكن جداً أن يعتبره ساشا نوعاً من التحدّي أو الاستخفاف بما كان يبيّته لنا هو وصديقه أبدول على الأقل.

انسحبتُ إلى داخل الغرفة على رؤوس أصابع قدميّ.

أغلقتُ الباب ورائي بكلّ ما كان بوسعي من الرفق والحذر، ووددتُ لو أترسه بكلّ أثاث الغرفة، فلا يكون بوسع أحدٍ، كائناً من كان، أن يفتحه متى أراد.

لنكنْ، رايا وأنا، في حفظك أيها الربّ!

لنكنْ، رايا وأنا، في حفظك أيها الربّ!

لنكنْ، رايا وأنا، في حفظك أيها الربّ!

ردّدتُ في نفسي، وفي ذهني أصبح يتواصل، بعنف، نشيشُ الزيت في مقلاة ساشا.

توجّهتُ إلى مكاني الأمين وراء طاولة كتابتي. كان لا يمكنني كأنما أن أتّجه إلى أيّ مكان آخر في هذه اللحظات. أرجعت كتاب ألكسندر بلوك إلى المكتبة، فلفت نظري أنني لم أضعه في مكانه على رفّ الشعراء، بل على رفّ الناثرين الكلاسيكيين الروس. حشرته، وأنا أرتعش من الخوف، إلى جوار ليالي دوستويفسكي البيضاء، كما لو كان مقدّراً له، من قوة أخرى لا علاقة لها بي، أن يقضي هذه الليلة العصيبة هنا إلى جانب هذه الليالي بالذّات.

III

لـم أكـن واثقـاً طبعـاً بمـا إذا كانـت ليـالي دوستويفسـكي البيضـاء تستطيع أن تفعل شيئًا لنشيش زيت المقلاة الذي ظلّ يتواصل في أعصابي بلا رحمة. وما كان ثمة أيّ ضرورة لألتقطها الآن من على الرفّ وأنكبّ على قراءتها لأستخلص منها شيئًا عمليًا مفيداً، فقد كنت، عندئذٍ، أكاد أتذكّر عن ظهر قلب أحداث لياليها الأربع بتفاصيلها. ولكي لا تتفاقم أوهامي حولها من تلقاء ذاتها، ظننتُ أنني كنت أستطيع أن أحشر ألكسندر بلوك إلى جانب قصص غارشن أيضـاً دون أن أنتظر من ذلك أي إشارة مفاجئة إلى أيّ معنى واعدٍ محدّد. ثم تذكّرتُ أنني لم أكن أعتبر ليالي دوستويفسكي البيضاء، مع مؤلفاته الأخرى التي أنجزها حتى مطلع ستينيات القرن التاسع عشر، سوى تمهيد طويل لأجمل ما كتبه في الست عشرة سنة الأخيرة في حياته الإبداعية. وتحديداً من "أوراق من تحت الأرض" في 1864 إلى "الأخوة كرامازوف" في 1880. لا، لم أميّز عندئذٍ، ولا سعيتُ إلى أن أميّز، أيّ سببٍ مقنع يمكن أن يبرّر اهتمامي بالليالي البيضاء دون غيرها في تلك اللحظات الحرجة بالنسبة لي ولرايا. حتى بطلها لم يكن من مزاج قراءاتي الأدبية في تلك الفترة. كان واحداً من تنويعات البطل الحالم في أعمال دوستويفسكي وغيره من الأدباء الروس في أربعينيات القرن التاسع عشر. وبرغم أن بعض الدارسين الروس

يعيدون جذوره إلى حالمين رومانسيين سابقين في الأدبين الانكليزي والألماني، فإن بعضهم الآخر يعتبر الحلميّة، أو سمات البطل الحالم عمومًا، جزءاً لا يتجزأ من هوية الروح الروسية. وما كنت لأنشغل طبعًا بعلاقة الروح الروسية بالرومانسيين الانكليز والألمان عندما حشرت ألكسندر بلوك إلى جوار حالم دوستويفسكي. كلّ ما فكّرت به، على خلفية نشيش الزيت المتواصل في بالي، هو أن هذا البطل شخصية تكاد تكون أدبية محضة، وأنني قد لا أجد شيئًا من خصاله بين الناس الذين ألتقيهم في عملي أو في الطوابير الطويلة التي أقف فيها أحيانًا أو في محطات المترو أو في شارع غالوشكين حيث تقع البناية التي أعيش فيها. لعله كان بطلاً ممكنًا في الواقع بصورة هذا أو ذاك من مثقفي روسيا في ذلك الوقت من القرن التاسع عشر. لكنني لم أستثنِ، في الوقت نفسه، أنه كان شخصيّة كتبيّة حتى في تلك الفترة، وإن كان قد لامس بعض الهواجس والأسئلة الرومانسية المأزومة التي كانت تخطر ببال فئة من المتنورين الروس. وربما كان مجرد تعبير عن مزاج أدبيّ دارجٍ، عندئذ، في أبطال الروايات لا أكثر. وهذا لا ينتقص من أهميته طبعًا، فكل أبطال الروايات كتبيّون في النهاية ماداموا محكومين بشرطية الكتابة وقوانينها وليس بمنطق ما يسمّونه بالواقع. لكنّ أكثر ما كان يستوقفني، في كل قراءاتي السابقة لحالم الليالي البيضاء، هو مفهومه غير المألوف عن الصداقة. كان يعتقد أنه صديق لكل مدينة بيتربورغ دون أن يكون لديه صديق شخصي واحد من سكانها برغم أنه يعيش فيها منذ ثماني سنوات. وهي الفكرة التي سيطورها دوستويفسكي، بعد ما يقرب من اثنتين وثلاثين سنة، في"الأخوة كرامازوف" عندما سيقوِّل أحد أبطالها ما معناه

أنه يحب الإنسانية كلها لكنه لا يستطيع أن يحب إنسانًا بعينه. لابدّ أن إحساسه الراسخ بالوحشة والغربة الخالصتين قد علّمه أن لا ينتظر أيّ مقابلٍ ملموس إزاء مشاعر الصداقة، والحبّ، التي يكنّها لبيتربورغ وللإنسانية جمعاء. ذلك لأنه كان متأكّداً، على الأغلب، من أن بيتربوغ كمدينة والإنسانية كمفهوم لا يمكن أن يعبّرا عن أيّ شيء بالمشاعر والكلمات، فكّرتُ. وحدهم الأشخاص الواقعيون، الذين يملكون أسماء محددة وتواريخ ميلاد محددة وطباعًا محددة، قادرون على التعبير بألسنتهم عن مشاعر الحب والصداقة. غير أن ذلك كان بالنسبة لحالم ليالي دوستويفسكي معضلة حقيقية، فقد كان يشكّك، ويستخفّ بينه وبين نفسه، بمصادقة الأشخاص المحدّدين. كان كأنما لا يضمن عواقب أسمائهم وطباعهم وتواريخ ميلادهم وطلاقة ألسنتهم بالتعبير عن المشاعر. ربما لأنه كان يجهل، أو يخاف، تصوّراتهم عنه. ومن ثم كان لا يضمن أن تكون ردود أفعالهم، على مشاعر الحب والصداقة التي يمكن أن يكنّها لهم، مناسِبةً لروحه القابلة للكسر من مجرّد سوء تفاهم صغير. لذلك وجد نفسه يعقد صداقات متينة وآمنة ليس مع أشخاص محدّدين في مدينة بتربورغ بل مع بنايات محدّدة فيها. لابدّ أن الصداقة مع البنايات مأمونة العواقب دائمًا بالنسبة إليه، فقد كان يفكّر عنها ويتخيّل بالضبط ما الذي كان يمكن أن يدور في أذهانها بنايةً بنايةً. وأعتقدُ أنه كان يتبادل معها الأحاديث الطويلة وهو مطمئنّ تمامًا إلى أنها لن تفاجئه بأيّ سؤال محرج أو بإجابة فظّة لا تراعي مشاعره، فهو نفسه من يتخيّل كلامها الذي تخصّه به كلمةً كلمةً. كان أحيانًا يعتقد أنها فرحة، فيفرح لفرحها. وأحيانًا كان يعتقد أنها حزينة، فيحزن لحزنها. وكان من بين

صديقاته البنايات بنايةٌ اعتقدَ ذات يوم أنها كانت حزينةً لأنها كانت ستُعالج قريباً عند المعماريين. صار يمرّ بها كلّ يوم، فقد خشي من أن يعبثوا بها ويفسدوها. لابدّ أنه لم يفهم بالضبط كيف يمكن، ولماذا ينبغي، أن تُعالج بنايةٌ على قدر كبير من الجمال والانسجام والتماسك. إن أيّ تدخّل في صياغتها القائمة، بحجة إصلاحها وإعادة تأهيلها، ما كان ليبدو في نظره، على الأغلب، سوى نوع من العنف الغاشم المبيّت الذي يمكن أن تتعرّض له صديقته العزيزة في أي لحظة. لكنه، مع شدّة قلقه عليها، كان يبدو عاجزاً تماماً عن القيام بأيّ فعلٍ واقعيّ ملموس يحول دون ذلك. لم يكن يملك، كحالمٍ أصيل، سوى أن يردّد في نفسه كلّما مرّ بها:

لتكنْ في حفظ الرب!

لتكنْ في حفظ الرب!

لتكنْ في حفظ الرب!

IV

اقتربت رايا مني عندما كنت أحشر كتاب ألكسندر بلوك إلى جوار ليالي دوستويفسكي البيضاء. نظرتُ إليها وفهمتُ في الحال أنني قد أصبتها أخيراً بعدوى هواجسي المرعبة التي عادت تفتك بي بقوة بعد أن فتحتُ باب الغرفة ورميت بالسلام على ساشا. لعلها لاحظت هي الأخرى كيف كان بروفيله العكر يصرف بأسنانه. أو لعلّها، لسببٍ لا يتعلّق بي أبداً، أدركتْ، الآن فقط، أن اقتحامها الشجاع لغرفتي لن يمرّ في كل الأحوال دون عواقب وخيمة في هذه الليلة بالذّات. وربما كانت تحدس، بقوة خبرتها القديمة بزوجها ثم بأبدول، أن شيئًا فظيعًا يوشك أن يحدث معنا من كلّ بد، فالتصقت بي، وشدّت ذراعها المرتعشة حول خصري بقوة. كان الباب، غير المقفل، يقع إلى يميننا على بعد مترٍ واحدٍ من نهاية المكتبة. لم أجرؤ على الالتفات إليه، ولا هي التفتت. ظللنا مسمّرين أمام المكتبة ننظر، من مسافة قريبة جداً، إلى عناوين الكتب المرصوصة التي لم تعد تعني لي شيئًا على الإطلاق. أغمضتُ عينيّ لأجدني في مكان آخر، فتراءت لي في عتمة جفوني البنايةُ الجميلة التي سيهاجمها المعماريون، في ليالي دوستويفسكي البيضاء، لتغيير ملامحها الجميلة بالقوة.

لنكنْ في حفظك أيها الربّ!

لنكنْ في حفظك أيها الرب!

لنكنْ في حفظك أيها الرب!

صرتُ أهتف في نفسي، ولعلّي كنت أهتف بصوت مسموعٍ خافتٍ جداً. ثم شعرتُ أن رايا كانت تهتف معي. كان الوقت الآن يجري في حواسّنا بسرعة رهيبة. وكنّا نخشى، كأنما معاً، من أن يكون الربّ بعيداً جداً عنا فلا يسمع توسّلنا الخفيّ إليه فيما نحن في أمسّ الحاجة إلى حفظه الأكيد العاجل. ثم ظننتُ، وربما ظنّت رايا أيضاً، أن المكتبة، التي نقف في مواجهتها مباشرةً، قد لا تكون الجهة الأقرب والأنسب لمخاطبة الرب. لا بدّ أن هنالك ما لا يرضى عنه الربّ دائماً في صفحات الكتب، فكّرتُ. وكان الوقت أضيق من أن نحزر أيّ الجهات في غرفتي كانت الأمثل والأقرب إلى رضا الربّ لكي نوجّه إليه توسّلنا، ففتّحت عينيّ والتفتّ ورايا إلى الجهة المعاكسة. كانت النافذة الواسعة مسدودة الآن بالظلام الدامس في صدر الغرفة. أمسكتُ بذراع رايا واندفعنا معاً صوب درفة النافذة المفتوحة مثل واثقين بأنها الأنسب والأشدّ قرباً إلى انتباه الرب. أخرجنا رأسينا إلى الفراغ الأسود العالي. ولسببٍ لم ندركه تشبّثت عيوننا فوراً بضوء أحمر صغير معلّق على رأس برج موسكو البعيد. كان الصمت العميق الآن يغمر شارع غالوشكين الذي نطلّ عليه من نافذتنا في الطابق الرابع عشر. وكان بوسعنا، مع حاجتنا المتفاقمة الملحّة إلى حفظ الربّ، أن نتصوّر، ونسمع بوضوح تام، كيف كانت البنايات في الشوارع الأخرى ومواقف الباصات والحدائق ومقاعدها الشاغرة وأشجار الغابات البعيدة والقريبة والمسارح الفارغة ودور السينما المغلقة ومحطات المترو المتوقفة عن العمل والقطارات المنتظرة انطلاق رحلاتها الباكرة الأولى تردّد، كلّها، معنا هتافنا الخفيّ الحارّ:

لنكن في حفظك أيها الرب!
لنكن في حفظك أيها الرب!
لنكن في حفظك أيها الرب!

كان كل شيء في الخارج يبدو لنا في الظلام والسكون كما لو أنه يقف بحزم صريحٍ إلى جانبنا. لكنّ ذلك لم يطمئن قلبينا، فقد ظلّا يضجّان بالهتافٍ بقوةٍ أكبر وإصرار أعنف كما لو أن الربّ، في الحقيقة، لم يسمع هتافنا حتى الآن. أو أنه لم يعرف بعدُ ما هي طلباتنا على وجه الدقّة لكي يبادر إلى تلبيتها فوراً. ولسببٍ كنا نكاد نهجس ببشاعته الموشكة لم نكن لنتصوّر أبداً، ولا كنا مستعدّين لأن نتصوّر بأي حال، أن يكون الرب قد أدار ظهره لنا في هذه اللحظات. تلفّتنا نجيل بالنظر في أعالي السماء المظلمة. لم نجد هنالك ما يقنع قلبينا بالاطمئنان لحظةً واحدة. لم يكن هنالك ما نتعلّق به في الفراغ الأسود البعيد، فألفينا نفسَيْنا نتشبّث من جديد بالضوء الأحمر الصغير المعلّق على رأس برج موسكو. كنّا الآن، بحواسنا كلها، مستعدين لأن نتلقّى أيّ علامة تُشعرنا، دون مواربة، بأن الربّ معنا وأنه يعيرنا فعلاً انتباهه الشديد: كأن يحطّ فجأةً طيرٌ أبيض على حافة نافذتنا، أو أن تطير ورقةٌ شجرة خضراء إلى غرفتنا من الظلام في الخارج، أو أن تتناهى إلينا أغنية جندب بعيد، أو أن ينزل مطرٌ قويّ يبلّل وجوهنا وزجاج نافذتنا الواسع، مطر من ذلك المطر الماضي القريب، المطر الدافئ الغزير العزيز الذي أغرقَنا ذات يوم في غابة البتولا. لكنْ عبثاً. عبثاً. لم يحطّ أيّ طير ولا طارت إلينا أيّ ورقة ولا تناهى إلى آذاننا صوتُ أي جندب ولا نزل أيّ مطر. ما حدث في تلك اللحظة الرهيبة لم يأت من النافذة ولا كان يمكن، في كل الأحوال، أن يكون علامةً على انتباه الربّ:

لم يكن ما سمعناه فجأةً طرقًا عنيفًا على باب الشقّة، فقد كان ما يشبه حشداً من أقدام وقبضات انقضّت على الباب بإلحاحٍ وثباتٍ ودون توقّف. ظللنا جامدَيْن متّحِدَيْن، أحدنا بالآخر، بالقرب من النافذة نشخص إلى الضوء الأحمر البعيد على رأس برج موسكو- كأننا كنا نمنحه الفرصة القاصمة الأخيرة لأن يفعل، هو على الأقل، شيئًا عاجلاً ما من أجلنا. وإذ لم يفعل شيئًا على الإطلاق خطر بي أن نخرج من الغرفة فوراً وأن نفعل كلّ ما بوسعنا لكي نمنع ساشا من فتح باب الشقة. انطلقنا حالاً بخطى سريعة وخرجنا، ثم جمدنا أمام باب غرفتنا المفتوح. كان ساشا قد سبقنا إلى الموزّع ويستند الآن إلى مدخل باب الحمّام ويدخّن. نظرنا، مثل أسيرَيْن، إليه وليس إلى باب الشقة الذي كان ما يزال يتحطّم تحت القرع العنيف المتواصل. تناهت إلى سمعنا بربرة أبدول على شكل فحيح مشتّت يهندس، من بعيد، الانقضاضَ الوحشيّ المستمرّ علينا. انتظرنا الآن من ساشا أن يفتح الباب ويُدخلهم علينا. لكنه لم يتحرّك، ظلّ يدخّن مثبّتًا عينيه على نقطة محددة عالية في الجدار المقابل كما لو أنه لا يرانا ولا يسمع ضراوتهم على خشب الباب. لماذا أسكنه أبدول في شقتنا إذا كان لن يفتح له ولزبانيته الأذريين الباب الآن؟ لماذا يسحب يده من النوايا السوداء في رأس صديقه في اللحظة الأخيرة؟ هل خشي، إن فتح الباب، أن يجد نفسه شريكًا مع هؤلاء الجنوبيين ذوي الدم الحار في ورطة قد تتجاوز الحدود التي رسمها أبدول؟ أم أن المسألة لم تكن تهدف أصلاً إلى غير ترهيبنا في ليلة رايا الأولى في غرفتي، فكان منوطًا بساشا أن يحافظ الآن على باب الشقة مغلقًا لا أكثر. كانت يد رايا تضمّ خصري إليها بقوةِ يائسٍ، وتضمّ باليد الأخرى دمية القماش إلى

صدرها. وكان الآن على ساشا أن يفتح باب الشقة، أو على التخبيط أن يتوقّف، فما مرّ من الوقت أصبح كافياً لأن تُفتح، أخيراً، أبوابٌ أخرى في الطابق الرابع عشر من أجل إشباع الفضول إلى الفضيحة على الأقل. وهذا ما لا ينبغي أن تسمح به سمعة أبدول التلفزيونية بأي حال. لم يفتح ساشا. وبينما توقّف التخبيط على الباب وابتعدت أحذية كثيرة عن باب الشقة بسرعة، كانت رايا قد سقطت على الأرض ترتعص إلى جانبي في نوبة صرع. ظلّ ساشا يدخن مستنداً إلى مدخل الحمّام ومثبّتاً عينيه على النقطة إيّاها كما لو أنّ شيئاً لم يتغيّر. انتطرتُ حتى خمدت أطراف رايا المتشنّجة ثم انحنيتُ فوقها. عكمتها بين ذراعيّ مع دميتها وحملتهما إلى الغرفة. وضعتهما في سريري ثم أغلقت الباب علينا من جديد وعدت إليها. خلعت فردّتي حذائها، ثم سحبت بطانية من درج الخزانة وغطّيتها. بعد ذلك اقتربت من النافذة المفتوحة ووقفت أنظر إلى تبدّد ظلمة الليل الأخيرة. كان الضوء الأحمر على رأس البرج خافتاً الآن، وربما كان مطفأً. لا أعرف كم من الوقت لبثت واقفاً هناك، غير أنني شعرت أخيراً بالتعب وبرغبة شديدة بالنوم. فكّرت أن أستلقي على الديوانة، فقد كان عليّ أن أنطلق إلى عملي في الساعة الثامنة صباحاً. ثم شغلني فجأةً ما يمكن أن يحدث لرايا في غيابي. كنت أعرف، من خبرتي الطويلة بمرض الصرع الذي يعاني منه أخي الأصغر، أن النوبة قد أنهكت جسدها تماماً وأنها ستحتاج الآن إلى أن تنام نوماً عميقاً قبل أن تستعيد بعض قواها. استلقيت على الديوانة وجعلت أنظر إليها، وأنا أستسلم لنعاسي وتعبي. وكدت أنزلق فعلاً إلى النوم لولا أنني، لسببٍ ما، تذكّرت زوجها في اللحظة الأخيرة. احتملتُ أن يكون، هو، وراء ما حدث على باب الشقة،

إنما بأصابع أبدول. وهنا رفعتْ رايا رأسها عن المخدة والتفتت نحوي بعينين حمراوين مذعورتين.

- ساعدْني أنهض!

قالت بصوت ضعيف، ثم أخفقتْ في تجليس نفسها على السرير فاستسلمتْ إلى وضعيّتها الأولى. نهضتُ من على الديوانة وخففتُ إليها. ساعدتُها في محاولتها النهوض مرةً أخرى، فأنزلتْ قدميها إلى الأرض، ثم أحاطت عنقي بذراعيها ووقفتْ بصعوبة وهي ترتعد، كأنما، من البرد.

- لا تخرج معي!

قالت وقد أسبلت يديها، كأنما لتبرهن لي على مقدرتها على الحركة من دوني. اتجهتْ مترنّحة تتراجف إلى باب الغرفة، فتبعتها وأنا أسندها.

- لا تخرج معي!

كرّرتْ بحزم وهي تختلج كلّها، ثم فهمتْ كأنما أنها لن تستطيع الخروج من دوني.

- أوصلْني إلى باب المصعد فقط.

همست لي.

فتحتُ باب الغرفة وخرجنا.

كان دهليز الشقة الآن شاغراً من ساشا.

- سأخرج قبلك.

قالت حين فتحتُ أمامها باب الشقة. ثم اندفعتْ بغتةً إلى كوريدور الطابق الطويل، فكان عليّ أن أسارع إلى تثبيتها على قدميها في اللحظة المناسبة قبل أن تهوي إلى الأرض. لا أحد في الكوريدور أيضاً. لا أحد. كانت رايا مبهورة الأنفاس تستند إلى كتفي بيد، وباليد الأخرى إلى الجدار.

- أسرعْ!

قالت دون أن تتحرّك من مكانها.

- أسرعْ!

كرّرتْ، وهي لا تعرف كيف تتقدّم إلى الأمام خطوة واحدة. كان يمنعها، كأنما، ارتجافُها وتقطّعُ أنفاسها، وربما أفكارُها الملتهبة التي لا أراها.

- احملني!

استسلمتْ أخيراً، وهي تنظر إليّ بعينين كسيرتين.

حملتها وانطلقت بها مسرعاً حتى إذا وصلت بها إلى باب المصعد شهقتْ:

- الدمية! أريد الدمية.

أنزلتها برفق شديد على الأرض. سندتها إلى الحائط قرب باب المصعد. نظرتُ إليها أطمئنّ إلى توازنها من دوني، فاستعجلتني بهزّة عصبيّة عنيفة من رأسها لكي أطير حالاً إلى غرفتي وأجلب لها الدمية، فطرتُ.

حين عدتُ بالدمية وجدتُ رايا مكوّمةً أمام باب المصعد الذي انفتح فجأةً وخرج منه أبدول ورجلان لم أرهما من قبل. انكبّوا عليها فوراً، انتشلوها من الأرض وأدخلوها إلى حجرة المصعد، فوجدتني أدخل معهم والدمية بين يديّ.

وقفتُ في زاوية المصعد. كان أحد الرجلين يدير ظهرَه لي ويحجب عني الرجل الآخر وجزءاً من رايا. وكان أبدول البدين يقبض عليها من الطرف الآخر.

نزل المصعد بنا في صمتٍ مُرَكَّزٍ ثقيل.

فم رايا جامدٌ على ابتسامة منهكة خفيفة وهي تشرد بدميتها بين يديّ، كما لو كانت تلاحق أثرها المبتعد على ضفّة ثانية من نهر.

أبدول ينظر إليّ ولا يراني- كان ينكرني.

وأنا لا أستوعب شعورَ راحةٍ عميقاً بدأ يغمرني الآن لأول مرة منذ قصاصة رايا الأولى على طاولتي- كنت أنكر رايا.

توقّف المصعد في الطابق الثالث، فخرجوا جميعاً.

تابعتُ إلى الطابق الأرضيّ، لأنني لم أدخل إلى المصعد لكي أعود به إلى غرفتي من جديد، فكّرتُ. خرجت من المبنى إلى الهواء. الهواء. الهواء. كان الهواء قليلاً في الشارع أيضاً، فرأيتني، بعد قليل، أمشي في طريق غابة البتولا القريبة تحت خيوط الشمس الأولى. كانت قدماي، بخفّة واسترسال، تأخذاني إلى هناك حيث سوق الأشجار المستقيمة العالية. هناك حيث كان التصاقنا الأول وتشابك أيدينا الأول وقبلتنا الأولى عند أول مقعد أخضر. هناك وجدتُ الهواء كثيراً جداً إلى درجة أنني استعدتُ، فجأةً وبقوّة، صلة القربى الغامضة، التي فقدتُها في المصعد، مع دمية رايا التي كانت ما تزال بين يديّ، فضممتها إلى صدري وبكيت.

V

بعد ساعات قليلة من النوم أيقظني المنبّه لأذهب إلى عملي. خشيتُ، ما إن فتّحت عينَي، من أن أكون قد أحجمتُ بالأمس عن القيام بأفضل ما كان بوسعي من أجل رايا. ثم نهضتُ من سريري بنشاط مفاجئ لا يتناسب أبداً مع حاجتي الملحّة إلى مزيد من النوم. كأنني نفرتُ من خاطري المبكّر وأردتُ تكذيبه في نفسي دون إبطاء. ولعلّي كنت سأتمكّن من تبرئة ذمّتي فعلاً لولا الدمية. كانت الآن جالسةً، في زاوية الديوانة، تنظر إليّ بعينيها الزرقاوين المرسومتين بريبةٍ واضحة وتعزّز في نفسي إحساساً ممضّاً بالتقصير تجاه رايا، كما لو أنني قد خذلتُها فعلاً في ليلة أمس بصورة من الصور.

كان بوسعي طبعاً أن أعتبر اتهام الدمية الصريح لي بالتخاذل نوعاً من التهيّؤات الخاصة التي يمكن أن يعتاد عليها الإنسان لا أكثر، فهي في نهاية الأمر ليست سوى دمية قماشية محشوّة بالقطن، كما يمكن أن يراها أيّ شخص منطقيّ وحصيف. غير أنني، إذا اعتبرتُها كذلك، أنا أيضاً، فإنما أتنكّر عملياً لطبيعتي، إذ ليس من شيمي، عموماً، أن أعير اهتماماً كبيراً للمنطق والحصافة بمعناهما الجافّ المملّ المتداول. إن كلّ شيء تقع عليه عيني يملك، بالنسبة لي، سيرةً شخصيةً لا علاقة لها بالتهيّؤات، فهي تحدث فعلاً في داخلي بكلّ تفاصيلها الحيّة، وأستطيع، بسهولة، أن

أقصّها على نفسي وقتما أشاء. وقد جعل ذلك حياتي الداخلية تنبض دائماً بحيواتِ وسِيَرِ الأشياء والنباتات والحيوانات والناس الذين ألتقيهم وأنشغل بهم في أي مكان. وقد كنت متأكّداً، وأنا اتّجه إلى الحمام، من أنني إذا حذفتُ، من حياتي، سِيَرَ الأشياء والكائنات والأحداثَ الهامة الكثيرة التي أقوم بها عادةً في داخلي، فإنني سوف أكون شخصاً آخر تماماً ما وددتُ يوماً أن ألتقيه. ولذلك فإن دمية رايا، من وجهة نظري كرجل يرتاب غالباً بالمنطق والحصافة الدارجين، لم تكن، ولا يمكن أن تكون في يوم من الأيام، مجرّد دمية قماشية محشوّة بالقطن. وإذا كان لم يمض على معرفتي بها أكثر من بضع ساعات فإن حقيقة عثوري عليها تحت سريري يجب أن تعني لي الكثير. لكنّ ذلك لا يُلْزمني طبعاً بتقبّل كل انطباعاتها ومواقفها وتصوّراتها المحتملة عن ما تراه وتعيشه كما لو كانت أحكاماً نهائية لا جدال فيها. ذلك لأن اللّبس والتردّد والحيرة وسوء الفهم لا تنجو منها أي فكرة، مهما بدت مُحْكَمةً ودقيقة، ليس فقط في ذهن الدمية بل وفي ذهني أنا بالذّات.

حاولت، وأنا أرتّب سريري، ثم وأنا أشرب فنجاناً سريعاً من القهوة، أن أتصرّف أمامها كما لو أن وجودها، حتى بريبتها المتواصلة بي، جزء أهليّ مألوف من حياتي اليومية في الغرفة. كان يحزّ في نفسي طبعاً أن أبدو في نظرها كأنني قد ارتكبتُ بالأمس ذنباً لا يُغتفر بحقّ رايا. إلا أنني لم أعتبر اتهامها لي بالتخاذل مسألة محسومة بيني وبينها حتى الآن. تمنيت، وأنا أغسل فنجان القهوة وأعيده إلى مكانه في خزانة الأواني، لو أنها تدرك أن فشلي بحماية رايا، إذا كان فعلاً فشلاً ذريعاً كما يبدو جلياً في عينيها الزرقاوين، فإنه لا يعني، ولا ينبغي أن يعني أبداً، أنني قد

توانيت، ولو لِلَحظةٍ واحدة، عن بذل طاقتي كلّها من أجل تحاشيه. ثم أردتُ، وأنا أرتدي ثياب خروجي، أن لا أهوّل على نفسي شكوكها الموجعة التي تضرمها بي دون توقف وأن أصرفها من ذهني قدر الإمكان. غير أنني لم أستطع للأسف. كأنني كنت، أنا نفسي، غير واثقٍ ببراءة كلّ ما بدر منّي ليلة البارحة، لكنني لم أجرؤ على التسليم بهذا الاحتمال- كنت متأكّداً من أنه سوف يُفسد يومي كلّه إذا خرجتُ من البيت دون تفنيده في نفسي على الأقل. وكانت الدمية قادرةً على مساعدتي في ذلك طبعاً، فأملتُ بكلّ قواي بأنها لن تتركني فريسةً لوساوسي برغم كل شيء ولسوف تراجع نفسها وتحسّن ظنّها بي بعد قليل. تشاغلتُ، قبل أن أخرج، بأشياء غير ضرورية أبداً، في الغرفة وفي الحمام وفي الموزّع، لأمنحها وقتاً إضافياً كافياً لإعادة التفكير بكلّ ما يخصّني شخصياً من أحداث الأمس. ثم اختلستُ إليها، برجاءِ من ينتظر حكماً عليه من شخصٍ عزيزٍ منصف، نظرةً سريعةً في اللحظة الأخيرة قبل أن أغادر الغرفة. وقد كان كأنما مباغِتاً لي، ومُحبِطاً جداً في الوقت نفسه، أنني لم ألحظ، في عينيها الزرقاوين على وجه الخصوص، أيّ تغييرٍ ملموس في موقفها المتشدّد منّي.

خرجتُ من البيت مُثقلاً بحاجةٍ ماسّةٍ إلى تبرير نفسي المذنبة على الأغلب بحق رايا دون أن أقصد.

في المترو ظهرت عينا الدمية الزرقاوان في بالي، ما إن جلست على المقعد، وجعلتا تلحّان من جديد بالنظر إليّ بالريبة المعذِّبة نفسها. لم أعرف كيف أبدّد إحساسي بهما حتى وقع نظري على رجلٍ واقفٍ قرب باب العربة. وكان من عادتي، في الوقت الطويل الذي أنفقه يومياً في

قطارات المترو، أن أشغل نفسي بسيرة أحد الناس المزدحمين من حولي. كان الرجل يرفع، بإحدى يديه، كتاباً مفتوحاً يقرؤه، وباليد الأخرى يمسك بمسند مقعدٍ مجاور. اعتقدت على الفور أنه محاسب في معمل ورق، وأنه متزوج منذ خمس سنوات، وأنه قد أوصل ابنته الصغيرة بنفسه إلى روضتها قبل أن يستقلّ المترو إلى عمله، وأنه قد نام وحده في ليلة البارحة لأن زوجته، التي تعمل مفتّشةً في واحدٍ من قطارات الليل الذاهبة إلى لينينغراد، قد غادرتْه في الساعة الحادية عشرة قبل منتصف ليلة أمس، وأنه يفكّر الآن بحسناتِ أن تغيب زوجة المرء من وقت إلى آخر. ولأنها لن تعود اليوم إلى المنزل قبل الثانية عشرة ليلاً فقد اتفق مع أختها تانيا، في اتصال هاتفي قبل أن يخرج من البيت، على أن تستلم ابنته من روضة الأطفال في المساء ثم تسبقه بها إلى المنزل وتنتظره ريثما يعود من حفلة عيد ميلاد صديقه أندريه. لم يكن هنالك أيّ عيد ميلاد طبعاً. كل ما في الأمر أنه كان سيقضي، بعد نهاية الدوام، ساعتين أو ثلاث ساعات من الحرية في إحدى الحانات مع أصدقاء أتيح لهم، هم أيضاً، الإفلات من زوجاتهم بذرائع مختلفة. وقد وافقت تانيا بطيبة خاطر لأنها كانت ما تزال تأمل بأن زوج أختها الطيب سيحدّث صديقه العازب أندريه عنها وسوف يعرّفه بها في سهرة منزلية في يوم قريب. ثم توقّفتُ فجأةً عن إكمال سيرة حياته عندما رفع رأسه الآن، عن الكتاب الذي كان شارداً بين سطوره، والتفت إليّ بالذّات وجعل ينظر في عينيّ مباشرةً. بدا لي كما لو أنه قد ضبطني متلبّساً بتفاصيل حياته الشخصية التي كنت أسردها لنفسي. ولعلّه اعتبر ذلك تطفّلاً، صارخاً ربما، لا يليق بي كشخص متحضّر أن أُقْدم عليه. ثم انتبهتُ فجأةً إلى أن عينيه كانتا زرقاوين بصورة مؤلمة، فلم

أستطع مقاومة نظرتهما الزرقاء المرتابة الطويلة الثاقبة، فنهضتُ فوراً من مكاني. وكان من حسن حظي أن المترو قد وصل في تلك اللحظة إلى محطة بلوشيد نوغينا، حيث كان عليّ أن أتحوّل من خطّ المترو البرتقالي إلى قطار آخر في الخط الأرجواني، فتوجهت إلى الباب في الحال وخرجتُ بسرعة.

في العربة الجديدة التي انتقلت إليها وقفت بين الناس الواقفين في الممر بين المقاعد. ثم ما لبثت أن جلست في مكانٍ شَغَرَ إلى جانبي في المحطة التالية. كانت تجلس، في أول المقعد الطويل المقابل، امرأة تنظر باستحسانٍ ذابلٍ إلى طلاء أظافر يديها المسترخيتين في حجرها. قدّرتُ أن اسمها لودا وأنها عزباء مع أنها كانت تبدو لي في عقدها الرابع. لكنّها، برغم ذلك، أمّ لابنةٍ في السابعة من عمرها اسمها مانيا. وقد أخذت مانيا لون عينيها السوداوين من أبيها دييغو الذي سافر إلى مسقط رأسه في تشيلي قبل ولادتها ولم يعد حتى الآن. ولأنه لم يتزوج من أمها قبل أن يسافر فقد اضطرّ جدّها الموسكوفي ديمتري بافليتش إلى أن يعطي اسمه وكنيته لحفيدته الجميلة. وكانت لودا قد لاحظتْ، في الشهور الأخيرة، أن ابنتها الصغيرة بدأت تَعِد صديقاتها برؤية أبيها دييغو، الذي لا تعرفه، في عيد ميلادها القادم. وكانت لا تريد أن تحرم ابنتها من رغبتها الملحّة في أن تثبت لصديقاتها أن لها، هي أيضاً، أباً يرعاها، لكنها لم تعرف حتى الآن كيف تجعلها تحلم بمجيء أبيها دون أن تتأثر كثيراً إذا خلف بوعده، الذي تخيّلتْه، ولم يُمَكّن أحداً من رؤيته في عيد ميلادها القادم. ولم يكن صعباً عليّ أبداً أن أجد حلًّا لهذه المشكلة، غير أن ما بلْبَلَني أنني اكتشفتُ فجأةً أن لدى لودا، هي الأخرى، عينين زرقاوين- كانت قد

رفعتهما عن أظافر يديها وانحرفتْ برأسها إلى اليمين قليلاً وجعلت تنظر باهتمام واضح إلى خريطة محطات المترو الملصوقة بين النافذة والباب المحاذي لي. ولم يكن ثمة الآن ما يضمن لي طبعـًا أنها لن تلاحظني إذا التفتتْ إلى اليسار بعد قليل، وأنها لن تنبش بعينيها الزرقاوين ما كنت أتنصّل منه في نفسي دون جدوى منذ نهضتُ من سريري في الصباح الباكر. وكان عليّ أن أفعل شيئـًا قبل أن تلتفت إلى جهتي، وقد أصبحتُ مُهيَّأً الآن لأن أرى كل الركاب من حولي يحملقون بي بعيون صارمةٍ مرتابةٍ زرقاء، فأغمضتُ عينيّ في الحال، وتابعت سرد قصة لودا وحدي في ظلام جفوني المُطْبَقة. لم يكن يزعجني، في هذه الأثناء، صوت الرجل المسجَّل الذي كان ينبّه الركاب، عبر مكبّر الصوت، إلى أسماء المحطات المتتالية. ظل صوته الآليّ وضجيج العجلات الحديدية واصطفاق الأبواب تختلط، بسلام وحياد، بأحداث الحياة المختلفة التي ظلّت تعيشها لودا وابنتها في داخلي طوال الطريق. وحين فتّحتُ عينيّ، مع وصولي إلى محطتي، لم أجد لودا في مكانها، فخرجتُ مسرعـًا من العربة، وأنا أعتقد أنه ليس من الضروري أبداً، لكي تجري حياةُ شخصٍ من الأشخاص في داخلك، أن يكون هذا الشخص موجوداً أو ممكن الوجود في أيّ مكان. ثم رأيت أن استمرار حياة لودا وابنتها في داخلي لن يعيقني حتمـًا عن ممارسة عملي في الجريدة. وهذا ليس بغريب عليّ على أيّ حال، فغالبـًا ما تجري في داخلي، على خلفية أشغالي الظاهرة في حياتي اليومية، أعمالٌ غير مرئية كثيرة، هامة جداً من وجهة نظري، لا يشعر بها أحد سواي. ولذلك أراني أبدو في عيون الناس المحيطين بي كما لو أنني لا أقوم بأعمال أخرى حين أنهمك بتنظيف البيت وتحضير الطعام وتصليح بعض

الأشياء المنزلية المعطّلة وحين أمشي وأتبادل الكلام وأشاهد الأفلام والمسرحيات واللوحات وكذلك حين أقرأ وأكتب وأترجم. وقد أعجبني دائماً أن لا يرى الآخرون الأعمال والسِيَر التي تحدث في داخلي بحريّة تامّة وبدأب وصبر ومهارة حتى حين أنام أو أتناوم. وقد كنت مستعداً، وأنا أخرج من بوابة المترو، لأن أفعل كل ما بوسعي، اليوم بالذات، لأن أعيش في داخلي مع لودا ومانيا وديبغو فقط، فلا يظهر مني للآخرين سوى هيئتي الخارجية شبه المضمحلّة لموظّف غارقٍ في عمله الروتيني إلى درجةٍ يصعب معها تمييزه جالساً إلى مكتبه. وعندما سينتهي الدوام سوف أخرج دون أن يلاحظني أحد، ثم أظلّ، في داخلي، أركب قطارات المترو دون أن أصل إلى بيتي أبداً. ليتني لا أعود اليوم إلى البيت، همست لنفسي، وأنا أنتظر اشتعال اللون الأخضر في إشارة المرور. ثم اعترفت بأنني، مهما انفصلت عن الأشياء الكثيرة الزائدة غير المتوقّعة التي تحدث من حولي، لن أستطيع العيش في داخلي فقط. لقد تعلّمت، بحكم خبرتي الطويلة بالعيش في داخلي، أنني لا أنجو دائماً من منغّصاتٍ عنيدةٍ تتسرّب إليّ من الخارج رغماً عني أو من تحت ركام الحوادث والأيام في ذاكرتي نفسها. يؤسفني حقاً أنني لا أتحكّم بكل الأفكار والانطباعات والذكريات وسيناريوهات الأحداث الممكنة وسِيَر الحيوانات والنباتات والأشخاص المتخيّلين التي تجري عادةً بيني وبين نفسي. لذلك لا أستغرب أن تفرض نفسَها عليّ، في بعض الأحيان، أشياءٌ مؤلمة لا أعرف كيف أتخلّص منها بالهيّن. كشيءٍ سيئٍ أتخيّله وأخشى دائماً من حصوله في أي لحظة. أو كحادثةٍ قديمة عنيدة لا تُنسى وددتُ دائماً لو أنها لم تحصل معي ذات يوم. أو حتى كعينَيّ دمية رايا الزرقاوين اللتين

أهرب منهما منذ فتّحت عينيّ في هذا الصباح، تابعت تفكيري وأنا أقطع الشارع. ثم لفت نظري أن امرأة ترتدي قميصاً صيفياً أزرق كانت تسبقني بعدّة خطوات. كانت تستطيع طبعاً أن ترتدي قميصاً آخر قبل أن تخرج من بيتها. كما كانت تستطيع أن تؤخر ظهورها، أو تقدّمه، ما يكفي من الوقت لأن أقطع الشارع دون أن ألاحظها. ثم فكّرت باستحالة أن يختار المرءُ العابرين الذين يفضّل مصادفتهم في طريقه. لكنني أملتُ، وقد انعطفتُ إلى اليمين ما إن بلغتُ حافة الرصيف متوجّهاً إلى باب الجريدة، بأن تتابع لودا وابنتها مانيا حياتهما في داخلي بصورةٍ لا تُحيجهما أبداً إلى أيّ شيءٍ أزرق في هذا اليوم. وفي الدرجات الأولى من صعودي الدرج خطر بي أن لودا لم تلتق في الحقيقة بأي رجلٍ تشيليّ اسمه دييغو، إنما اضطرّتْ إلى اختراعه من أجل ابنتها مانيا حين سألتها عن أبيها للمرة الأولى فيما كانتا عائدتين بالقطار من زيارة إلى كاتيا، شقيقة لودا المتزوجة من سائق ترولّلي في مدينة ريغا- وهذا بالمناسبة رجل طيب وشهم وإن كان لا يسيطر على نفسه بعد ثلاث كؤوس من الفودكا. هل كانت لودا تقصد من اختراع دييغو، الذي كان يمكن أن تفصلها عنه في الواقع آلاف الكيلومترات، أن تمحو نهائياً أي احتمالٍ لذِكْر والد ابنتها الحقيقيّ في بيتها؟ ربما. ولا أستثني أن يكون هذا الأخير من جملة الناس الذين تصادفهم في حياتها اليومية بموسكو. لكنّ سبباً موجعاً جداً على الأغلب جعلها تحاول اقتلاعه من حياتها إلى الأبد ولا تريد أن تربّي في ابنتها أي فكرةٍ واقعيةٍ عنه ولا أيّ أملٍ بلقائه في المستقبل، فاختلقت لها قصتها مع دييغو شبه المستحيل. أما إذاً كان دييغو شخصاً موجوداً فعلاً في تشيلي، فمن الوارد جداً أن يكون، من باب الإثارة على الأقل، رجلاً

طاعنـًا بالسن. وقد ربطتْه بلودا قصة حب غير مطروقة لم تُحجْه إلى أيّ لقاء معها لكي يقع في غرامها كما يفعل العشاق عادةً. إن لودا لم تتم بعدُ عامها الثامن والثلاثين بينما سيبلغ دييغو السبعين من عمره بعد شهرين وعشرة أيام، أي في التاسع من شهر أكتوبر القادم. وقد عُرف عنه أنه لم يغادر بلدته الصغيرة ألتو ديل كارمن في إقليم أتاكاما في تشيلي طيلة حياته. وهناك من يُعيد سبب ذلك إلى رِجْله اليمنى التي توقفت تمامًا عن النمو عندما كان في السادسة من عمره. غير أن الكثيرين، من الذين يعرفونه عن كثب، يعتقدون أن السبب الحقيقي الذي منعه من الخروج من البلدة كان خوف والده الإسكافي عليه. ويقال إنه، بعد أن لاحظ ذات يوم السرعة العجيبة التي كان الصبيّ دييغو يتسابق مع الصبيان الآخرين بالجري في الشوارع قفزاً على قدم واحدة، قلق عليه كثيراً. ثم ربطه، في مساء اليوم نفسه، بجنزير طويل من رجله السليمة إلى عمود يتوسّط ورشةً لتصليح الأحذية كانا يعيشان ويعملان فيها وحيدَيْن، ولم يفكّه منها حتى بلغ العشرين من العمر. لكنه جعل منه، في هذه الفترة، إسكافيًا ماهراً وصل صيته إلى معظم أصحاب الأحذية المُعمِّرة الذين يعيشون في ضواحي الصفيح المحيطة بالمدن الكبرى المجاورة. ثم تنازل له عن الورشة، قبل أن يموت بأسبوعين، مشترطًا عليه أن يدفنه في المكان الذي شغله سريره فيها طوال حياته. وقد اضطر دييغو، بعد وفاة أبيه مباشرة، إلى أن يُجري في الورشة تعديلاً طفيفًا لتوسيع مساحتها، فباع سريره وسرير أبيه الخشبيين القديمين. وصار ينام ويجلس ويتناول طعامه ويستقبل أصدقاءه فوق قبر أبيه بعد أن مهّد سطحَه وفرشه بملابس قديمة مهترئة وبما تراكم في الورشة، عبر السنين، من النعال التالفة ومراييل العمل

البالية ورقع الجلد المستعملة التي لا فائدة منها. أما متى وكيف تسنّى له أن يقع في غرام لودا، برغم المسافة التي لا نهاية لها بين موسكو وألتو ديل كارمن، فكان ذلك، على وجه التقدير، قبل ثمانية عشر عاماً. وربما في يوم بارد ومشمس من شهر فبراير من عام 1971 عندما شاهد صورتها لأول مرة على صفحة من صفحات مجلة "بلاد السوفييت". وقد كانت هذه المجلة، في تلك الأيام، تترجم إلى معظم اللغات العالمية وتوزّع مجاناً تقريباً على شعوبها المحبة للسلام. أذكر، في طفولتي بالرقة، أنها كانت تباع في مكتبة بور سعيد بعشرة قروش سورية وتُرفق غالباً بكتب مجانية سميكة تروّج الفكر الاشتراكي والمنجزات التي تحققت في الاتحاد السوفييتي بعد ثورة أكتوبر العظمى. وقد وصلت المجلة إلى يد دييغو بعد أن نسيها في ورشة الأحذية زبون شيوعي، من ذوي الأحذية الخالدة بفضل مهارة دييغو، كان يواظب على قراءتها وربما على شرائها فقط. وكانت لودا عندئذٍ عاملة نسيج في العشرين من عمرها، وقد التُقِطت لها الصورة المنشورة في المجلة فيما كانت تراقب حركة الخيوط المنتظمة في آلة نسيج ضخمة كانت تقف أمامها.

- نيكيتا ميخالكوف..

هتف بذلك فجأة صوت امرأةٍ تناهى إليّ من باب مفتوح في كوريدور الجريدة، بينما كنت متوجّهاً إلى مكتبي، دون أن أفهم طبعاً السياق الذي اضطرها إلى الهتاف باسم ممثل ومخرج سينمائيّ شهير. لم يكن نيكيتا ميخالكوف بالنسبة لي ممثلاً مفضّلاً على كل حال، اعترفتُ وأنا أراه في داخلي بوضوح يقف، لبضع لحظات فقط، إلى جانب لودا ومانيا ودييغو وصوت المرأة التي هتفت باسمه. وإذا كنت أحياناً أتحمّل

مشاهدة فيلم جديد له إلى الآخر فإنما لكي أمنحه فرصةً دوريّةً جديدةً ليغيّر وجهة نظري به. ولكنْ عبثًا، ففي كل ما شاهدته من أفلامه ظلّ يشكل لديّ انطباعًا قويًا بأنه لا يلعب الشخصية التي يمثّلها، بل يدّعيها. ربما لأن إيمانه القويّ بحضوره الشخصيّ في الحياة قد عرقل دائمًا تطوّر الشخصيات التي يقوم بأدائها على الشاشة، ما كان يجعلها تبدو، في عينيّ على الأقل، كما لو أنها شخصيات مستنسخة عن شخصية مزيّفة واحدة. حتى في مقابلاته التلفزيونية، أو في لقاءاته "العفوية" المصوّرة مع الناس، كان يبدو لي كما لو أنه يخفي، بإصرارٍ سينمائيٍّ مسبق، النسخةَ الأصلية من نيكيتا ميخالكوف بنسخةٍ رائجةٍ غير حقيقيةٍ من نيكيتا ميخالكوف.

عندما وصلتُ إلى الغرفة ألقيتُ بـ "صباح الخير" على زملائي بنبرةٍ جافّةٍ راعت، برغم كلّ شيء، الحدّ الأدنى من اللباقة، لكنها كانت كافية، كما ظننت، لأن لا تشجّع أيًا منهم على فتح أيّ حديث معي. وإذ جلست إلى مكتبي لفتت نظري، كما لم تفعل قطّ بهذا الوضوح، قطعةٌ طولانيّة من سماء صافية زرقاء تملأ، كأنما بإصرارٍ مُبيّت، النافذةَ المفتوحة على مصراعيها. حوّلت وجهي مباشرةً إلى سطح مكتبي ولاحظت مقالاً مستلقيًا أمامي قرأت عنوانه من بعيد دون أن أمدّ يدي إليه: "الحياة في غابات التايغا". تململتْ في ذاكرتي معلومات عشوائية فقيرة عن الأشجار والثلوج والمستنقعات والطحالب والثعالب والذئاب والدببة التي سأصادفها ربما بين سطوره بعد قليل. لا بدّ أن رئيس التحرير قد وضعه على مكتبي قبل وصولي، فكّرتُ. ثم قدّرتُ، من عدد صفحاته الكثيرة، أن ترجمته ستحتاج مني وقتًا طويلاً، فانكببتُ عليه مباشرةً دون أن أقرأه في البداية وأتمعّن فيه كما أفعل عادةً حين أترجم نصًا أدبيًا أو مقالاً نقديًا.

لاحظت بعد قليل أن صديقي سالم، خطّاط الجريدة، قد نهض من وراء مكتبه، ثم اقترب من مكتبي وتمكّث قليلاً أمامي منتظراً كأنما أن أرفع رأسي إليه وأستفسر منه عمّا إذا كان يريد شيئًا منّي. ثم سرعان ما فهم، بشيءٍ من الاستياء على الأغلب، أنني لن أقطع انشغالي بغابات التايغا التي يراها بين يديّ، ولا، بطبيعة الحال، بالأحداث المتواصلة في داخلي من حياة لودا ومانيا وديبغو الذين لا يعرفهم ولا يشعر بوجودهم. لكنّ ذلك لم يمنعه، عندما عاد خائبًا إلى مكتبه، من أن يُضيّفني، وإنْ بتبرّمٍ فاترٍ وصمْتٍ بارد، كأسًا حارة كبيرة من الشاي بالنعناع الذي يعدّه بنفسه عادةً فوق سخّان كهربائي صغير الحجم.

كنت أستطيع طبعًا أن أنهي ترجمة المقال في اليوم التالي، فرئيس التحرير لم يرفقه بأيّ قصاصة تشير إلى أنه عاجل. غير أنني وجدتُ أن أيّ إحساسٍ بفائض الوقت في هذا اليوم تحديداً كان سيجعلني أشعر بمن، وما، حولي بصورةٍ أوضح ربما من طاقتي على الهضم والاحتمال. حتى في فسحة الغداء لم أتناول طعامي في مطعم الجريدة، كما اعتدتُ أن أفعل أنا وسالم إلى طاولة واحدة. اكتفيت بصندويشة جبنة صعدت بها إلى مكتبي، أكلتها على عجل وتابعت عملي. الأمر الذي زاد، لا بدّ، من حنق صديقي الخطاط بصورة خاصة. توقعت أن يكون لديه حصاد جديد من الأخبار عن مساوئ ميخائيل غورباتشوف وارتباطاته الخارجية أو عن فضائح سياسية طازجة حول دور يهود روسيا في تخريب الاتحاد السوفييتي نقلتْها إليه زينائيدا بتروفنا. وهي امرأة خمسينية تقوم بتنظيف المكاتب في الصباح، وتبدو دائمًا، من شدّة حماستها لثورة أوكتوبر، أنها تشارك يوميًا بهجوم الحرس الأحمر على القصر الشتوي الذي حدث في عام 1917.

ثم لم أنتبه، في غمرة انشغالي، إلى مرور الوقت، لكنني حين أوشكت على الانتهاء من ترجمة المقال نظرت إلى ساعة الجدار المعلّقة في صدر الغرفة، تماماً فوق قطعة السماء الطولانيّة التي كانت ما تزال زرقاء في النافذة حتى الآن، وشعرت فوراً بما يشبه الإحباط. كانت الساعة الآن تشير، ببرود معدنيّ بغيض، إلى أن الدوام قد انتهى عملياً منذ خمس عشرة دقيقة. وكان ذلك يعني دون لبس أن عليّ أن أنهض حالاً وأغادر مبنى الجريدة. وقد كنت كأنما غير مستعدّ بعدُ لأن أتحرك من مكاني، فخروجي من الجريدة لم يكن يعني لي في تلك اللحظات سوى عودتي إلى البيت حصراً- كأنني كنت محكوماً بقوةٍ قاهرةٍ لن تسمح لي بأن أذهب إلى أيّ مكان آخر. وكانت قد استجدّت في داخلي، طيلة الساعات التي أنفقتها على غابات التايغا، أحداث كثيرة في حياة لودا ومانيا وديبغو. إلّا أن الانتهاء المباغت للدوام وإحساسي بعودتي الإجبارية الآن إلى البيت قد محَوَا في ذهني فجأةً كلّ تلك الأحداث فما عاد بوسعي أن أتذكر من نُتفها المضمحلّة في رأسي شيئاً مفيداً واحداً. ثم زاد من إحباطي أنني حاولت أن أجعل لودا ومانيا وديبغو يعيشون حيوات جديدة مختلفة عن تلك التي عاشوها في داخلي منذ الصباح، ولم أستطع. بدوت كما لو أنني لم أنشغل بهم قط. كان يتّسع الآن في داخلي فراغ أزرق ثقيل ظننتُ أنني لن أستطيع معه أن أسرد على نفسي، في هذا المساء بالذات، سيرة أي حيوان أو إنسان أو نبات مهما احتجتُ إلى ذلك.

نهضت متثاقلاً من وراء مكتبي مجرّداً كأنما من حياتي الحقيقية التي أقضيها غالباً في داخلي. ثم تحرّكتُ باتجاه باب الغرفة، كما لو كنت رجلاً غيري. لاحظتُ بطرف عيني أن صديقي سالم كان ما يزال جالساً في مكانه. وقد كنت على يقين من أنه قد تَلَبّث وراء مكتبه، هذه الدقائق

الخمس عشرة الإضافية، من أجل أن ينفرد بي. توقّعت أن يستوقفني الآن، قبل أن أخرج، ليسألني عن سلوكي الانطوائيّ المتحفّظ معه ومع غيره من زملائنا في الغرفة طيلة الدوام. وكنت متأكّداً من أنني لن أعرف كيف سأجيبه عن سؤاله، فلوّحت له بيدي، الناشفة كأنما من أي مضمون أو إحساس، وغادرتُ الغرفة بسرعة قبل أن يطرح أفكاره وهواجسه عليّ. ولكي أقلّل كثيراً من احتمال لحاقه بي قطعتُ، بسرعةٍ متناميةٍ مع كلّ خطوة، الكوريدورَ الضيق المتلوّي الطويل الذي يفضي إلى درج المدخل. بيد أنني أدركت فجأةً، وأنا أنزل الدرج باتجاه باب المبنى، أنني قد ارتكبت خطأً جسيمًا بالهروب من صديقي سالم، فتمنّيت في الحال لو أنه يلحق بي. ولكي أمكّنه من ذلك صرت أتابع نزولي الدرج ببطء شديد. لقد كان الشخص الوحيد القادر، بموافقتي التامة، على دحض كلّ الذرائع القوية التي كان يمكنني اختراعها لكي أعود إلى البيت في مثل هذا الوقت. ثم إنني كنت أستطيع، في نهاية الأمر، أن أعتذر عن عدم الإجابة عن أيّ سؤال متعلّق بانطوائي طيلة الدوام، فهو صديقي وعليه أن يترك لي أن أقرّر ما إذا كنت أرغب، الآن، بأن أحدّثه عن ما يجري في حياتي الشخصية. كما كان يستطيع، من ناحيته، أن يرتجل، مثلاً، ليلةً طويلةً جداً نقضيها معًا في بارٍ أو في مطعمٍ أو في منزل أحد معارفه الكثيرين.

تريّثت، في انتظاره، عند باب المبنى ربما لدقائق..

لم يلحق بي.

لم أيأس.

منحت نفسي أملاً جديداً بأن يراني وينادي من بعيد، فقطعت الشارع متمشّيًا على مهلي باتجاه مترو بوشكينسكيا. ولكي أظلّ مرئيًا

لـه، عنـدما سـيخرج مـن بـاب الجريـدة، حرصـتُ علـى تجنّـب الأشـجار المصطفّة إلى يميني. وكنت أتريّث في مكاني، من وقت إلى آخر، وأفتّش جيوبي كأنما عن شيءٍ كان عليّ أن لا أنساه على سطح مكتبي قبل أن أغادر. ثم في اللحظات الأخيرة، قبل أن أنعطف باتجاه مدخل المحطة، خامرتني رغبة قوية بأن ألتفت إلى الوراء لأراه. لم ألتفت. كنت متأكّداً من أنني كنت سأشعر بسوءٍ أقسى لو التفتّ ولم أجده ورائي. انعطفت إلى يميني وتابعت طريقي نحو المحطّة دون أن أسمع اسمي بصوته البعيد. وفيما بدأت الأشجار تحجبني تماماً عن أي شخصٍ قادمٍ من جهة الجريدة اعترفت لنفسي بأنني مشتّت ومضطرب وفي حاجةٍ، ماسّةٍ كأنما، إلى أن أستجمع نفسي قبل أن أعود إلى البيت. قلتُ سوف أجلس قليلاً جداً فقط على مقعد في البولفار القريب. ثم قلت الأفضل أن أحتسي كأساً واحدة فقط من النبيذ في مكانٍ ما. ثم رسوتُ أخيراً على أن أذهب إلى مطعم شعبيّ قريب يقدم وجباتٍ ساخنة من البلمينية.

لم يزعجني، هذه المرة، طول الطابور المتمدّد على الرصيف أمام باب المطعم. انتظرت، دون تذمّر على غير العادة، وكنت مستعداً لأن أقضي وقتاً أطول بكثير من الوقت الذي انتظرته حتى جاء دوري. طلبت، من المرأة الجالسة وراء صندوق المحاسبة، وجبةً مزدوجة استلمتها بعد انتظار قصير جداً. تلفتّ من حولي أبحث، بنظرة طويلة متفحّصة، عن مكان شاغر بين المتحلّقين وقوفاً حول طاولاتهم. لم أجد. ثم لمحتُ مكاناً لي بين ظهور رجال ونساء متحاذين على نسق واحد أمام صحونهم المصطفّة فوق رفٍّ خشبيّ طويل مثبّت في الجدار. اقتربت منهم ووضعت صحني بمحاذاة صحونهم على الرفّ، وقد لفت نظري أنني لم أشعر بالضيق أبداً من قرب

الجدار الشديد من وجهي. بدأت آكل، وأنا لا أشعر ولا أفكّر بغير كرات العجين الصغيرة المحشوّة باللحم التي أراها في صحني وأضمّها برأس الشوكة في فمي. ثم فوجئت بأن وجبتي المزدوجة انتهت بسرعة، مع أنني ظننت طيلة الوقت أنني كنت آكل ببطءٍ مقصود. اعتقدت أنني لم أشبع وأنني سوف أقف في الطابور الطويل من جديد لآكل وجبةً مزدوجةً أخرى، لكنني حين خرجت من باب المطعم، ألفيتُني أمضي في طريق عودتي إلى محطة المترو. وحين وقفت على الدرج الآلي الهابط بي إلى رصيف القطار، لم أكن واثقًا أبداً بما إذا كنت قد استجمعت شيئًا محدّداً من نفسي المشتّتة في المطعم. كلّ ما فعلته عمليًا هناك هو أنني أكلتُ بكلّ جوارحي، فقد اكتشفت، مع رائحة الخل والكريمة المتصاعدة من صحني الحار، أنني كنت جائعًا جداً وأن البلمينية طبق عظيم برغم كلّ شيء.

لم أعرف بعدئذٍ كيف وصل بي قطار المترو، بسرعةٍ عجيبة، إلى محطة فِدِنْخا القريبة من بيتي. لم أميّز في العربة أحداً من حولي ولم أشعر بأحد. ولعلّي غفوت فوراً ما إن جلست على المقعد، ثم نهضت، بعد ثانيةٍ واحدةٍ فقط كما خُيّل لي، لأجدني خارج القطار على درج المحطة الآلي الصاعد بي باتجاه المخرج. أما كيف تحوّلتُ قبل ذلك، وأنا نائم أو نصف نائم، من قطار في الخط الأرجوانيّ إلى آخر في الخط البرتقاليّ، فذلك ما لم أكن أملك عنه أيّ تصوّر أو تفسير.

حين انعطفت في شارع غالوشكين كان الفراغ الأزرق الثقيل الموحش ما يزال يملأ راسي تماماً، بينما لم يبق عليّ سوى أن أتجاوز عدة مداخل إلى يساري لأصل إلى مدخل البناية التي كنت أسكن فيها. لم أفهم كيف سأفتح باب غرفتي على دمية رايا وبأيّ وجه سأنظر إلى

عينيها الزرقاوين، وأنا أحمل كل هذا الفراغ البهيم في داخلي. كان عليّ، في الخطوات المعدودة المتبقّية أمامي، أن أشغل نفسي، ما أمكنني، بفكرةٍ عملية واحدة على الأقل تحسّن من ظنّ الدمية، وظنّي، بي. فكرة بسيطة واضحة فعّالة وقابلة للتنفيذ الفوريّ دون تردّد أو تَحَسُّب. في الصباح كانت الدمية تنظر إليّ كما تنظر إلى شخص متخاذلٍ لم يقم بما كان ينبغي عليه أن يقوم به من أجل امرأة يحبها وتحبّه. وقد آلمني ذلك كثيراً، وعليّ الآن أن أثبت لها، ولي، أنني لست كذلك. ولكي أثبت ذلك توقعتُ وتمنيتُ، وأنا أدخل مصعد البناية، أن أجد رايا الآن في غرفتي من جديد. سوف يمنحني وجودها عندي هذا المساء أيضاً فرصة ثمينة لأن أتجنّب طريقتي الفاشلة التي اتّبعتها للحفاظ عليها في ليلة أمس. حتى لو جاء أبدول بكلّ أذريّي موسكو عليّ أن أجد، هذه الليلة، حلاً أكثر نجاعةً من الانتظار والخوف وراء باب الشقة المقفل. سوف أفتح الباب لهم بنفسي هذه المرة، فأنا أحب رايا في نهاية الأمر وعليّ أن أدافع عن خَيارها، حتى لو اعتقد السيد أبدول أنها ارتكبت خطيئة لا تُغتفر برفضها البقاء في غرفته الجديدة في الطابق الثالث ثم بلجوئها المعلن اليوم أيضاً إلى غرفتي. لا، لن أثبّط همّتي، كما فعلتُ ليلة أمس، بالعواقب المحتملة الوخيمة، بل سأكون مستعداً لأن أتحمّلها بشجاعة قدر الإمكان مهما كانت بشعة وقاسية وفوق قدرتي على التحمّل. وقد منحني هذا الاستعداد الباسل، وأنا أخرج من المصعد في الطابق الرابع عشر، شعوراً بردّ الاعتبار لنفسي كنت كأنما بحاجةٍ إليه منذ لحظة استيقاظي في الصباح.

انعطفت في الكوريدور الطويل، وبي رغبة شديدة بالوصول إلى باب شقتي بأسرع ما يمكن. تصوّرتُ أنني سوف أفتح باب غرفتي، بعد

لحظات قليلة فقط، وسأجد رايا جالسةً إلى مكتبي تتابع قراءتها في كتاب ألكسندر بلوك نفسه الذي كانت تقرؤه بالأمس. ثم ما لبثتُ أن شعرت بما يشبه خيبةً طفيفةً حين لم أرَ من بعيد، كما وددتُ أن أرى، أبدول وساشا المتجهّمين يدخنان ويبربران أمام باب الشقة كما كانا يفعلان في مساء أمس. كنت أستطيع اليوم أن ألقي عليهما تحية المساء، كما لو أنني لا ألاحظ، ولن يهمني أبداً هذه المرّة أن ألاحظ، أنهما يتجاهلانني وربما يزدريان بي بإصرار.

فتحت باب الشقة، وكلّي حماسة ولهفة لأن أضمّ رايا الآن، الآن، إلى صدري بكلّ قواي.

استوقفني في الموزّع المظلم أنني لم أميّز أيّ نورٍ متسرّبٍ من تحت باب غرفتي.

نائمة لا بدّ أنها نائمة، أملتُ وصدّقتُ.

دفعت باب غرفتي برفق شديد لكي لا أوقظها. لم يكن كأنما ما تبقى من ضوء أول المساء في النافذة كافياً، فأشعلت النور، بعد أن دخلتُ، لأتأكّد من وجودها.

لم تكن في الغرفة.

لاحظت اختفاء حقيبة سفرها التي كانت مركونةً إلى جوار المكتبة عندما غادرتُ في الصباح.

لكنّ دميتها كانت ما تزال جالسةً في زاوية الديوانة.

اقتربت منها وجلست أمامها على المقعد المقابل. نظرت مباشرةً في عينيها الزرقاوين اللتين طاردتاني طيلة النهار، ولم أشعر الآن أمامهما بأيّ حرج. بل خيّل لي أنها كانت سعيدة جداً بعودتي ولعلّها كانت تنتظرني

بصبر نافد لنفكّر الآن معـًا بما يمكننا أن نفعله من أجل رايا مادامت لم تعد إلينا حتى الآن. أرضاني كثيراً استعدادها الواضح للتعاون معي، فتعزّز لدي إحساسي بقدرتي على حماية رايا هذا المساء. وكنت أفهم جيداً طبعـًا أنني لن أستطيع حمايتها ما لم أعثر عليها في البداية، ولكي أعثر عليها كان لا بدّ من مقابلة أبدول.

كان أبدول يعرف موعد عودتي من العمل، فتوقّعتُ أن يطرق باب الشقة، في غضون الدقائق القليلة القادمة، لا لكي يزور صديقه ساشا طبعـًا، بل لكي يشمت بي مثلاً. أو ليحذّرني، دون مواربة، من مغبّة الاقتراب من رايا إذا صادفتُها مرةً أخرى. أو لينصحني، بنبرة شخص حريص على مستقبله التلفزيوني، أن أبتعد عن طريقها لكي لا أعرّض نفسي لتبعاتٍ لن أكون قادراً على مواجهتها حتمـًا.

فتحت باب غرفتي إلى الآخر، ثم أشعلت النور في الموزّع ليعرف أبدول، ما إن سيُفتح له باب الشقة، أنني في انتظاره. وقد كان مفيداً أيضـًا أن يلاحظني جاري الجديد ساشا، فقد يكون لديه هو الآخر ما يقوله لي، أو أن يكون مكلّفـًا أصلاً بإيصال رسالة شفهيّة لي من صديقه أبدول.

صرتُ أُكْثِر من خروجي إلى الموزّع والحمّام، كما بدأت أسعل أحيانـًا سعالاً مفتعلاً قويـًا ليتأكّد ساشا من عودتي من العمل. ثم سمعت، وربما تخيّلت، خرتشةً تناهت إليّ فجأةً من جهة بابه المطبق، فتسمّرت في الموزّع وتهيّأت للقائه. فهمت بعدئذٍ أنه لن يخرج. لابدّ أنه أدرك، من الجلبة التي كنت أتعمّدها، مقدار حاجتي إلى ما يمكن أن يقوله لي أو إلى ما يمكن أن تَرْشَح ملامحُه لي من أخبار رايا، فقرّر أن لا يخرج من باب النكاية. غير أن ذلك لم يُشعرني بالخذلان، كأنني كنت أملك سُبُلي

الاحتياطية الخاصة، التي لم أفصح عنها بعدُ والتي كنت أجهلها في واقع الأمر، لأبرهن له ولأبدول ولأذرييه جميعاً أنني لن أتنازل عن رايا في نهاية المطاف. كنت كأنما مفتوناً بأنني أصبحت الآن متعلّقاً بها أكثر بكثير من تعلّقي بها ليلة البارحة. وقد بعثتْ بي هذه الفتنةُ شوقاً عاصفاً ما عهدته قطّ إليها، فرأيتني أمسك فجأةً بدميتها وأخرج بها مسرعاً من الشقة.

لقد قررت أن أذهب بنفسي فوراً إلى أبدول في الطابق الثالث.

شعرتُ، وأنا أضم الدمية إلى صدري، بأنني أقوى مما لو كنت بدونها.

لم أكن أعرف رقم الشقة التي انتقل إليها أبدول في الطابق الثالث، فبدأت أبحث عن إسمه بين الأسماء المكتوبة إلى جانب أجراس أبواب الشقق على جانبَي الكوريدور. فاجأني، بعد مروري بعدة أبواب، أنني عثرت على اسم يلينا ليفينسكيا مع اسم شخصٍ آخر. وهي امرأة شابة تعرّفت على اسمها، ذات يوم، مكتوباً على ظهر رسالة بريدية وجدتها فيما كنت خارجاً من المصعد، فالتقطتُها وتوجّهت بها إلى لوحة الإعلانات. وبينما كنت أحاول تثبيتها في مكان ظاهر تحت زجاج اللوحة توقفتْ امرأة بالقرب مني وقالت لي إن هذه الرسالة قد سقطت منها قبل قليل دون تنتبه. مددتُ يدي بها إليها فاستلمتْها منّي، ثم شكرتني وتابعت طريقها إلى خارج البناية. ومنذ ذلك اليوم أصبحنا لا نتردّد، كلّما التقينا بالمصادفة في مدخل البناية أو في بهوها أو في المصعد، في أن نتبادل التحية مع ابتسامة مجاملة خفيفة في غالب الأحيان. لكنّ ذلك التفصيل اللطيف، الذي حدث بيننا ذات صباح، لم يكن كأنما كافياً لأحدٍ منّا بعدئذٍ لكي يبادر باتجاه الآخر بأيّ إضافة ودودة أو ليعرف في أيّ شقة يعيش بالضبط.

توقّفتُ الآن عند بابها، ثم دون أن أملك مسوّغًا مفهومًا واحداً وجدتُني أضغط على جرسها دون تردّد.

فتحتْ الباب بعد قليل.

- مرحبًا!

قالت مبتسمةً، وهي تغالب استغرابها من قيامي بزيارتها. وبرغم ثقتي الأكيدة بأنها لم تكن تعرف شيئًا عن علاقتي مع رايا، فقد تلبّثتُ صامتًا أمامها، وأنا آمل، دون أيّ أساس طبعًا، بأنها قد التقتْها بالأمس. أو أنها قد سمعت شيئًا عن امرأة جيء بها في الصباح الباكر محمولةً إلى شقةٍ في الطابق الثالث، فانتظرتُ أن تبادرني الآن بخبرٍ عنها.

- تفضّل!

أردفتْ بعد لحظات، وقد وسّعتْ فرجة الباب لكي أدخل.

لم أدخل.

ظللتُ أنظر إليها صامتًا ومنتظراً.

جعلتْ الآن، بعينيها الذكيّتين، تتفحّصني والدمية التي كنت ما أزال أضمها إلى صدري. ثم بدا لي كما لو أنها بدأت، لسببٍ من الأسباب، تشعر بقلقٍ ما عليّ أو على الدمية أو على كلينا معًا، فقرّرت كأنما أن تساعدنا سلفًا دون أن تعرف شيئًا عن نوع المساعدة المحتملة التي ننتظرها منها.

- أنت في مشكلة؟

سألتني بنبرة وملامح صديق قريب.

- نعم.

اعترفتُ.

- هل أستطيع أن أفعل شيئـًا من أجلك؟
- تعرفين رايا؟
- لا، لا أعرفها.
- ولا أبدول؟
- ولا أبـدول.. لا أعـرف أحـداً في هـذا الطـابق سـوى صـديقة لـي اسمها ماروسيا.
- أبدول رجل أذريّ انتقل البارحة إلى طابقكم.
- ورايا أذريّة أيضـًا؟
- نعم؟

فكّرتْ قليلاً، وهي تنظر، بمودّة وقلق، إليّ وإلى الدمية.

- ألن تدخل؟

لم أجبْ.

- هل ستذهب إلى أبدول الآن؟

لم أجب.

- هل تعرف رقم الشقة التي انتقل إليها البارحة؟

لم أجب.

- في أيّ شقة تعيش؟
- في 1414.

أجبت، فمدّت يـدها ومسـحت بـرؤوس أصـابعها شـعر الدميـة برفـقٍ شديد وقالت:

- طيب.. هل تستطيع الآن أن تصعد إلى شقتك.
- نعم أستطيع.

- إلى اللقاء.

قالت وهي تبتسم للدمية وتلوح براحة كفّها لها، وربما لي أيضاً.

- إلى اللقاء.

قلتُ، ثم صعدتُ إلى غرفتي، وأنا أشعر شعوراً غائماً، لكنْ مريحاً، بأنني قد قمت على الأغلب بشيءٍ مفيد من أجل رايا.

بعد ما يقرب من نصف ساعة قرعت يلينا جرس شقتي، ودون أن تدخل قالت لي على الباب:

- رايا الآن في الطريق إلى باكو.

ثم غادرتْ.

VI

إن حقيقة وجود ما يقرب من 2500 كيلومتر، أصبحتْ تفصل فجأةً وبصورة تعسّفية بيني في موسكو وبين رايا في باكو، دفعتني دون إرادتي إلى أن أشعر نحوها بحبّ طاهر عفيف لأول مرة. وقد ساعدني هذا التحوّل الجديد غير المتوقّع في علاقتي بها لأن أكون عاطفياً جداً إلى درجة أنني صرتُ أتأثر كثيراً من مجرّد رؤية قططٍ صغيرةٍ نائمةٍ معروضةٍ للبيع على أحد الأرصفة. كما أسلمني ذلك إلى الظنّ بأنني أصبحت أملك من رهافة الحسّ وقوة الخيال ما كان يؤهّلني حتى لكتابة شعرٍ وجدانيٍّ رقيق- لم أحاول كتابته على أيّ حال، ربما لأنني لم أكن قادراً على كتابته باللغة الروسية، بينما خشيت، إن كتبته باللغة العربية، أن توقعني خبرتي القليلة بكتابة الشعر في فخّ حنكتها الجاهزة بالتعبير عن المشاعر. بيد أنني استسلمتُ، بدلاً من ذلك، لسلسلةٍ غاويةٍ من رحلاتٍ لا تختلف كثيراً عن كتابة الشعر صرت أقوم بها، في داخلي، مع تنامي شعوري بالحاجة إلى المعاناة والتضحية في سبيل رايا. وقد كانت هذه الرحلات، التي لم تنقطع منذ المساء الذي علمت فيه بمغادرتها موسكو، تنتهي بي، كلّها على الإطلاق، إلى مدينة باكو. وكان يحدث أن أسافر إلى هناك مرّات عديدة في اليوم الواحد، دون أن يؤثر سفري لا على ساعات دوامي في الجريدة ولا على مستوى أدائي الأعمال التي كنت أُكلَّف بها، ولا على

ممارستي حياتي الاعتيادية عموماً في موسكو. ولذلك لم أكن أتردّد في السفر إلى باكو حتى حين أكون جالساً مع رئيس تحرير الجريدة لسببٍ من الأسباب. أو حين أستمع، في أثناء تناول الغداء، إلى مغامرات سالم وآرائه المبدئية بجمال المرأة وبالبيريسترويكا وبالصراع العربي الإسرائيلي. أو حين أقود دراجتي الهوائية عندما يكون الطقس جيداً في بعض الأمسيات، وحين أستقلّ الباصات وعربات المترو والترولي في مشاويري المختلفة. وقد لاحظت، في رحلاتي الأولى، أنني كنت أحاول السفر بالطائرة، كما يمكن أن يفعل أيّ إنسان حريص على عدم تبذير وقته. لكنني أدركت بعدئذٍ أن الطائرة، إذ تخفّف كثيراً من وعثاء السفر إلى رايا، إنما تقلّل عملياً من أهمية الغاية النبيلة التي أسعى إليها. وهكذا فقد عَدَلْتُ فوراً عن الطائرات وأصبح الحصول، في داخلي، على بطاقة طائرة إلى باكو بالذّات عسيراً جداً، ما كان يضطرني، بكلّ سرور، إلى السفر بالقطار المتاح لي في كل الأوقات ومن كل المحطّات التي تخطر ببالي. كانت الرحلة بالقطار، بين موسكو وباكو، تستغرق، في الواقع، ما يقرب من يومين ونصف اليوم. لكنني، تحت وطأة الحاجة إلى استعادة المزيد من الرضا عن نفسي المذنبة بحق رايا، كنت أسعى دائماً إلى إطالة رحلاتي إليها. ولذلك كانت القطارات الذاهبة بي إلى باكو تتعطّل، كأنما من تلقاء نفسها، وتتوقّف في قلب ظلام دامس في سهب من السهوب أو فوق جسر شاهق معلّق بين رؤوس الجبال أو في منتصف نفقٍ طويل. وكنت أقضي، بِرِضَاً وتسليم كاملين، ساعات إضافية طويلة من الانتظار المضني، ريثما يصلحون القطار أو يستبدلونه بقطار آخر، مع المسافرين الآخرين الذين لا يعرفون طبعاً أنني السبب الأساسي لعطل

القطار الطارئ. كما كنت غالبـًا، من أجل مضاعفة إحساسي بالتضـحية في سـبيل رايـا، أسـافر إليهـا في قطـارات كثيـرة تنطلـق بـي في وقـت واحـد مـن موسكو ولينينغراد وريغـا وفيلنـوس وكييـف وخـاركوف وطشـقند وألمآتـا ومن مدن كثيرة أخرى لا أعرفهـا عمليـاً إلا على الخريطـة. وكنـت أصـل إلى باكو في وقت واحدٍ أيضـًا، وأحيانـًا في أوقـات مختلفـة فأصـل بالقطـار القادم من موسكو في منتصـف الليـل، ثـم بعـد عشـرين دقيقـة أصـل بثلاثـة قطـارات قادمـة مـن كـالينين ومـن تـالين ومـن لينينغـراد، ثـم في الواحـدة والنصف صباحـًا أصل من تبليسي ويريفان. وفي بعض الليـالي كنـت أظـلّ أصـل إلـى بـاكو، كـل نصـف سـاعة تقريبـًا، حتـى يبـدأ النـاس بـالظهور في شوارع المدينة مع بدء انقشاع الظلام. وكان يسعدني، وأنـا أتعـدّد في حشـدٍ من عشّاقٍ مذنبين يزحفون من كل جهات الخريطة إلى باكو من أجل رايا، أن أخترع لنفسي ما أمكنني مـن المتاعـب التي لا تطـاق في كـل قطـار مـن القطارات التي أركبهـا. وكنـت أتعمّـد، في كـل رحـلاتي، أن أنسـى تحضـير بعض الصندويشات في البيت قبل أن أتوجه إلى محطات القطارات، علـى عكس قسم كبير من المسافرين الذين يتزوّدون عادةً بكـل أصـناف الطعـام والشراب ليستغنوا عن خدمات مطـاعم القطـارات إمـا للتـوفير أو لتجنـب الزحـام في مقطـورات الطعـام. وكـان يُشـعرني بالراحـة الشـديدة ونكـران الذات، حتى حين أتناول عشـائي كالعـادة في موسـكو، أن أكـون في الوقـت نفسه جائعـًا جداً في كـل القطـارات الذاهبـة بـي إلـى بـاكو، فيمـا لا يتوقـف جيراني المسافرون معي عن التلمّظ بالطعـام اللذيـذ طـوال الطريـق. كـانوا يلحّون عليّ طبعـًا، من وقت إلى آخر، أن أقبل منهم صندويشة مرتديلا أو فطيرة ملفوف أو قنينة بيرة على الأقل. لكنني ما مرةً قبلت منهم شـيئـًا مـن

هذا القبيل لكي لا أفسد على نفسي إحساسي بمتعة أن أصل إلى باكو متضوراً من الجوع في أنصاف ليالي الشتاء الباردة قدر الإمكان. كأن الجوع والبرد، في رحلاتي، كانا يجعلانني أكثر إخلاصاً لحب رايا وأكثر جدارةً به. وحين كانت القطارات تصل بي إلى محطتها الأخيرة في باكو كان المسافرون، المتخمون بالطعام والشراب، ينزلون معي ثم ينفضّون من حولي، مع مستقبليهم، إلى غاياتهم المختلفة. وكان يفتنني عندئذٍ أن أجد نفسي وحيداً أرتجف من البرد والجوع في وقت متأخر من الليل على رصيف المحطة. كنت أنظر إلى السماء المظلمة وأتلقّى ندف الثلج المتساقطة على وجهي محاولاً قدر الإمكان أن لا أشعر بالإجحاف لكي لا أنخرط بالبكاء على نفسي. وكانت قدماي الحائرتان تنطلقان بي، في هذه الأثناء، إلى شوارع مدينة باكو التي لم أزرها في حياتي. وقد كانت تحصل معي سيناريوهات مختلفة ريثما أعرف عنوان رايا وأصل إلى منزلها لتبدأ هناك سيناريوهات أخرى أكثر قسوةً وتعقيداً ومتعةً. أحياناً كنت أتعرض لسرقة كل ما عندي من المال. وأحياناً كان يشفق عليّ رجل عجوز يفتح شبّاك منزله بالمصادفة، فيراني أقف وحيداً في قلب العاصفة عند أربعة مَفَارق، فيدعوني إلى أن أجفّف ملابسي وأنال بعض الدفء والشاي الساخن والكعك ومربى توت العلّيق ريثما تشرق الشمس. وأحياناً كنت ألجأ إلى بارٍ يوشك على الإغلاق، فأتعرف هناك على طالبٍ في المعهد الموسيقي يقترح عليّ أن نكمل السهرة في مسكن الطلبة حيث يعيش مع طالبين آخرين في غرفة واحدة. وكان شعوري بسعادة أن يكون المرء عاشقاً ومنبوذاً يزداد كلّما صعّبتُ رحلاتي إلى باكو وأكثرت من المواقف المؤلمة التي كنت أتعرّض لها بعد وصولي.

وأحياناً كنت أستفيد مما رسب في ذاكرتي من القسوة التي تفنّن الكتّاب بتصميمها للعشاق في كتبهم وبرع بتبهيرها الناسُ في حكايات الحب الواقعية المروية لساناً عن لسان. ثم أصبحت أميل، ربما في اليوم الرابع بعد غياب رايا، إلى دمج تفاصيل من حياتي الواقعية اليومية في موسكو برحلاتي المتواصلة في رأسي طيلة النهار. فعلى خلفية الشاي المنكّه بالنعناع مثلاً، الذي يقدمه لي عادةً صديقي سالم في الجريدة، انتبهتُ، ذات مرة، إلى أن رائحة النعناع كانت تتضوع في كابين أحد قطارات الصباح المنطلقة بي إلى باكو أيضاً. التفتّ عندئذٍ إلى النافذة ورأيت حقولاً على مدى النظر مزروعة بالشاي والنعناع. وكنت أستطيع أن أرى صديقي سالم فاتحاً كشكاً لتقديم الشاي بالنعناع للمسافرين عندما يتعطّل القطار أمام حقله مثلاً، غير أنني ما مرةً جعلته يفعل ذلك. إن طبيعة خيال سالم لا تتوافق دائماً مع طبيعة خيالي، ولذلك لم أكن أبالغ بحضوره في سفري الدائم إلى باكو. كان يستطيع ببساطة، بذريعة حرصه عليّ، خاصةً بعد أن لاحظ شرودي وشحوب وجهي وانطوائي وعدم إقبالي على الطعام، أن يتدخل بتوقيت رحلاتي فيجعلها تجري في الصيف بدلاً من الشتاء القارس. كما كان قادراً على إرغام قطاراتها على الذهاب إلى أماكن يستحيل عليّ أن أتعذّب فيها من أجل رايا، كالشاليهات الشهيرة على شواطىء البحر الأسود والمنتجعات المنتشرة حول ينابيع المياه المعدنية في جبال القفقاس حيث يمكنني استعادة عافيتي وحبي للحياة في غضون أسبوع كما يمكن أن يعتقد سالم بسهولة. فضلاً عن أن وجوده إلى جانبي، حتى لو تكرّم عليّ وتركني أذهب إلى باكو في عزّ الصقيع، سوف يجعلني أخسر كثيراً من الأعباء التي أسعى إليها لأنه

سيتبرع حتماً بحملها عني شئت أم أبيت، ما كان سيبوّخ رحلتي ويُفقدها، في عينيّ، الحرارة والجدوى والمناسبة. وما كان يُحيّرني به دائماً أنه، حتى في حياتنا العادية، كان يشعر، لسببٍ لم أفهمه قط، بأنه مسؤول عني كما لو كنت أخاه الصغير مع أنني أكبره في الواقع بسنتين. ولذلك تراه لا يكفّ عن الاعتقاد بأنني قد لا أعرف، من دونه، كيف أواجه صعوبات الحياة في مدينة كبيرة مثل موسكو. ولهذه الأسباب كلها كنت لا أفضّل أبداً أن يرافقني في رحلاتي إلى باكو. كنت أجد الغرباء، الذين ألتقيهم بالمصادفة هنا وهناك، أَلْيَن على فكري منه وأكثر شعريةً وخفّةً واستجابةً لما أتخيّله وأراه بعيداً عن الشروط الثقيلة التي تفرضها علي صداقتي معه. وقد كنت أحياناً أحقّق، مع الغرباء، نتائج مذهلة في السياق الذي أصمّمه وأتمنّاه داخل القطارات أو في الاستراحات أو في باكو نفسها. من ذلك مثلاً أنني وجدتُ عجوزاً بدينةً نائمةً أمامي ذات صباح في عربة المترو فيما كنت متوجّهاً إلى عملي، فاخترتها لمرافقتي في واحدة من رحلاتي المبكّرة. وقد استطعت، بفضلها، أن أتوصّل إلى مشاعر جديدة ما خبرتُها قطّ. لم تكن نائمة طبعاً في القطار المنطلق بنا إلى باكو، وقد جعلتُها ترتدي، هنا، نظارة طبية أنيقة وقبعة جميلة لم تكن ترتديهما في المترو، كما خفّفتُ كثيراً من بدانتها فبدت هنا أصغر سنّاً منها هناك. وكما لو أن هذه التغييرات الطفيفة التي أجريتُها على شكلها قد حرّرتْها تماماً من تاريخها الشخصيّ قبل لقائي بها ذلك الصباح، فأصبحت تتصرّف، في القطار كما لو كانت امرأة أخرى. والأهمّ أنها لم تعد كأنما محكومةً بمخيّلتي في ما فعلتْه معي بعد ذلك. ظلّت، في البداية، تنظر إليّ، فترةً طويلةً، بتقديرٍ بدا لي مبالَغاً فيه، حتى لقد شعرتُ ببعض الحرج أمام المسافرين الآخرين في

كابين القطار. ثم زاد من حرجي أنها بدأت فجأةً تحكي للمسافرين عني وعن رايا كما لو كنا عاشقَيْن ميتَيْن منذ زمن طويل جداً. كان صوتها المعبّر الجذّاب يعلو فوق ضجيج عجلات القطار دون استعجال وبنبرة العارف لأدقّ تفاصيل قصة حبّنا المؤثّرة. وكانت، من وقت إلى آخر، تلتفت إليّ كما تلتفت دليلةٌ سياحية إلى لُقْيَةٍ أثريّةٍ لا تقدر بثمن تقف أمامها بخشوع في متحف من المتاحف، فيما لا تتوقف عن تزويد المسافرين الفضوليين بمعلومات تاريخيّة ضرورية متعلّقةٍ بي. ومن وراء الزجاج النظيف المفترَض، الذي يحافظ عليّ من الرطوبة ولمس السوّاح مثل أي تحفةٍ أثريةٍ، كانت أحيانًا تشير بسبّابتها بحذرٍ ظاهر إلى رأس أنفي مثلاً كما تشير إلى قرائن أركيولوجية ساطعة تؤكّد صحة ما تذهب إليه تآويلها العلمية لبعض التفاصيل الغامضة من قصة حبي الخالدة عبر العصور. وقد كان كلامها، في رحلة ذلك الصباح، مؤثراً بي إلى درجة أنني اضطررت معها إلى ذرف بعض الدموع اللذيذة أمام دهشة السوّاح المسافرين معي في الكابين- المتحف المنطلق بنا إلى عاصمة أذربيجان.

نعم، لقد كان يمتعني كثيراً أن أتحلّل، في رحلاتي إلى باكو، من الرقابة الصارمة التي تفرضها عادةً قوانين الواقع الجلف على أحداث الحياة قبل أن تسمح لها بالحدوث. وقد منحني غيابُ رايا الشجاعةَ والحريةَ التامة في أن أصوغ هذه الرحلات بالصور الرهيفة الهشة التي لا تُمسَك باليد. تلك التي يمكن أن تصادَف في القصائد واللوحات والأفلام والروايات التي لا تتملّق الأذواق الدراجة لدى القراء والمشاهدين. وقد كنت مستعداً لأن أتابع هذه الرحلات في داخلي إلى ما لا نهاية، كأنني في الحقيقة لم أكن أنتظر من حبي لرايا شيئًا أكثر سحراً من

الاستمرار بها. إلا أنني، في صباح اليوم السادس بعد مغادرتها موسكو، توقّفتُ للأسف عن القيام بأي رحلة جديدة إلى باكو:

فتحت صندوق بريدي في مدخل البناية، كما أفعل عادةً قبل أن أتوجّه إلى عملي، وعثرت على برقيةٍ من رايا.

لم أجرؤ على قراءتها.

كان أول ما خطر بي أنني سأبلَّغ الآن بخبر واقعي فظ سوف ينسف دون هوادة كل المشاعر والصور والمواقف والمشاهد الآسرة التي ربّيتها في رحلاتي، وأن كل القطارات التي فتَتَنْتني طيلة غياب رايا لن يعود بمقدورها، بعد الآن، أن تنطلق في داخلي إلى باكو. لم أكن أرغب بأيّ حالٍ، وأيّاً كانت الذريعة، بأن تُخَسّرني قراءةُ البرقية صورةَ رايا المذهلة المستحيلة التي كوّنتُها في أسفاري إليها بالجهد والخيال والمحبة الخالصة.

طويت البرقية، بيدي المرتعشة من شدة الانفعال، ووضعتها في جيبي ثم تابعت طريقي. خيل لي، بعد ذلك، أن الناس، في الشارع وفي المترو ثم على درج الجريدة وفي كوريدورها المتلوّي الطويل الذي يفضي إلى الغرفة التي أعمل فيها، كانوا ينظرون إليّ كما لو كنت رجلاً محموماً شديد الشحوب.

ألقيت بتحيّة مقتضبة على زملائي في الغرفة. ثم اقتربت من مكتبي وسقطت فوق مقعدي، كما لو كنت في غاية الإنهاك. تحسّستُ، بعد قليل، برقية رايا برؤوس أصابعي من فوق جاكيتي الخفيف، ففاجأني كأنما وجودها حتى الآن هناك. "سوف أقرؤها في البيت" قررتُ. غير أنني انتبهتُ فجأةً إلى أن ما استلمته هذا الصباح من رايا لم يكن رسالة بريدية

تتحمّل التأجيل إلى المساء، بل برقية عاجلة. ومن ثم قد تكون رايا الآن على أحرّ من الجمر في باكو في انتظار أن أقوم، الآن بالذّات، بشيءٍ محدّد في موسكو هي في أمس الحاجة إليه.

مددت يدي إلى جيبي، أخرجت البرقية وقرأت:

"إذهب غداً في الساعة الرابعة مساء إلى مركز الهاتف في شارع غوركي القريب من مبنى الجريدة وانتظر مني مكالمة هاتفية.. رايا"

حاولتُ فوراً، لكي أهدّئ قلبي الذي أصبحت أشعر بوجيبه العالي المتسارع في صدغَيّ، أن أفهم من البرقية أن رايا بخير وأنها مشتاقة لي على الأغلب وأنها ربما لا تعرف، مثلي تماماً، كيف ستنقضي ساعات الانتظار الطويلة القادمة حتى تحين الساعة الرابعة من مساء الغد. ثم ما لبثتُ أنْ ظننتُ، دون إرادتي، أن رايا إنما تريد، في مكالمتها غداً، أن تعتذر مني عن المشاعر التي بذّرتُها عبثاً من أجلها خلال الأسابيع الماضية. لعلّ زوجها قد تمكّن، خلال وجودها في باكو، من التغلّب على مشاعرها نحوي لأسباب عاقلة وجيهة تتعلّق بحماية دور الأسرة في المجتمع على سبيل المثال. ومن ثمّ آثرتْ، احتراماً لمشاعري، أن تخبرني بنفسها عن ما جدّ في قلبها وعقلها من الأفكار المسؤولة المتوازنة والعواطف الرزينة المدروسة من كافة الجوانب والزوايا. ستقول لي مثلاً إنها لا تندم أبداً على الأيام التي قضتها معي في موسكو، لكنّ الطريق الذي وضعنا نفسَيْنا فيه مسدودٌ يا عزيزي، فأنا امرأة متزوجة في نهاية المطاف حتى وإن كنت لا أحبّ زوجي. ومن جهتي سيكون عليّ، كرجل معاصر، أن أحترم وأحتمل وأقبل أن يكون، في حياتها المشتركة الطويلة مع زوجها، ما جعلها تعتبر، بعد تفكير جافّ وسليم، أن ما جرى بيننا لم يكن في حقيقة

الأمر سوى نزوة عابرة. ثم حاولت أن أبدو منطقياً، ولو لِلَحظات، حيال تفكير رايا المحتمل، الجاف والسليم، لكي أتنفس وأتوازن وراء مكتبي قدر الإمكان. وقد لفتني، في هذه الأثناء، أن سالم نهض فجأةً من وراء مكتبه ثم اقترب مني. لعله لم يتحمّل التغيّرات المفاجئة المقلقة التي طرأت ربما على شكلي بعد قراءتي البرقية، فكّرت. وكانت البرقية ما تزال بين يديّ، فطويتها، قبل أن يصل إلي، ودسستها ببطءٍ مفتعل في جيب جاكيتي الداخلي كما لو كانت فاتورة كهرباء لا أكثر. ومع وقوفه أمامي مباشرة جعل ينظر إليّ، كما لو أن أشياء كثيرة، في ملامحي وتصرّفاتي، قد شغلته عليّ، في كل الأيام القريبة الماضية وفي هذا الصباح بصورة خاصة، فقرّر كأنما أن يتدخّل أخيراً في شؤوني الخاصة التي أخفيتها عنه حتى الآن.

- بعد انتهاء الدوام سوف تذهب معي.

قال لي بصوتِ أخٍ كبير آمرٍ حازمٍ غير قابلٍ لأيّ جدالٍ أو اعتراض، ثم عاد إلى مكانه.

سالم

I

تعلّم سالم فنّ الخطوط العربية على يد خطّاط حلبي كان يتردّد إليه عندما كان طالبًا في المرحلة الثانوية. وكان قد قدم إلى بيت خاله في حلب من بلدة جرابلس، القريبة من الحدود السورية مع تركيا، بعد أن أخذ الشهادة الإعدادية. كان خاله مهندسًا زراعيًا يشغل موقعًا هامًا في الهيئة العامة لتسويق الأقطان. وقد تعرّف إلى ابن الخطّاط الحلبي في الأيام الأولى من دوامه في الصف العاشر في ثانوية عبد الرحمن الكواكبي حيث كانا يدرسان معًا. ومنذ زيارته الأولى لبيت صديقه الجديد سحرته لوحات الخطوط المعلّقة على جدران الصالون. وإذ استطاع، بعدئذٍ، أن يترك انطباعًا حسنًا لدى والد صديقه الخطّاط، سمح له بزيارة مشغله. ثم لم يبخل عليه، حين لمس شغفه بالخطوط، بتدريبه عليها من وقت إلى آخر حتى إذا تأكّد من موهبته ومثابرته، بعد ما يقرب من عامين، اعتبره أحدَ تلاميذه وصار يكلّفه بكتابة بعض الأعمال صغيرة الحجم لزبائن المشغل. كان سالم سعيداً بثقة معلمه المبكّرة حتى فكّر أنه لن يغادر مشغله لولا أنه نال الشهادة الثانوية وحظي، بجهود خاله، بمنحةٍ دراسية لاستكمال تعليمه في موسكو. وكان كل ما يطمح إليه في تلك الأيام أن يصبح خطّاطًا محترفًا وأن يملك ذات يوم مشغلاً خاصًا به في حلب. لكنّ نهمه الفطريّ إلى الحياة جعله يفضّل السفر إلى بلاد لا يعرفها،

معتقداً أنه، بما اكتسبه حتى الآن من معلّمه الحلبيّ، يستطيع أن يتابع اهتمامه بالخطوط العربية في أيّ مكان. وهكذا جاء إلى موسكو وانتسب إلى كلية المكتبات، لا لأنه كان يرى في نفسه مشروع أمين مكتبة ناجح في المستقبل، بل لأنه اعتقد، لسببٍ ما، أن هذا الاختصاص لن يشغله كثيراً عن ممارسة شغفه الأول بالخطوط. وكان طيلة أيام دراسته يقدم نفسه كخطّاط بين الطلاب العرب وكذلك بين المهتمّين بشؤون الثقافة العربية في موسكو. كما كان لا يتردّد بالمشاركة بلوحات خطوطه في المعارض الفنية داخل الكلية وخارجها، إلى أن وقّع عقداً مع النسخة العربية من جريدة أنباء موسكو قبل تخرجه من كلية المكتبات بشهور قليلة.

حين بدأتُ العمل في الجريدة كان قد مضى على وجود سالم فيها عدة سنوات. وخلال فترة قصيرة تمكّن، بسهولة ومهارة، من تفكيك المسافة التي أحافظ عليها عادةً بيني وبين الآخرين، فأصبح صديقي. أصبحنا نتبادل الزيارات المنزلية، وفي بعض الأحيان كنا نتوجّه مباشرةً بعد انتهاء دوامنا في الجريدة إلى مطعم أو إلى بار. أما في أيام الصيف فكنا نقضي أحيانًا أيام العطل الأسبوعية معًا في مشروع شواء في الهواء الطلق في بيت صيفي لأحد أصدقائه أو لإحدى صديقاته الكثيرات. وفي إجازاتنا السنوية كنا نذهب غالبًا معًا للاصطياف على شاطئ البحر الأسود بصورة خاصة. كان رجلاً وسيمًا وسامةً لافتة في السابع والعشرين من العمر في ذلك الوقت، وكنت أكبره بسنتين، كما أشرتُ إلى ذلك من قبل. وكان واضحًا، بالنسبة لي ولأصدقائه الآخرين والمحيطين به عمومًا، أنه غالبًا ما كان يحظى بإعجاب النساء. وقد كان ذلك يسبّب أحيانًا بعض الحساسيات المضمرة والمعلنة لدى بعض الرجال المضطرّين إلى

مخالطته لهذا السبب أو ذاك. ولم يكن سالم صداميًا بالعموم ولا عدوانيًا بطبعه، فما كان يطوّر ما يأخذه عليه الآخرون إلى عداوات شخصية. غير أنه كان يستطيع، في نادر الأحيان، أن يتذمّر من الذين يبالغون بمساوئه التي يتصوّرونها، ما كان يورّطه، مع سلامة طويّته وحماسته الزائدة، في مآزق لا يعرف أحيانًا كيف يخرج منها بسلام.

برغم كل ذلك لم أعتقد يومًا أن سالم زير نساء، كما كان يشيع عنه بعض سيّئي النيّة من الرجال الذين لا يعرفون كيف يمكن أن تُدعى امرأة إلى فنجان قهوة أو إلى فيلم سينما. بل كنتُ أستطيع، بقليل من التسامح وكثير من الإعجاب، أن أرى فيه أحيانًا رجلاً عفيفًا، إنما على طريقته الخاصة. وقد كنت شاهداً، في مناسبات كثيرة، على أنه، برغم كل ما يوحي به من الأنفة والجرأة، رجلٌ خجول وصاحب ضمير حيّ وقادر، في اللحظة المناسبة، على التأثّر إلى حدّ البكاء وعلى الاعتذار الصادق إذا أخطأ أو إذا أُسيء فهمُه، على عكس الكثيرين من مدّعي الاستقامة والسلوك الحسن. ولعلّه لم يكن يفعل ذلك تحت تأثير إيمانٍ قويّ بأي فكرة أو عقيدة، فإذا كنتَ لا تعرفه عن قرب لن تتمكّن مثلاً من تحديد ديانته. كان مسلمًا، وكنت أعرف أنه يصوم شهر رمضان فقط لأنه كان يمتنع عن تحضير الشاي بالنعناع في أوقات الدوام ولا يتناول معي وجبة الغداء في مطعم الجريدة رغم أنه كان يرافقني إلى هناك. لم أكن أعرف ما إذا كان يصلي أم لا، فلم يحدث قط أن استعرض صلاته وتقواه أمامي أو أمام الآخرين. مرةً ذكر لي عَرَضًا، في سياق حديثه عن حادثة غريبة حصلت معه، أنه كان خارجًا، في ذلك اليوم، من صلاة عيد الفطر الفائت في مسجد موسكو. لكنه كان، في الوقت نفسه، يمارس، بحرية غير مبتذلة،

كل ما يخطر ببالك من الأشياء الطبيعية الممتعة التي يمكن أن تجذب رجلاً، من عمره، يعيش في مدينة كبيرة مثل موسكو. نعم، إن وسامته اللافتة وقامته الفارعة وصوته الباريتون الواثق المتدفّق بلغته الروسية الجيّدة كانت، لا شكّ، تجعله هدفاً لغير القليل من النساء. غير أنني كنت أعرف أن علاقته مع المرأة التي يتعرّف بها قد لا تتعدّى أحياناً تسكّعاً في شارع هادئ أو في حديقة عامة أو دردشة على وجبة عشاء في مطعم. وما كنت لأظنّ أبداً أنه كان يقيم علاقة حميمة مع كل امرأة تحظى بإعجابه. ولست متأكّداً، بالقوة نفسها، من أن كلّ امرأة حظي بإعجابها، وقد كنت أعرف بعضهن، قد وافقت على إقامة هذه العلاقة. لكنّ ما كان يفتنه ويحيّره، كما صرّح لي غير مرة، أن أيّ امرأة، لحسن الحظ وسوئه، لا تشبه أيّ امرأة أخرى، فلكلّ منهن سماتها الخاصة الفريدة التي لا تتكرر. وبرأيه أن من الغباء وقلة الضمير والحيلة أن تُفاضِل بين امرأة وأخرى. ومع تراكم خبرته الطويلة نسبياً بالعلاقات المتنوعة مع نساء مختلفات لم يعد، كأنما، بمقدور امرأة واحدة أن تختزل في نفسها كلّ مواصفات المرأة الجميلة التي يسعى إليها بلا كلل، مادام يُفاجأ دائماً بمواصفات ساحرة جديدة في كل امرأة جديدة يتعرف بها. كان كأنما لا يتوقف عن الشعور، في كلّ مرة، بأن كلاً منهن، إنما تكمل، كقطعة فسيفساء لا بديل لها ولا مثيل، صورةَ المرأة الجميلة التي يبحث عنها، والتي كان يشكّك دائماً بأنه سيلتقيها مكتملةً في يوم من الأيام.

وقد لاحظتُ، منذ الأيام الأولى لتعارفنا، أنه لم يكن يعوّل أبداً على معايير جمال المرأة الدارجة بين الناس. وأستطيع أن أؤكّد أن النساء، المتعارف عليهن من قبل الجميع كنساء جميلات، نادراً ما كنّ يساهمن

في استكمال صورة تلك المرأة الجميلة المفقودة التي كان يتخيّلها. لم يكن يصاب بالخيبة طبعاً من لقاء أيّ امرأة يُجمِع الآخرون على جمالها، فقد كان يعثر، حتى فيها، على نوعٍ مختلفٍ، لا يعثر ربما عليه الآخرون، من السمات الفريدة ما دامت امرأةً في نهاية الأمر بغض النظر عن أيّ اعتبارٍ آخر. كان يعتقد أن المرأة القبيحة لا وجود لها إلا في أذهان الرجال المحدودين بمعايير الجمال الدارج. فالنساء، عموماً، إنما يتدرّجن برأيه، في تنوّع لا نهائيّ، بين امرأة ذات جمال خالص دارج وامرأة ذات جمال خالص غير دارج. وقد قال لي ذات مساء إنه في الغالب يميل إلى المرأة ذات الجمال غير الدارج، لكنّ انجذابه السافر إليها لا يعني نفوره من المرأة ذات الجمال الدارج. كان ذلك في شارع فرعي من أول جادة كالينين قبل أن تسمى بجادة نوفي أربات. وكان يرفع صوته ليتغلب كأنما على إحساسه بالبرد وليتأكّد من أنني كنت أسمعه نظراً لشدّة الرياح التي كانت تعصف فوقنا وتهيل الثلج الغزير فوق رأسَينا ولأن قبعتي الفرو كانت، كقبعته تماماً، تغطي رأسي وأذنيّ بإحكام. كنا نقف، حينذاك، في حشد كبير من ناس متراصّين، مثل بطاريق قطبية تحت عاصفةٍ ثلجيةٍ، كتلةً متطاولةً واحدةً من معاطف سميكةٍ وقبعات فراء ولفحاتٍ صوفيةٍ وأبواط جلديةٍ متلاصقةٍ مطموسةٍ بالثلج، في طابور طويل يتقدّم ببطء شديد باتجاه باب مشرب البيرة "جيغولي". كان البوّاب الصارم لا يُدخل واحداً ما لم يخرج واحدٌ من داخل المشرب الممتلئ، فكان جميع المتجمّدين في الخارج مُهيّئين سلفاً كأنما للإنتظار الطويل. وقد خفّف كثيراً من إحساسي بالبرد والانتظار، في ذلك المساء، أن سالم تابع كلامه الحارّ عن المرأة ذات الجمال غير الدارج، وقد توقّف

خصوصـاً عنـد الغـبن الـذي يلحـق بهـا لمجـرّد أن غالبيـة النـاس مقيـدون بعاداتهم وأذواقهم الشائعة المستنسخَة بعضـها مـن بعـض. لقـد فعلـوا كـل شيء لكي تفهم هذه المرأة منذ وعت الدنيا أنها نقيض المرأة الجميلة التي يقعون، بالعادة، جميعـاً في غرامها، وقد ظلّـوا يـدفعونها بظهرهـا إلـى تلـك الفكـرة حتـى وجـدت نفسـها تصـدّق وتـتفهّم وتقبـل في النهايـة أنهـا امـرأة قبيحة. ولعلها فعلت، وتفعل، ذلك لكـي تعتـاد علـى الألـم الـذي يسـبّبونه لها دون انقطاع. عندما تعتاد على آلامك يتقـرّن إحساسـك بهـا مـع الأيـام، فلا تعود تشعر بها، لكنك تعرف أنها تتّقد فيك مثل الجمر تحت مـا يبـدو جلداً سميكـاً ميّتـاً. لقد كان على هذه المرأة أن تستسلم لـ "قبحهـا" الـذي افترضه الآخرون، أو لجمالها غير الدارج كما كان سالم يفضّل أن يسـمّيه، كمـا لـو كـان شـيئاً معيبـاً عليهـا أن تتحمّـل تبعاتـه في كـل مكـان. لـم يكـن أمامها خيار آخر. والأصحّ أنهم، هم، لم يتركوا لهـا أيّ خيـار آخـر. ولكـي تخفّف من "عبء" شكلها عليهـا، في المـرات التـي تضـطرّ فيهـا إلـى النظـر إلى المرآة، كانت تحبّه أحيانـاً. وأحيانـاً تسـخر منـه أمـام الأخريـات، بـين الجـد واللعـب، لكـي لا تشـعر بأنهـا وحيـدة، فعيـون الجميـع وألسـنتهم وملامـح وجـوههم، في بيـت أهلهـا وفي مدرسـتها الابتدائيـة والإعداديـة والثانوية وفي مكان عملها وفي الشارع وفي وسائل النقـل، تـومئ مـن بعيـد، أو تشير من قريـب، إلـى قبحهـا المزعـوم بمناسـبة ودون مناسـبة. وأحيانـاً تلجأ، كما يفعل اللاجئ الفارّ من جحيم مكانه الأصليّ، إلى صداقة امـرأة ذات جمال دارج، فتلعـب دور وصـيفتها المقرّبـة لتحتمـي بهـا مـن العيـون والألسنة والأصابع- تكتم أسـرارها، تتجسـس لحسـابها علـى الجميـلات الـدارجات الأخريـات، توصـل رسـائلها إلـى عشـاقها مـن الرجـال وإلـى

عدوّاتها من النساء، تناقش معها نوايا الرجال المغرومين بها وتصمّم لها المكائد المتقنة للإيقاع بعشاقها المحتملين أو بمنافساتها من الجميلات الدارجات، بينما لا يكفّ لسانها، في أثناء ذلك كلّه، عن كيل المديح لكل عضوٍ من أعضاء جسمها. لم يكن بوسعها أن تتعلّم، تابع سالم وقد زرّر عينيه فجأةً متفحّصاً كأنما كلماته التي نطق بها، الأرجح أنها لم تكن تجرؤ أن تتعلم، أن أيّ امرأة أخرى، مهما اعتبرها الآخرون فائقة الجمال، ليست في الواقع أجمل منها ولا أقبح منها، إنما هي مختلفة عنها لا أكثر من ذلك ولا أقل.

وفي مساء آخر عبّر لي عن حبه الكبير لبطلة تشيخوف سونيا كتجسيدٍ أدبيّ للمرأة ذات الجمال غير الدارج بصورتها الشجاعة.

كان قد طلب مني أن أنصحه بمسرحية تعجبني ليشاهدها معي، فدعوته بعد أيام إلى مسرح موسكو الفني حيث كانت تُعرض "الخال فانيا". لم ينتظر حتى نخرج من مبنى المسرح في نهاية العرض، فقد بدأ فجأة يحدّثني عن سونيا، ابنة أخت الخال فانيا، فيما كنا ننتظر دورنا، أمام مشلح المسرح، لنستردّ معطفَيْنا وقبّعتَيْنا الشتويين. كان وجهه محمرّاً من الانفعال ويحاول، عبثًا، أن يتحكّم بصوته المتحمّس لكي لا يلفت انتباه المنتظرين الآخرين من حولنا.

- هل لاحظت أن سونيا لم تسلّم بقبحها الذي تحدّثتْ عنه مجموعة نساء خارجات من الكنيسة؟

بادرني بالسؤال ثم أجاب بنفسه.

- لم تسلّم، استمرّت تأمل، كما كانت تفعل دائمًا، بأنها قد تكون امرأة جميلة بصورة من الصور. هذا الأمل الشجاع المهزوز

وحده خلّاها تظن أنها، مثل أي امرأة أخرى، تستطيع أن تقع في حب من تشاء، فوقعت في حب الطبيب أستروف. لم تكن تعرف، بل كانت في الحقيقة تعرف وتشعر وتلمس وترى في كل لحظة، أن الطبيب أستروف كان واقعاً في غرام زوجة أبيها يلينا أندريفنا. يلينا أندريفنا التي يسهل عليها دائماً اصطياد الرجال من حولها بجمالها الفاتن المرغوب الدارج.

وكنا، في هذه الأثناء، قد خرجنا من مبنى المسرح واتجهنا نحو محطة بلوشاد سفيردلوفا كما كانت تسمى في تلك الأيام.

- لا شك أن أستروف كان الخاسر الأكبر حين فضّل يلينا أندرييفنا على سونيا، تابع سالم كلامه بالحماسة نفسها، لا لأن يلينا أندريفنا غير جديرة بأن يطمس المرء في حبها حتى أذنيه، أبداً، بل لأنه فضّل جمالاً بديهياً مجرَّباً على جمالٍ بكرٍ غامضٍ يحتاج إلى اكتشاف كنوزه. كان متأكّداً من أن يلينا أندريفنا خبيرة جداً بجمالها وسوف تأخذه، من أقصر الطرق المتوقعة وأشدّها رشاقة، إلى كنوزها الأكيدة المُبوّبة والمفروزة بدقة تبعاً لاستعمالاتها المختلفة في الليل والنهار وتبعاً للمزاج ودرجة الحرارة ونوع الطقس ومكان اللقاء. بينما لم تكن سونيا نفسها متأكّدة أصلاً من وجود كنوزها. لم تكن واثقةً تماماً مما إذا كانت تملك حقاً ما تفتن به قلب رجل. لكنْ لو استجاب الطبيب أستروف لقلبها لعاش خبرة جديدة ما كان ليعيشها مع يلينا أندريفنا صدّقني أو مع أي امرأة أخرى ذات جمالٍ مفحوص مضمون مؤكّد ومبصوم عليه بكلّ الأصابع الممكنة.

كان سيعيش مع سونيا خبرة فريدة بجمال خام مُهمَل أبكم لم يُمسّ، جمال لم يترعرع في المرايا والمساحيق، لم يُحَطْ بصيحات الإعجاب ولا سُلّطتْ عليه الأضواء والعيون ولا كان، يومًا، موضوعًا للنميمة والحسد والمكائد. كانت سونيا نفسها ستفاجأ بمفاتنها التي كانت ستصبح واقعية لأول مرة على يَدَيْ الطبيب أستروف تمامًا كما كان سيفاجأ هو نفسه بها. كانا معًا سيكتشفان نفائسها المطمورة تحت الرهبة والإهمال والأمل المتهافت الركيك والغصّة المحبوسة في الحلق وغياب الثقة بالنفس. كانت متعة أحدهما بالآخر ستكون مضاعفة وغير مسبوقة مع كلّ اكتشاف جديد. يا إلهي كيف أشرح لك! هل تستطيع التمييز بين الخطوط العربية؟

- أميّز بعضها.

أجبتُ.

- مؤكّد أنك تستطيع تمييز الخط الكوفي.
- بلى، أستطيع تمييزه.
- رائع، يلينا أندريفنا هي الخطّ الكوفي.
- لم أفهم.
- سأشرح لك.

وكنا دخلنا إلى محطة المترو ووقفنا على الرصيف ننتظر القطار.

- إذا كتبتَ جملة محدّدة واحدة بكلّ الخطوط العربية المتاحة، ثم وضعتَ هذه الخطوط المختلفة جنبًا إلى جنب، فإن الخط الكوفي أولَ ما سيلفت انتباهك مع أنه يكرر الجملة نفسها التي

تكررها الخطوط الأخرى، ويلينا أندريفنا كذلك. لماذا؟!! لأن يلينا أندريفنا، أعني لأن الخط الكوفي يُغيّب معنى الكلام الذي يحمله ويحوّله إلى زخرفة صافية، إلى لعبٍ لا يهدف إلى غير اللعب، فتستغرق فيه لا لكي تفهم منه شيئاً، بل لكي تستمتع بمتاهاته، تشعر به، بذاته، كما هو دون أن يحتاج إلى عبء أيّ معنى.

وهنا قطع كلامه مع وصول القطار، ثم ما لبث أن استأنفه بعد أن دخلنا العربة ووقفنا بالقرب من الباب.

- أنا نفسي لا أنفي أنني، في بعض الأحيان، أستسلم بسهولة لألاعيب الخط الكوفي الممتعة. غير أن ما ينتشلني من سحره هو رغبتي العارمة بأن أضيف إليه شيئاً من عندي لكي أتلقّاه، في كل مرّة، كما يحلو لي أنا دون غيري، ثم يلجمني إحساسي بأنه خطٌّ عصيّ على الإضافة من شدّة خبرته الطويلة بالظهور بأكمل صورة. دائماً كان يبدو لي أن جماله محكم إحكاماً تامّاً مغلقاً إلى درجة أنني أشعر شيئاً فشيئاً بالاختناق إذا أطلت الوقوف أمامه.. تماماً كيلينا أندرييفا. والآن خذْ خط الثُلُث، هل تذكر خط الثُّلُث؟

- بلى، أذكره.

قلتُ.

- سونيا هي أقرب الكائنات إلى خطّ الثّلث.

قال مبتسماً ابتسامة عريضةً ومزهوّاً كأنما بسونيا وبخطّ الثّلث معاً، ثم تابع كلامه.

- خط الثلث لا يُغيّب المعنى لكنه لا يخضع له، يحوّله، كما يبدو لي أحيانـًا، إلى أداة تعبير عن معنى آخر إضافي غير موجود في النص المكتوب. كأنه يحيلك إلى ما وراء حروفه. كأنه يدرك الخطر الذي يشكلّه المعنى المكشوف على جماله فيقيّده، أعني يشتّته بدقة ميزانه الداخليّ المحسوب نقطةً نقطةً حتى لا يكون بوسعك تمييزه إلا كواوٍ من واواته وهاءٍ من هاءاته وراءٍ من راءاته. وفي بعض الأحيان يبدو لي خطّ الثلث في حالة صراعٍ، أو لعبٍ، دائمٍ مع معانى النصوص المكتوبة به. يتمرّد عليها ولا يلغيها، ثم يترك لك أنت، القارئ الشاهد المشاهد، أن تكون شريكـًا بلعبه المفتوح مع المعاني التي يحملها. نعم خط الثلث، مثل سونيا، يقول لك تعال اكتشف نقاطي المتقنة الخفيّة التي لا تراها العيون بسهولة، تعال زدني معرفةً بي، فسّرْني لي ولك، أكملني في عينيك على طريقتك، وأضفْ إليّ..
- اعذرني سوف أنزل الآن.

قاطعته فجأةً وأنا أمدّ له يدي لأصافحه قبل أن أخرج من العربة. وكنا قد وصلنا إلى محطة كيروفسكيا. وكان الوقت متأخراً على مرافقته ريثما ينتهي من كلامه عن سونيا وخط الثلث والمرأة ذات الجمال غير الدارج. كان عليّ أن أنزل بسرعة وأنتقل عبر نفقٍ إلى محطة تورغينفسكيا حيث كنت أستطيع أن أركب قطاراً يتوجّه بي إلى محطة فِدِنْخا القريبة من بيتي.

II

شعرتُ براحة مفاجئة بعد أن أبلغني سالم بأنني سوف أذهب معه في نهاية الدوام. وقد أحببتُ كثيراً أنه بدا لي، في تلك اللحظة، كما لو كان يعني تمامًا ما قاله. ثم حلا لي أن أعتقد أنه سوف ينزعج جداً مني إن تذرّعتُ بأيّ سببٍ يعفيني من الذهاب، ما جعلني أستنتج، بكل سرور، أنه سيكون من غير اللائق أبداً أن أفكّر بذلك مجرّد تفكير. ولعلّي كنت سأرتكب بالفعل خطأً كبيراً لو عدت إلى البيت بعد نهاية دوام ذلك اليوم. ما الذي كان بوسعي أن أفعله حقًا هناك وحيداً مع برقية رايا بين أربعة جدران؟ كنت لن أكفّ طبعًا عن قراءتها وتفسير ما بين سطورها واختراع ما لا يُحصى من معانيها المضمرة، ما كان سينهك أعصابي طوال الليل.

نظرتُ نظرةً سريعة إلى سالم، الذي عاد الآن إلى متابعة عمله، وأنا أشعر بامتنان عميق له على توقيت تدخّله السافر والحازم بشؤوني الخاصة. ثم بدأت كأنما أستعيد ما يشبه طمأنينة كانت كافية لأن أنهمك بعملي أنا الآخر. وكان يعزّز من طمأنينتي وراء مكتبي أنني كنت آمل بأن المشوار، الذي سنقضيه معًا أنا وسالم، لن ننتهي منه قبل الساعة الثانية بعد منتصف الليل، وربما الثالثة. وبذلك لن يكون لديّ، حين سأعود إلى البيت، من الطاقة ما يكفي لغير تغيير ملابسي على عجل والاستلقاء مباشرةً والغرق في نوم عميق حتى صباح الغد.

في نهاية الدوام كان عليّ أن أنتظر سالم ريثما ينتهي من تخطيط عنوانَيْ مقالين كلّفه بهما رئيس التحرير في آخر لحظة. ولكي لا أبدو، في نظري على الأقل، متلهّفاً جداً إلى ذهابي معه سحبتُ، من علبة مختومة في درج مكتبي، عدداً من أقلام رصاص جديدة لم أكن أحتاج إليها، لكنني ظَلَلْتُ أبريها على مهلي، واحداً تلو آخر، حتى فرغ سالم من تخطيط العنوانين العاجلَين.

حين خرجنا من الغرفة أخيراً ومضينا متمهّلَيْن في الكوريدور كنا نبدو، لمن لا يعرفنا، كما لو أننا سوف نترافق حتى باب المبنى ثم نفترق كما نفعل في غالب الأحيان. كنت متأكّداً طبعاً من أنه لم ينس قراره الصائب بالتدخّل بشؤوني الخاصة، ولذلك كنت أتابع سيري إلى جواره مطمئناً دون أن أشعر بأيّ مسؤوليةٍ عن تبديد الصمت الثقيل الذي كان يرافقنا. وحْدَهُ وقْعُ خطانا في الكوريدور كان يُسمَع واضحاً ومنتظماً مع صرير الأرضيّة الخشبية القديمة تحت أقدامنا، بينما كان يتناهى إلينا من بعض الغرف على الجانبين لغطُ أصوات نادرة لموظفين متأخرين يستعدّون للمغادرة. ثم خيّل لي، لسببٍ ما، أنه كان يصرّ على أن لا يلتفت نحوي، فاسترقت نظرةً خاطفةً إليه بطرف عيني- كان ينظر، بانشغال واضح، إلى الفراغ الضيّق المتطاول سيّء الإنارة الذي يملأ الكوريدور أمامنا. قدّرت أنه كان يفكّر بما كان يمكن أن يبدأ كلامه معي، أو لعلّه كان يفاضل، في نفسه، بين عدّة أماكن كنا نستطيع أن نقضي في أحدها الساعات القريبة القادمة. وإذ بَطّأ من إيقاع مشيته فجأةً ظننتُ على الفور أنه سوف يلتفتُ إليّ الآن ويبادرني بالكلام. غير أن صوتاً أنثوياً، اعتقدتُ حالاً أنني أعرف صاحبته جيداً، تعالى من ورائنا في تلك اللحظة.

- سالم!

التفتنا معـًا.

كان ثمة فتاتان تقفان قرب باب مفتوح، إحداهما كانت ناتاليا التي تعمل في النسخة الروسية من الجريدة.

- مساء الخير!

ردّ سالم بمودّة.

- ماشا وأنا نعتقد بأن الوقت ما زال مبكّراً للعودة إلى المنزل، وسوف نقبل دعوتك فوراً إذا دعوتنا الآن لاحتساء الشاي على سبيل المثال.

قالت ناتاليا، بين الجد والمزاح، بنبرةِ صديقةٍ لها دالّة واضحة على سالم.

وكنت، في غضون ذلك، قد حيّيتها بيدي هي بالذّات، وتابعتُ طريقي وحدي في الكوريدور. ثم شعرتُ، دون أن ألتفت إلى الوراء، بأن سالم قد لاحظ انسحابي قبل أن يجيب ناتاليا بعد تريّثٍ قصير.

- بكل سرور ناتاليا الغالية، سوف ننتظركما في الأسفل عند الباب.

قال، ثم سمعت من بعيد وقع خطواته ورائي.

أدركني واقفـًا عند باب المبنى، فوقف أمامي، وجعل ينظر إلي بعينين ودودتين قلقتين تستنطقان ملامحي بإلحاح، وقد ارتسمت على فمه ابتسامة متوتّرة.

- أردت أن نقضي معـًا وقتـًا ممتعـًا لا أكثر.

قال بصوت منفعلٍ خفيض.

لم أعلّق بشيء.

كان مفهومـاً لي طبعـاً، بوصفي صـديقه و"أخـاه الصـغير" كمـا يحـب أن يعاملني دائمـاً منذ أيام صداقتنا الأولى، أن يكون مهتمـاً جداً بالتغيرات المقلقة التي طـرأت عليّ وعلى سـلوكي في الأيـام العصيبة الأخيـرة التي مررت بها دون أن أشرح له شيئـاً على الإطلاق. ولربما كان من حقه عليّ، من وجهة نظره على الأقل، أن أضعه بصورة ما حصـل معي منـذ قصاصـة رايا الأولى التي أخذتني ذات صباح إلى غابة البتولا تحت المطر الغزيـر. لكنني، في حقيقة الأمر، لم أتعمّـد قـطّ أن أخفـي عليـه، هـو بالـذّات، شـيئـاً مهمّـاً مما حدث أو يحدث معي. فقد اعتدت على أن لا أخـبر أحـداً، أيـاً كانت علاقته وثيقـة بي، بقصصـي الشخصـية المتعلّقـة بـالمرأة أو بـبعض الناس الذين أهتمّ بحيواتهم دون سبب مفهوم وكـذلك بـبعض الحيوانـات التـي أحبهـا وأواظـب على زيارتهـا في حديقـة الحيوانـات أو حتـى بـبعض الأشياء المختلفة التي أتفقدها في أماكن وجودهـا أو أراهـا بالمصـادفة مـن وقت إلى آخر. هذا لا يعود طبعـاً إلى أنني لا أثـق بالنـاس القـريبين مني، بل إلى أن غالبيّة تفاصيل هذه القصص، الواقعية بالنسبة لـي، لا يمكـن أن تكـون واقعيـةً بالنسـبة للآخـرين، لأنهـا ببسـاطة تحـدث في داخلـي. ومـن خبرتي الطويلة نسبيـاً بهذا النـوع مـن العلاقـات الاجتماعيـة الحميمـة التي أعيشها، مـع النـاس والحيوانـات والأشـياء مـن حـولي، كنـت أدرك سـلفـاً صعوبة، وربما اسـتحالة، أن أنقـل مجرياتهـا، حـارّةً وكاملـةً كمـا هـي، إلـى شخص آخر مهما كان عزيزاً عليّ. هي في نهايـة الأمـر قصـص لا تُنقَـل ولا تُلخّص ولا تُصدّق، بل تُعاش بكـلّ تفاصـيلها الواقعيـة وغيـر الواقعيـة مـن قبل شخص واحد فقط هو أنا بطبيعة الحال.

كان سالم الآن، بكلّ هدوئه المتوتّر الذي يبديه لي، ينتظر، كأنما بصبرٍ نافد، أن أقول له شيئاً، كلمةً أو حتى إشارةً بعيدة، ليعرف ما كان ينبغي عليه أن يفعله من أجلي. وكنت أشعر بامتنان كبير له على إخلاصه لي وخوفه عليّ إلى درجة أنني كدت أقترب منه وأضمّه بين ذراعيّ لولا طقطقة حذائَيّ ناتاليا وماشا التي تناهت إلينا، عبر باب الجريدة، من أعلى الدرج.

لم أكن أعرف ما إذا كان سالم قد عرف، من ناتاليا، أنني كنت مهتماً بها في الماضي القريب. لكنني كنت شبه واثق من أنه كان يتوقّع أنها تستطيع أن تعجبني بسهولة، فقد كانت امرأة ذات جمال لافت دارج، وكان يظنّ، على الأغلب، أنني أميل إلى هذا النوع من الجمال. لم أشعر طبعاً، في أيّ يوم من الأيام، بضرورة تصويب ظنّه بذوقي، لأنني بالعادة لا أكون متأكّداً تماماً من آرائي بجمال المرأة، فأنا أستطيع، أحياناً، أن أعجب بكلّ امرأة أصادفها لمجرّد أنها ليست رجلاً. وربما لهذا السبب كنت أعتقد، في بعض الأحيان، أن جمال المرأة لا يتعلّق بها بل بي، أعني أن جمالها شيء رهيف جداً ومتقلّب جداً أربّيه بحذرٍ شديدٍ في نفسي. لكنني، بالمقابل، كنت، وما أزال، أثمّن انحياز سالم لجمال المرأة غير الدارج. ولم أستثنِ أنه عندما وافق الآن على دعوة ناتاليا مع صديقتها ماشا، الجميلة جمالاً دارجاً هي الأخرى، إنما فكّر، بالدرجة الأولى، بي وليس بنفسه. لابدّ أنه اعتقد فوراً أنني، في وقتي العصيب الذي تصوّره على طريقته، قد أجد اهتماماتٍ جميلة مشتركة مع واحدةٍ منهما في هذه الليلة.

لم يكن، عندئذٍ، قد مضى على اهتمامي بناتاليا أكثر من بضعة شهور. أذكر أنني دعوتها مرتين أو ثلاث مرات إلى المسرح ومرةً

اصطحبتها معي إلى حديقة الحيوانات دون أن أكشف لها، طبعاً، عن الحيوانات التي أحبها هناك. وذات مساء تناولنا العشاء معاً في أحد المطاعم، كما عزمتها إلى بيتي، في مساء آخر، على طعام سوريّ حضّرته بنفسي خصيصاً من أجلها. وكنت، في كلّ مرّة، أوصلها إلى منزلها بعد نهاية لقائنا لكي أفيد من مشاعري العميقة المقيّدة إلى جانبها في وقت إضافي يُنفقه الناس عادةً دون جدوى في الشوارع وفي وسائل النقل. ثم فهمتُ، بعد ذلك كلّه، أنها كانت ترحب فعلاً بصداقتي كرجل مهذّب مهتم بالأدب والمسرح كانت تستطيع أن تقضي معه أوقاتاً ممتعة كلما سنحت الفرصة، لكنْ لا أكثر من ذلك. وبدا الأمر كما لو كنا قادرَيْن حقاً على الاستمرار بصداقتنا على ذلك النحو المحترم لولا جهودي الدقيقة المستترة التي كنت أبذلها، برفق وإصرار، طيلة شهرين تقريباً لتطوير هذه الصداقة الرصينة إلى قصة حب. ولا بدّ أن ناتاليا قد لاحظت تلك الجهود الناعمة التي كنت أبثّها في سلوكي كلّه حتى عندما كنت أتحدث معها عن الطقس أو عن مسرح ميرخولد أو عن سائقي سيارات الأجرة الذين يبيعون قناني الفودكا بأسعار مضاعفة في الساعات المتأخرة من الليل. لم أكن أطمح طبعاً إلى الكثير منها. دائماً كان الكثير المتاح من أيّ شيءٍ مريباً جداً في عينيّ، فما كان يلزمني ولا سعيت إليه قط. أما الأشياء التي أحبها وأتعلّق بها فأحاول عادةً، بكل قواي، أن أساعدها في تأخير نضجها، أطول مدّة ممكنة، لكي لا تتساقط عليّ من تلقاء نفسها بسهولة في كل وقت وفي كل مكان. لذلك فإنّ ما كنت أنتظره من ناتاليا كان في الحقيقة رموزاً لا أكثر، رموزاً تستطيع بعدئذٍ أن تنمو في داخلي كالبذور- بذور واقعية من مفرداتها الخاصة، بذور من طريقتها بالكلام والتفكير

والاكتشاف والمشي والاستلقاء وتناول الطعام ورواية الأحلام، بذور من آرائها ومواقفها من القضايا الكبرى التي تملأ الكتب وشاشات التلفزيونات والإذاعات وأعمدة الصحف، بذور من لامبالاتها بأي شيء، بذور من خواطرها الأخيرة قبل أن تنام، بذور من سلوك أعضائها في الفراش، بذور من انحناءات جسدها وتكاويره وذراه ومنحدراته ومغائره، بذور من كذباتها البيضاء والسوداء، بذور من نباهتها وخفة دمها، بذور من غلاظتها وغبائها، بذور من رقتها وشراستها، بذور، بذور، بذور لا أكثر من بذور مقصودة ونصف مقصودة وربع مقصودة وغير مقصودة أبداً كانت كافية بالنسبة لي لأن أستنبتها وأنمّيها، في داخلي، على مهلي حتى أجدني أعيش في قصة حب معها لا تُروى ولا تُشاهَد. غير أن إصرارها على أن لا تبدي ما يوحي لي بأيّ استجابة لجهودي المتخفّية الناعمة على مدى شهرين جعل استمراري ببذلها عبئاً على روحي لم أعد كأنما قادراً على تحمّله أكثر من ذلك. فكان لا بدّ من مسافةٍ آمنةٍ تفصل بيننا سرعان ما قَبِلْنا بوجودها معاً واعتدنا عليها شيئاً فشيئاً. ظلّت رؤيتها تسعدني طبعاً في أي لحظة، وكنا نتبادل الكلمات الطيبة المتداولة والسؤال الروتينيّ الخالد عن الحال والصحة والمزاج كلما التقينا بالمصادفة المحضة في كوريدورات الصحيفة. بعد ذلك أصبحنا نكتفي بتبادل التحية والابتسامات البريئة قدر الإمكان.

حين قدّمني سالم إليها هذا المساء، بعد أن ظهرتْ وصديقتها ماشا من باب مبنى الجريدة، بدا لي، من نبرة صوته، أنه لم يكن يعلم ما كان حدث بيني وبينها قبل سبعة شهور أو أكثر بقليل. لكنّ ما صدمني، عندئذٍ، أنها نظرت إليّ بطريقةٍ بدت معها كأنها كانت تتذكّرني بصعوبة.

- أعتقد أنني صادفتك مرة أو مرتين عندنا في الجريدة.

قالت.

لم أعلّق بكلمة، إنما هززت رأسي بصورةٍ لا تشي لها بأي معنى. وحين استوقف سالم سيارة أجرة وذكر للسائق اسم شارع لم أسمع به من قبل، حرصتُ على أن لا أجلس إلى جانبها وصديقتها في المقعد الخلفي. سارعتُ إلى الجلوس في المقعد الأمامي وحدي إلى جانب السائق. تذرّعتُ في نفسي بأن سالم سيجد ما يقوله لهما في الطريق مادام صديق ناتاليا المكشوف وصاحب الدعوة فوق ذلك. إلا أن ما دفعني، في الحقيقة، إلى الجلوس وحدي في المقعد الأمامي كان رغبتي بأن أختلي بنفسي لأهضم الصدمة التي شعرت بها عندما ادّعت ناتاليا بأنها لم تلتق بي في السابق إلا بالمصادفة "مرةً أو مرتين عندنا في الجريدة". حاولت، ما أمكنني، أن أنقطع عما كان يحدث وراء ظهري في المقعد الخلفي مركّزاً نظري على الزجاج الأمامي فقط. لم أكن أميّز، طبعاً، شيئاً محدّداً في الشوارع التي كانت السيارة تخترقها، ولا كان يهمّني كأنما أن أكوّن أيّ تصوّر عن الجهة التي نمضي إليها. كنت أحصر ذهني في شيء واحد فقط هو أن أفهم إنكار ناتاليا للقاءاتنا السابقة بمعزل عن تأثير صداقتي بسالم، وبمعزلٍ أيضاً عن تأثير خيبتي الخاصة التي آلت إليها تلك اللقاءات، والتي اعتقدتُ أنني كنت قد تجاوزتُها قبل هذه الليلة بمدة طويلة. وإذ مِلتُ فجأةً مع السيارة التي انعطفت بنا بسرعة كبيرة، حاولت، ما استطعتُ، أن لا أنزلق إلى الإساءة لناتاليا في نفسي. فما كان يقلقني الآن لم يكن، بأيّ حال، الانتقامُ منها على فشلي الخاص السابق معها، بل فهمُ دوافعها في ما قالته لي على باب الجريدة. ثم ظننت أنها أنكرت معرفتي

السابقة أمام سالم بالذّات لكي تحميه من أيّ حساسية يمكن أن تعرقل مشاعره نحوها في حال كانت مهتمّة به كرجل في هذه الليلة. لم أستبعد طبعاً أن تكون مهتمّة به شأن نساء غير قليلات في مبنى الجريدة، فهو رجل وسيم ومضياف، وواضحٌ برغم متاهة علاقاته مع الجنس اللطيف. ولا بدّ أنها كانت تعرف أيضاً، كما تعرف الأخريات، أنه يميل كثيراً إلى النساء ذوات الجمال غير الدارج. وهذا ما كان يزيد من وعورة طريقها إلى قلبه في هذه الليلة ويضاعف، في آن، من رغبتها به مادامت امرأة ذات جمال دارجٍ يبعدها، نظرياً على الأقل، عن مركز اهتماماته المباشرة. ومن ثم لم يكن يَلزمها، والحال هذه، ما كان يمكن أن يضيف سبباً جديداً لتفتير عواطفه نحوها فوجدت نفسها تنكر، تلقائياً، معرفتها السابقة النافلة بي. وهكذا فإنها لم تكن تقصد، في الحقيقة، الإساءة لمشاعري الماضية نحوها بقدر ما أرادت إزالتي سلفاً، كعقبة محتملة، في سعيها إلى رجل آخر تريده الآن، وهذا حقّها. ثم إنها لم تنكرني في غيابي بل في حضوري، الأمر الذي كان يُحسب، في تقديري، لها لا عليها.

انتظرتُ، من هذا التفسير المعقول الذي توصّلتُ إليه دون عناء، أن يزيل على الفور آثار صدمتي من كلمات ناتاليا، غير أنه لم يُزِلْها للأسف. ثم خشيت من أن لجوئي إلى هذا التفسير كان من باب صرْفِ انتباهي عن تفسير آخر قد يكون أكثر احتمالاً وأشدّ قرباً من الحقيقة: ماذا لو أن ناتاليا قد أنكرت معرفتها السابقة بي من باب الحرص على إبقاء ما حدث بيننا بعيداً عن أصابع الآخرين. وهنا انتبهت إلى أن السائق كان يدخن إلى جانبي، فعبّرت له عن ضيقي الشديد من دخانه. ثم اعتقدت فوراً أن نبرة كلامي في مخاطبته كانت عصبيّة بعض الشيء، فاعتذرت منه في الحال قبل

أن يكشف لي عن الخشونة التي تَسِمُ، عادةً، غير القليل من سائقي سيارات الأجرة. بعد ذلك التفتّ إلى الوراء ربما لأعرف ما إذا كانوا، في المقعد الخلفيّ، قد لاحظوا السوء الذي تصرّفت به مع السائق. كانت ماشا تقول لسالم شيئًا لم أسمعه، لكن عينيّ وقعتا في عينَيّ ناتاليا وخيل لي فوراً أنها كانت تنظر إلى قذالي قبل أن ألتفت. ثم خفتُ من أن تؤكّد لي عيناها الجميلتان المعبّرتان الآن صحة ما افترضتُه قبل قليل. وكنت أدرك تمامًا أن مجرّد افتراض حرصها على إبقاء ما حدث بيننا بعيداً عن أصابع الآخرين، إنما كان يعني، ببساطة، أنها تضع خطّين غير مرئيّين، سرّيّين إذا صحّ التعبير، تحت أهمية الفترة التي عشناها معًا قبل شهور. وبذلك فإنها تؤكّد على أن شيئًا ثمينًا مشتركًا ما يزال يجمعنا ويضعنا وحيدَيْن في صفٍّ واحد حتى الآن بينما يضع الآخرين كلّهم في صفٍّ مقابل. وكان يمكن هذا الافتراض، لو سايرته إلى النهاية، أن يفضي بي، تلقائيًا، إلى اعتبار إنكارها معرفتي إشارةً محسوبةً بدقة إلى استعدادٍ ما لبعث علاقتنا من جديد. ما كان سيثقل على روحي حتمًا في هذه الليلة بالذّات. أشحتُ فوراً عن عيني ناتاليا الجميلتين المعبّرتين وعدت أنظر إلى زجاج السيارة الأمامي قبل أن تؤكّدا لي أيّ فكرة أو هاجس أو إحساس. حاولت جاهداً أن أبدو هادئًا تمامًا، كما لو أنني لم أكترث، ولا كان ينبغي لي أن أكترث أصلاً في ظرفي الراهن، بما افترضتُه، عَرَضًا، قبل لحظات حتى ولو كان صحيحًا. غير أنني لم أعرف، في الحقيقة، كيف أتخلّص من أحابيله الغاوية، فقد ظلّ يحوم في رأسي حتى توقفت السيارة بنا فجأة.

كانت الجادة العريضة التي ترجّلنا فيها غريبة عليّ، ولعل رطوبة الطقس الملموسة في هذه المنطقة كانت تدلّ على قربها من نهر موسكو.

حاولت أن لا أقع لا إلى يمين ناتاليا ولا إلى شمالها بينما كان سالم يقودنا إلى مطعم قريب من ناصية شارعٍ فرعي هادئ. ومع وصولنا إلى بابه تريّثنا لِلحظات، سالم وأنا، لنسمح لناتاليا وماشا بالدخول قبلنا. وقد تسنّى لي، قبل أن نتبعهما مباشرةً، أن أنظر إلى وجهه، ففوجئت بأنه كان يحدّق بي وقد ضيّق عينيه ورفع طرفَيّ حاجبيه مثل جناحين صغيرين. لم أفهم طبعاً ما كان يعنيه بالضبط. غير أنه ترك لديّ انطباعاً قويّاً بأن وجودنا معاً في هذه الليلة لن يكون فقط من أجل" أن نقضي وقتاً ممتعاً لا أكثر" كما قال لي أمام مبنى الجريدة. لقد كان الآن أقرب ما يكون إلى شكله عندما يوشك على القيام بخطوةٍ لم يعد قادراً على الإحجام عنها أكثر من ذلك.

بدت الأماكن في صالة المطعم الواسعة مشغولة كلها، ربما بسبب الإنارة الخافتة. كان بعض الموسيقيين يصدرون، بآلاتهم التي يدوزنونها، أصواتاً مبتورةً متقاطعة لا تضيف شيئاً مفهوماً فوق الهمهمة الجماعية التي كان يحدثها زبائن المطعم. ظللنا مُتَلَبّثين عند مدخل الصالة حتى لمحَتنا نادلة من بعيد، فاقتربت منّا. أشارت لنا أن نتبعها ومشت أمامنا في خطّ متعرّج بين الطاولات المشغولة حتى وصلت بنا إلى طاولة شاغرة بعيدة جداً عن الفرقة الموسيقية وعن حلبة الرقص.

جلست ناتاليا وصديقتها ماشا متقابلتين.

أردت أن أجلس إلى جانب ماشا إلا أن سالم، الذي كان أقرب مني إلى المكان، قد سبقني إليه، ما اضطرني إلى الجلوس إلى جوار ناتاليا.

كان غطاء الطاولة الأبيض مطرّزاً بصفوف منتظمة من ثمار الفراولة.

سألتنا النادلة عن طلباتنا، فوافق الجميع على أن يتصرّف سالم بما

يخصّ، مبدئيًا، المقبلات الباردة التي يحسن انتقاءها. أما ما يتعلّق بالمشروبات فقد اقترحت ماشا أن نشرب الفودكا، مشروب سالم المفضل. وافقت ناتاليا على اقتراح صديقتها ونظر سالم إليّ يستمزج رأيي. كان يعرف أنني أفضّل النبيذ الأحمر المزّ في كل الفصول، لكنني أستطيع أن أشرب أيّ مشروب آخر وأستمتع به أيضًا. وإذ تأكّد من أنني لم أعترض على الفودكا، أضاف زجاجةً منها وبعض العصائر إلى لائحة المقبلات التي طلبها.

بعد انصراف النادلة مباشرة شعرت بأن سالم كان يغالب نفسه بصعوبة لكي لا يخرج عن كياسته المعهودة معي. كأنه لم يعد يحتاج الآن إلى أيّ إشارةٍ، أو إذنٍ، مني لكي يناقش معي ما يؤرّقه بي بغض النظر عن وجود فتاتين تجالساننا معًا لأول مرة. كان يدرك جيداً طبعًا أنني لا أفضّل أن أجد نفسي مُطالَبًا، ولو من قِبَله، بشرح أيّ شيءٍ خاصٍ بي ما دمت امتنعتُ عن المبادرة إلى ذلك. غير أنه قد قرّر كأنما أن لا يظلّ مكتف اليدين أمام المصائب الفظيعة التي كان يتخيّلني أواجهها وحدي منذ أيام، والتي لن أنجو منها، كما كان يمكن أن يعتقد، دون يد المساعدة التي سيمدّها إليّ الآن شئتُ أم أبيت. لكنْ كان عليه، لكي يمدّها بالشكل الأمثل، أن يعرف منّي، قبل ذلك، شيئًا ما عن طبيعة هذه الفظائع. وكان يؤسفني أنني لن أحدثه عن أيّ شيءٍ. ثم إنني كنت ملتاثًا، في تلك اللحظات، بجواري لناتاليا. كنت لا أكفّ، طيلة الوقت، عن مراقبةِ مشاعري نحوها وضبطِها بدقّة كافية، دون أن أغفل لحظةً واحدة عن مقاومة ما أصبح يتداعى في نفسي من لحظاتٍ ساحرةٍ قديمةٍ كنت قد عشتها معها قبل شهور. كما كنت أُبدي غيرَ قليلٍ من الشجاعة في أن

أتحمّل، دون تبعات خطيرة، عطرَها المتضوّع الذي أحببته دائماً. وما كنت لأستهين، في الوقت نفسه، بأنفاسها التي كنت لا أتوقّف كأنما عن تنفّسها من شدّة إحساسي المريب بقربها مني.

كانت ماشا الآن تتحدّث عن أن مطراً شديداً سيهطل في وقت متأخر من هذه الليلة وأننا لن نجد سيارة أجرة تقلنا إلى بيوتنا، وأننا، لو كنا عاقلين جداً وحريصين جداً على أن لا نصاب بالبرد، لخرجنا من المطعم قبل هطول المطر. لكنّنا لن نكون عاقلين جداً لحسن الحظ، على حدّ تعبيرها، فالجو لطيف هنا ويشجع على البقاء حتى نهاية السهرة، وسوف يصبح أكثر لطافة بعد قدحين من الفودكا وجولة من الرقص والموسيقا والصخب..

كانت ناتاليا تدخن سيجارةً أخرجتها من حقيبتها، وتصغي إلى ثرثرة ماشا عن الطقس والرقص والفودكا. وكنت أحاول، في هذه الأثناء، أن لا ألتفت إلى يميني حيث كانت تجلس. لم أكن أجرؤ على ذلك في واقع الأمر. كأنني لم أكن واثقاً تماماً بعينيّ- كنت كأنما لا أضمن، إن وقعتا في عينيها هذه المرّة، أن لا تشيا لها بما لست أعلمه ولا أقرّ به ولا أقصده من المشاعر والأفكار والأخيلة الفالتة من رقابتي الصارمة على نفسي الآن. كأنني كنت أتهيّب، وأشجب ربما، أن تكون ناتاليا ما تزال، بالنسبة لي، امرأةً أستطيع أن أحلم بها وأعاني من أجلها في أيّ لحظة. وكان لا يلزمني، بأيّ حال، أن أتحقق مما إذا كانت كذلك فعلاً، فكل ما كان يهمني وأتمسّك به بكلّ قواي العقلية المُدرَكة، في هذه الليلة خصوصاً، أن لا تتخلخل في نفسي المسافة الآمنة الراسخة التي فصلتني عنها منذ شهور.

- سوف أذهب إلى الحّمام.

قالت ناتاليا فجأةً، ثم أطفأت سيجارتها في المنفضة ونهضت. وبينما التقطت حقيبة يدها وابتعدت، كانت النادلة قد عادت بعربة معدنية تحمل طلباتنا.

- هل ترغبون بشيءٍ آخر؟

تساءلتْ النادلة بعد أن انتهت من فرش الطاولة.

- لا، شكراً!

ردّت ماشا، وهي تنظر، بمزاج رائق واضح، إلى الصحون والأقداح والزجاجات المتنوعة المرتّبة على الطاولة. ثم ما لبثتْ أن سألت سالم عمّا سيفعل بنفسه في آخر السهرة مادام لا يحمل مظلة معه. وإذ هزّ لها رأسه، في إشارةٍ كأنما إلى أنه سوف يستسلم للمطر الشديد الذي كانت تتخيّله في تلك اللحظة، أظهرتْ في الحال ما يشبه ابتهاجًا خاصاً ووعدتْه بأنها ستشاركه بمظلّتها. ثم أكّدت لي، وهي تنغّم كلماتها وتُدلّعها، أن المظلات ستلعب بها الرياح القوية ولن تحمينا من البلل في كل الأحوال، لأننا سنمشي مسافة طويلة جداً قبل أن نصل إلى أقرب محطة مترو..

كان سالم، في هذه الأثناء، قد شرع يملأ، ببطءٍ وصمت، الأقداح الصغيرة بالفودكا والكؤوس الكبيرة بالعصائر. وكان، من وقت إلى آخر، يُشعر ماشا بإصغائه إلى كلامها بنظرةٍ سريعةٍ أو بهزّة رأسٍ خفيفة. غير أن ملامحه، كما بدت لي، كانت تنمّ عن أنه كان ما يزال يواصل التفكير بيد المساعدة التي يصرّ على مدّها إليّ في هذه الليلة. ومع انتهائه من ملء الأقداح والكؤوس وإعادة ترتيب بعض صحون المقبلات على سطح الطاولة، عادت ناتاليا وجلست إلى جانبي من جديد.

ساد صمت قصير عاد في أثنائه عطرُ ناتاليا يتضوّع في حواسّي كلّها.

ثم رفع سالم قدحه، وهو يصوّب عينيه القلقتين عليّ، ودعانا، بصوته الباريتون الجميل، إلى أن نشرب نخب لقائنا الذي تمّ اليوم دون تحضير مسبق.

رفعنا أقداحنا جميعًا وشربنا.

ثم بدا لي أن لدى ماشا المبتهجة ما كانت تريد قوله الآن، غير أن سالم، الذي كان يملأ أقداحنا من جديد، قد سبقها إلى الكلام.

- قميصكَ جميل!

قال لي فجأةً.

تمعّنتْ ماشا فوراً بقميصي بفضول ظاهر، وكان طبيعيًا بالنسبة لي أن يظهر على وجهها بعد قليل شيء من الخيبة، فقد كان مجرّد قميص بوبلين عادي بلونٍ بنّي داكن. ثم رغبتْ كأنما بأن تعرف ما إذا كانت ناتاليا ترى فيه ما يدعو إلى الإعجاب حقًا، فالتفتت إليها بعينين مُستفسِرتين. وقد وجدتُني ألتفتُ معها إليها تلقائيًا لا لكي أسمع رأيها بقميصي، بل ربما لكي أتحرّر أخيراً من رهبة النظر إلى عينيها لا أكثر. لم يعد شعرها القصير منسدلاً على جانبيّ وجهها كما كان عليه قبل دخولنا المطعم، فقد كان الآن مشكولاً إلى الأعلى من الجهة القريبة مني، ما أظهر لي ملامحها بصورةٍ أوضح. كانت مشدودةً نحو سالم تنتظر منه أن يتابع ما يفكّر به الآن بصوت مسموع. كأنها كانت تعلم، مسبقًا، عادتَه في تلفّظ جملة غامضة مراوِغة حين يريد الاستفاضة، بعدئذٍ، بالكلام. ولعلّها كانت توشك أن تستفسر منه، من باب استدراجه، عن ما أعجبه في قميصي على وجه التحديد لولا أنه تابع كلامه من تلقاء نفسه. كانت ملامحه جدّية ورقيقة في آن، فيما كانت أصابع يديه القلقة وعيناه المتوقّدتان بالذكاء والمودّة تدلّ على انفعالٍ معتدلٍ مضبوط.

تحدّث طويلاً، كما لو كان يحفظني عن ظهر قلب، عن ذوقي واهتماماتي وأسلوبي بالحياة وطريقتي بالنظر إلى نفسي وإلى الآخرين. وقد خيّل لي أنه، لسببٍ ما، كان الآن يفترض أن ناتاليا وماشا من الناس الذين يمكن أن يُسيئوا فهمي في لقائهم الأول بي، فقرّر كأنما أن يصوّب وجهة نظرهما بي سلفاً. ولعلّه أراد، في الوقت نفسه، أن يستعيد، بكلامه المتحمّس عني، صورتي المفضّلة التي تزعزعت في عينيه في الأيام الأخيرة. وكان يدلّل على مصداقيّة خصالي، التي كان يرسمها أمامنا، بحوادث ومواقف كان شاهداً عليها منذ وصولي إلى روسيا، مع أنني في الواقع كنت قد أمضيت عدة سنوات قبل أن أتعرف إليه في الجريدة. لذلك كان مستحيلاً عليّ أن أتذكر كل الأحداث التي جعلني أعيشها في حديثه، ثم إنه كان ينسب إليّ أحياناً مواقف شبه استثنائية لم أمرّ بها على الإطلاق. كان مفهوماً، بالنسبة لي طبعاً، أن جهله التام بما كنت أحتاجه في هذه الليلة قد جعله يلفّقني الآن بأحسن صورة قابلة للتصديق من شدّة قلقه عليّ. وقد كان كأنما يعرف جيداً كيف يتحاشى الوقوع في الابتذال، وهو يدير أمامنا سيرتي الشخصية، في سورية وروسيا، ويتصرّف بها بِدالّةٍ وطلاقةٍ وذوقٍ لافت. لم يكن يتردد بوضع لمسات جديدةٍ، مدروسةٍ كأنما بعنايةٍ مسبقة، على تفاصيل قديمة من طفولتي أو مراهقتي كنت قد رويتها له ذات يوم. وأحياناً كان ينتزع بعض هذه التفاصيل من سياقها الأصليّ ويضعها، بدقّةِ صائغٍ وحِرْصِ صديقٍ، في سياقٍ آخر من حياتي لكي تضفي عليّ بُعداً أكثر مرحاً وشغفاً بالحياة. وكان واضحاً تماماً أن ما يهمّه الآن ليس الإخلاص للحقائق التي جرت في حياتي، بل أن يقنعنا، أنا وناتاليا وماشا، بصورتي الحيوية التي كان يستعيدها، على طريقته، ويريد مني أن أعود إليها في هذه الليلة..

ظلّت ناتاليا تتابع كلام سالم باهتمام، بينما كانت ماشا قد بدأت تعبّر عن شعورها بالضجر، فقد صارت تحكّ بظفر سبّابتها، بشكل آليّ وعصبيّ، إحدى ثمار الفراولة المطرّزة على غطاء الطاولة. لم تستطع، كأنما، أن تطابق بين صورتي المشرقة التي كان يرسمها سالم وبين صورتي المُلبّكة الكامدة التي كانت تراها أمامها على الطرف المقابل من الطاولة. وكانت، مع تلقائيتها ومزاجها المرح وإقبالها على الحياة، تستطيع في أيّ لحظة، كما قدّرتُ، أن تقاطع كلام سالم بثاؤبٍ مصطنع، أو حقيقي، مسموع. وكنت أعرف أن ردّة فعله، حتى ولو كانت مهذّبة كالعادة، فسوف تكدّر، ولو قليلاً، مزاج شابة لم تذنب عملياً بشيء تُؤاخَذ عليه. لقد كان من الغبن حقاً أن تطالبها بتفهّم دوافع سالم، التي لا تعرفها أصلاً، للاستغراق في حديث جدّي طويلٍ عنيّ في وقت كانت تتهيّأ فيه لأن تقضي سهرةً ممتعةً في هذه الليلة. ومن ثَم كان بمقدورها ببساطة، كأي إنسان يجلس بين أصدقائه في مطعم، أن تعبّر عن ضجرها إذا شعرت به وقتما تشاء وتتكلم بما تريد متى تشاء وتصغي، أو لا تصغي، إلى ما يُقال حول الطاولة متى تشاء. وقد كان عليّ، قبل أيّ شخص آخر طبعاً، أن أبادر فوراً إلى إسكات صديقي سالم، بطريقة لبقة قدر الإمكان، قبل أن ننزلق، دون أن نقصد، إلى سوء فهم محتمل لا يرغب به أحد.

مددت يدي فجأةً إلى قدحي ورفعته. ثم دعوت الجميع إلى أن نشرب نخب الفتاتين الجميلتين الجالستين إلى الطاولة.

شربنا.

ثم ملأ سالم أقداحنا من جديد، بينما بدأت الفرقة الموسيقية بعزف أغنية راقصة.

نهض كثير من النساء والرجال في الصالة من أماكنهم واتجهوا إلى حلبة الرقص. وكان متوقعاً كأنما أن تنضمّ إليهم ماشا، فنهضت من مكانها بالفعل، وقد أزالت الموسيقا من وجهها أثر سيرتي المضجرة، ورسمت على شفتيها ابتسامة طفولية مشاكسة. ظلّت تنظر إلينا بعينين مبتهجتين وتنتظر كأنما أن ننهض معها لننطلق جميعاً إلى حلبة الرقص. ولمّا فهمت أن أحداً منا لن يتحرك من مكانه تناولت قدحها من على الطاولة، شربته وحدها بتلذّذٍ احتفاليّ دون أن تقترح نخباً علينا. ثم التفتت إلى سالم وخاطبته بلهجة مسرحية مرحة:

- رغم أن الرجال يدعون السيدات إلى الرقص عادةً، لكنني أدعوك يا سالم العزيز إلى مراقصتي!

نهض سالم مأخوذاً كأنما بمزاجها الطيب، ورافقها إلى حلبة الرقص.

ومع ابتعادهما هالني فوراً أنني لم أعد أشعر بهما مطلقاً، كأنهما اندغما بلمحة بصر في خلفيّة هلاميّة كتيمة غمرتْ كل الجالسين والجالسات في الصالة، والنادلات الحائمات في الممرات بين الطاولات، والموسيقيين والراقصين والراقصات فوق حلبة الرقص.

أصبحتُ لا أشعر إلا بي وبناتاليا متجاورين وحيدين تماماً في الصالة الواسعة كلّها.

- منذ يومين ذهبت إلى مكتب رئيس التحرير.

بادرتني ناتاليا بالكلام بتلك الطبقة المسموعة الدافئة التي أحبها، لتشجعني كأنما على الإصغاء إليها إلى النهاية.

- كان عند رئيس التحرير ضيوف، وقد بدا لي فوراً أنهم قطعوا حديثاً مبدوءاً قبل ظهوري في الغرفة ولا يودّون متابعته

بحضوري. لكنْ كان عليّ، بعد أن سلّمت رئيس التحرير الأوراق التي كنت أحملها، أن أنتظر ريثما يقلّبها ويترك عليها توقيعه كما يفعل عادةً. ولكي أتخلّص من إحساسي بثقلي الواضح على ضيوفه، التقطتُ مجلة كانت ملقاة على سطح مكتبه وصرتُ أتصفّحها، وأنا واقفة. ثم قبل أن أخرج مباشرةً، عندما كان رئيس التحرير يوقّع الورقة الأخيرة، لمحت على إحدى الصفحات رجلاً يشبهك كثيراً- كان مرسومًا في لوحة كتب تحتها بخط صغير "متجول فوق بحر الضباب". تريّثت وقتًا إضافيًا قليلاً جداً لكي أتأمّله على عجل. ثم أعدتُ المجلة إلى مكانها وحملت الأوراق من جديد وخرجت بسرعة..

ثم صمتت ناتاليا بضع ثوانٍ قبل أن ترفع قدحها.

- هل تشرب معي؟

سألتني، فرفعت قدحي.

- بصحتكِ!

قلتُ.

- بصحتك!

قالت، وشربنا.

- كان رجل اللوحة الذي يشبهك كثيراً يدير ظهره للمشاهد مع أنه كان يشغل المكان المركزيّ فيها. بدا لي، من هيئته العامة، أنه رجل من القرن التاسع عشر وربما الثامن عشر. لم يكن ظهره يشبه ظهرك ولا رأسه من الوراء يشبه رأسك ولا ألبسته تشبه

ألبستك. ما كان يشبهك فيه هو أنك تستطيع أن تدير ظهرك، أنت أيضاً، وتقف في مكانه كما كان يفعل بالضبط. كان يقف وحيداً تماماً في فضاء اللوحة الشاسع على رأس صخرة عالية تبسط أمام عينيه ذرى جروف صخرية شاهقة تظهر فوق بحر من ضباب كثيف. وقد فكّرتُ، بعد خروجي من مكتب رئيس التحرير، أنه كان يدير ظهره، بإصرار، لكل الناس الذين ينظرون إليه من خارج إطار اللوحة. كان يبدو مشغولاً عنهم جميعاً بأشياء متخفّية في الضباب لا يراها أحد سواه. تماماً كما كنت تفعل أنت عندما أكون معك. كنت أشعر بأنك تدير ظهرك لي وتبحث عني في أفق بعيد لم أكن أراه، مع أنك لو التفتّ إلى جانبك لوجدتني ملتصقةً بك. كنت تفضّل أن تراني في خيالك على أن تراني بين يديك. في المرات الثلاث التي أخذتني بها إلى المسرح كنت أشعر أنك كنت تبحث عني طيلة العرض بين الممثلين وبين أفكار المخرج والمؤلف وقطع الديكور، مع أنني كنت أجلس إلى جوارك في المرات الثلاث. وعندما كنا نخرج من المسرح كنت تتصرف معي، حتى بِصَمتك الطويل، كما لو كنتُ بطلةً مسرحيةً عثرتَ عليها على الخشبة ثم أخرجتَها معك لتقوما بنزهةٍ ليليةٍ في شوارع موسكو. دائماً كنتَ تريد أن تصل إليّ بصعوبة. كأنك، إذا وجدتني قربك هكذا ببساطة، تشعر بأنك قد أسأتَ إلي. دائماً كنتَ تظن، وتصدّق ظنك دائماً، أنني مختلفة عن ما أنا عليه في الواقع. دائماً كنتَ تعيش معي في داخلك، وحين كنت تراني خارجك، كما لو

بالخطأ، كنتَ تُصْدَم بي. وأنا، لو تعرف، أحب نفسي كثيراً كما هي، أعتني بها كما هي، أقبَلها دائماً كما هي حتى حين تخطئ وتتعثر أو حين تضعني في مواقف محرجة أمام الآخرين. كان صعباً عليّ جداً أن أعيش معك في داخلك يا عزيزي. أنا في داخلك امرأة غريبة عليّ تماماً، امرأة أخرى لم أكرهها ولم أحبها، لكنني ما أحببت يوماً أن أكون مثلها. أنا أحب نفسي التي أعرفها، نفسي التي لا أجدني إلا فيها، نفسي التي لم أخترها، نفسي التي وجدتها أمامي لأول مرة حين وعيت الدنيا، نفسي التي..

كنت، في هذه الأثناء، أصغي إلى ناتاليا بانتباه شديد وأحاول أن أفهم معانى كلماتها بكل طاقتي. وقد اعتقدتُ، في البداية، أنني كنت أستوعب فعلاً ما كانت تقوله لي بالضبط. ثم سرعان ما أصبحتُ ألاقي صعوبةً كبيرة في التوصّل إلى ما كانت تريد إيصاله لي. أصبحتُ أتشتّتُ بين معاني كلماتها وبين أصوات الحروف المتناغمة التي كانت تتدفق من فمها ببراعة مذهلة. وكان يزيد من تشتيتي أنني لم أكن قادراً على الفصل بين ما كانت تقوله لي وبين شفتيها الزهريّتين وأسنانها النظيفة البيضاء ورأس لسانها، الذي كان يطلّ عليّ أحياناً من أجل صوغ حرفٍ لا يستقيم المعنى من دونه. ثم ما لبثتُ أن أصبحت عاجزاً تماماً عن تلقّي أيّ معنى، فقد تحوّل كلامها كلّه إلى أصوات خالصة صارت تتناثر في نفسي وترجّعها كأنما من حولي الصالةُ الواسعة الفارغة. عند ذلك أدركت أن المسافة الراسخة الآمنة التي فصلتني عنها طيلة شهور قد بدأت تنهار. وكان عليّ أن أقاطعها فوراً، بأيّ هراءٍ على رأس لساني، قبل أن تفلت

نفسي من قبضتي تماماً. إلّا أنني، من شدّة افتتاني بكلامها المحض الصافي المتساقط عليّ مثل علامات موسيقية لا تُقاوم، لم أكن قادراً على نطق كلمة واحدة أقاطعها بها. ثم كان كأنما مباغتاً، حتى لي، أن أقاطعها بيدي التي ارتفعت فجأةً، فبدوت، للحظات، كأنني لا أعرف ما الذي سأفعله بها. لكنني مددتُها إلى جيب جاكيتي الداخلي، وأخرجتُ منه برقية رايا. فتحتها، وصرت أقرؤها، في نفسي، بأعلى صوتي:

- إذهب غداً في الساعة الرابعة مساء إلى مركز الهاتف في شارع غوركي القريب من مبنى الجريدة وانتظر مني مكالمة هاتفية.. رايا. إذهب غداً في الساعة الرابعة مساء إلى مركز الهاتف في شارع غوركي القريب من مبنى الجريدة وانتظر مني مكالمة هاتفية.. رايا. إذهب غداً في الساعة الرابعة مساء إلى مركز الهاتف في شارع غوركي القريب من مبنى الجريدة وانتظر مني مكالمة هاتفية.. رايا. إذهب غداً في الساعة الرابعة مساء إلى مركز الهاتف في شارع غوركي القريب من مبنى الجريدة وانتظر مني مكالمة هاتفية.. رايا. إذهب غداً في الساعة الرابعة مساء إلى مركز الهاتف في شارع غوركي القريب من...
- ماذا تقرأ؟

سألتني ناتاليا.

- شعراً.

أجبتُ. ثم تابعتُ قراءة البرقية في نفسي بأعلى صوتي حتى ظهرت ماشا، كأنما من العدم، مرعوبةً مبهورةَ الأنفاس، فظهر معها في حواسّي فجأةً كل الناس مع كلّ صخبهم في صالة المطعم.

- سالم!
- ما به سالم؟!

سألتُ.

- صادفَنا صديقي السابق نرقص معـًا، فشدّني من بين يديه وتَشاجرا.

نهضت من مكاني، وجعلت أمرّ مروراً سريعـًا متعثراً بين طاولات الزبائن، فيما بدأتُ أسمع لغط أصوات غاضبة تتعالى في حلبة الرقص.

كان سالم يتلوّى على أرض الحلبة بين رجلين يرفسانه في أماكن مختلفة من جسده. اقتربت منهما، دون أن أعرف بالضبط كيف يمكنني أن أخلّصه من بين أقدامهما. أمسكت بظهر أحدهما وشددته إلى الوراء بقوة، ثم لمحتُ نادلة طاولتنا تشق طريقها إلينا بين الناس المتفرّجين علينا. وعندما التفتَ نحوي الرجل، الذي شددته إلى الوراء، شعرتُ فوراً بشيءٍ قاسٍ جداً صدم رأسي وأسقطني من طولي على الأرض. لابدّ أنني، من قوة الصدمة، قد أغمضت عيني أو أنني غبت عن وعيي فملأني، لِلَحَظات، ظلام كثيف قبل أن أفتح عينيّ من جديد. ميّزتُ، بصعوبة، نادلة الطاولة وهي تبعد الرجل عني بصوت حازم. ثم ساعدتني على النهوض، وأنا ألاحظ رجلين، من طاقم الخدمة في المطعم، يسحلان سالم من كتفيه ويدخلانه في باب مفتوح. قادتني النادلة، دون ان تفلتني من يديها، نحو الباب نفسه وأدخلتني وراءه. سندتني بعد ذلك إلى حائط مغطى بألواح بورسلان أبيض، ونظرتْ في عينيّ مباشرة. ثم أفلتتْني من قبضتيها وهي تراقب ما إذا كنت سأستطيع الوقوف دون مساعدتها.

- هل أنت بخير؟

سألتني.

- أظنّ نعم بخير، شكراً.

عندئذٍ مدّت يدها إلى جيبها وأخرجت لي فاتورة الحساب.

- ادفع حساب الطاولة واسحب صديقك إلى خارج المطعم من هناك، من الباب الخلفي.

قالت بحزم.

- يجب أن أعود إلى الطاولة لأخبر صديقتينا.

قلت، وأنا أفتح محفظة نقودي وأحاسبها.

- غادرتا.

قالت، وهي تتأكّد من المبلغ الذي استلمتْه، ثم أردفتْ:

- الباب من هناك.

أشارت لي، بلفتة قصيرة من رأسها، للمرة الثانية وابتعدتْ.

تلفّتّ من حولي، وعرفت أنني في مطبخ المطعم. أبخرة تتصاعد من أشياء تُقلى وتُشوى وتُطهى هنا وهناك، أفران، طناجر مختلفة الحجوم، مقالٍ معلّقة وأخرى فوق عيون غاز متوهجة، مغارف، سكاكين، بشّارات، مصافي، خفّاقات يدوية، برادات ضخمة في داخلها أصناف مختلفة من الأجبان واللحوم والأسماك والمرتديلا. وقد كان هنالك أربعة رجال أو خمسة، بلباس موحّد، منهمكين بتحضير طلبات الزبائن بوجوهٍ محايدة وأيدٍ تتحرّك بشكل آليّ، كأن شيئاً خارج المألوف لم يحدث قبل قليل.

كان سالم قد تمكّن من الجلوس، وبدأ الآن، مستنداً إلى باب فرن مطفأ، يتعرّف، مذهولاً، على المكان الذي وجد نفسه فيه. كان فمه مورّماً ينزف دماً، وقد انتفخ خده الأيمن واكتسى بجلد قرمزي مسلّخ. انتبهت

إلى أنه يرتدي فردة حذاء واحدة، ففتّشت عن الفردة الثانية ووجدتها مشلوحة تحت طاولة معدنية كبيرة تتوسط المطبخ. التقطتها، وعدت بها إليه. ضممت قدمه فيها ثم أنهضته بصعوبة كبيرة من على الأرض. لم يكن قادراً، في البداية، على المشي دون مساعدتي، لكنه، بعد خروجنا من باب المطعم الخلفي، استعاد بعض قواه وصار يمشي إلى جانبي ببطء وحذر. ثم وقفنا بضع دقائق عند ناصية الشارع قبل أن تقلّنا سيارة أجرة باتجاه شقته القريبة من مترو دينامو.

لم نتبادل في الطريق كلمة واحدة. ظللنا صافنين، كلّ في خواطره الخاصة، حتى توقفت بنا السيارة أمام باب البناية التي يسكن فيها. فكّرتُ عندئذٍ أن أوصله بنفسي إلى شقته في الطابق الخامس، فنزلت معه.

عند باب شقته تريّث قليلاً على غير العادة. ثم لم يخرج مفتاحه، بل قرع الجرس كما لم أشاهده يفعل ذلك في السابق. بعد قليل اقترب أحد ما، في الداخل، من الباب وغطّى بصيص النور في العين السحرية، ثم لم يفتحه لنا، بل ابتعد وعاد بعد وقت قصير. وحين انفتح الباب أخيراً ظهرت أمامنا فتاة محجّبة، في العشرين من عمرها أو أكثر بقليل، لم أرها في بيته قط. هجمت عليه بوجه مرعوب، أخذته بين ذراعيها وهي تتفقّد بعينيها القلقتين وجهه المكدَّم.

- حبيبي!

قالت، وهي تسحبه إلى الداخل، فتبعتُهما إلى الصالون، بشكل تلقائيٍّ، بعد إغلاقي ورائي الباب. ساعدتْه في خلع جاكيته، وعيناها المضطربتان ما تزالان تتفحّصان الانتفاخات القرمزية المسلّخة على وجهه. وإذ أعارت أخيراً بعض انتباهها إلى وجودي قدّمني إليها سالم

باعتباري صديقـاً قديمـاً له، ثم التفتَ إليّ وقال:

- زوجتي سميرة.

حاولت، ما أمكنني، أن لا أنـدهش وأن أعتـبر زواجـه خـبراً سـارّاً في كل الأحوال.

- تزوّجنا على السّاكت.

تابع متوقعـاً كأنما أن أسأل نفسي على الأقل عن سـبب عـدم دعـوتي إلى حفل زفافهما.

- مبروك!

قلتُ فيما أصبح يبتسم، بصعوبة وألـم ظـاهر، ابتسـامةً مائلـةً كشـفتْ عن أسنانه الملطخة بالدم.

- سوف أذهب الآن، هل تحتاج إلى شيء مني؟

أردفتُ.

- لا، شكراً.

أجاب، فودّعتهما وخرجت.

نونّا

I

أول ما لفت نظري، عندما استيقظتُ في الصباح، أن الدمية كانت متكئةً على مسندِ أول مقعدٍ قريب من السرير. كانت تنظر إليّ بتركيزٍ واضح وتحاول كأنما أن تقرأ، من ملامحي، ما جَدّ معي من دونها خارج البيت طوال يوم البارحة. خيل لي في البداية، وأنا أتابع تعابيرها أولاً بأول، أنها أبدت استغرابها من الأخبار التي كانت تستنتجها من وجهي. ثم ما لبثتْ، كأنما بعد تمحيصٍ أكثر دقّةً بما تراه، أن عبّرت عن ما يشبه الأسف والاستياء في وقت واحد. كأن شيئًا في غاية الأهمية بالنسبة لها، وربما بالنسبة لي أيضًا، قد فاتني أن أراعيه خلال وجودي خارج البيت، وما عاد الآن ممكنًا، ولا مجديًا ربما، تلافي ما حدث.

لم أستطع، وأنا أغالب رغبتي بالعودة إلى النوم، تحديدَ الشيء المهم الذي كان عليّ مراعاته من بين الأشياء الكثيرة التي حدثت معي بالأمس. لكنني، حين نهضت من الفراش وذهبت إلى الحمام لأحلق ذقني، عرفت أن الدمية كانت على حق، فما رأيته أمامي في مرآة الحلاقة كان غير قابل للإصلاح حقًا. كانت ملامح وجهي مختلفةً جداً عما كانت عليه عندما غادرت البيت في صباح البارحة. لم تكن فتحة عيني اليسرى، الآن، بحجمها الطبيعي الذي اعتدت عليه. كانت مطمورة تقريبًا بورم كحليّ بارز حلّ محلّ جفنيها وتمدّد إلى الأعلى حتى تجاوز حاجبها.

بالإضافة إلى أثر دم كان يغطّي الجزء اليسير الظاهر من بياضها. وكنت أستطيع، في ظرفٍ آخر، أن لا أتوقف كثيراً عند هذا الاختلاف الذي حدث في وجهي، فما أكثر ما يتعرّض له البشر من اللحظات العصيبة التي تترك أحياناً على أشكالهم ونفوسهم آثاراً واضحة مؤقتة أو دائمة. لكنّ ما جعلني أتوقف الآن عند هذا التفصيل هو أنني لم أعرف كيف كان يمكنني أن أذهب بعين منفوخة وكحليّة اللون إلى مركز الهاتف لاستقبال مكالمة تلفونية من رايا في الساعة الرابعة من مساء هذا اليوم. لم يكن يعنيني طبعاً أن يرى الناس الإضافة غير المألوفة الظاهرة على وجهي. ما كان يقلقني في الحقيقة أنني كنت أشعر أن عيني الكحلية المنفوخة لم تكن تدلّ على الرجل الذي لكمني في المطعم ليلة البارحة، بل على ناتاليا ولقائي بها بعد غياب طويل. ثم قدّرتُ، وأنا أغسل وجهي من بقايا رغوة معجون الحلاقة، أن رايا سوف تشعر بعيني الكحليّة حتماً ما إن ستسمع صوتي بسمّاعة التلفون. صوتي أصدق مني، وسوف يشي لها بعيني الكحليّة، لا بدّ، من الكلمة الأولى، فكّرتُ وأنا أحرّك البنّ في ركوة القهوة في موزّع الشقة. حتى اذا اعترفتُ لها بأنني قد اشتقتُ إليها كثيراً وأنني سافرت، في داخلي، من أجلها إلى باكو عشرات المرّات يومياً وأنني أنتظر الآن، على أحرّ من الجمر، اليوم الذي سأراها فيه، فإن صوتي سيُفهّمها، على طريقته المستقيمة الخاصة، أن عيني كحليّة ومنفوخة وأن عيني كحليّة ومنفوخة وأن عيني كحليّة ومنفوخة. دائماً حين أكلّم الآخرين أحاول، قدر الإمكان، أن أقول أشياءاً لا تخبّئ تحتها أشياءاً أخرى لكي لا يكذّبني صوتي أمامهم. لكنني، في بعض الأحيان، أضطر للأسف لأن أخبّئ أشياءاً أخرى تحت الكلمات التي أقولها لهم، ما كان يعرّضني حتماً لحرجٍ

دوريّ يسببه لي صوتي- الفضيحة. ومن حسن الحظ أن معظم الأشياء التي أقولها لنفسي لا تُحيجني لأن أخبئ تحتها أي شيء إلا في أحيانٍ نادرةٍ جداً. ولذلك فإن صوتي، في هذه الحال، يردّد، بِجِرْسه الخفيّ الذي لا يسمعه أحد سواي، ما أقوله أنا بالضبط، وهذا شيء مريح وجيد. لكنْ كيف سأستطيع أن أعبّر لرايا، في تلفون المساء، عن كل ما أحسّ به من الشوق والمحبة والانتظار دون أن تشعر بعيني الكحليّة المنفوخة التي تدلّ على ناتاليا، فكّرتُ وأنا أغسل فنجان القهوة الذي شربته. ثم ظللتُ أسأل نفسي السؤال نفسه طيلة الوقت الذي استغرقه ترتيبي سريري وارتدائي ملابس خروجي. وإذ لم أتوصّل إلى أيّ إجابةٍ شافية، حين أصبحت جاهزاً للتوجّه إلى عملي، لم أستطع مغادرة الغرفة. دسست يدي في جيبي وتفقدت مفتاح الشقة، وبقيت واقفاً في فتحة الباب مثل مقيّد إلى شيءٍ محدّدٍ لا أعرفه في الداخل. تفحّصتُ من مكاني، بعينين يقظتين وصبرٍ نافد، المكتبة وطاولة الكتابة وخزانة الألبسة والديوانة والسرير والستارة ونصف النافذة المكشوفة المطلة على الشارع والزهور البنفسجية الصغيرة المكررة على ورق الجدران. ثم حين وقعت عيناي، من جديد، على دمية رايا، الجالسة ما زالت على المقعد المجاور للسرير، عرفتُ فوراً ما كنتُ أخشى أن أنساه قبل أن أخرج، فلم يعد عبثاً تَلَبّثي المُحيّر الطويل في فتحة الباب- لقد كان عليّ أن آخذ معي دمية رايا إلى مركز الهاتف. سوف تشعر رايا بالسعادة حتماً حين ستعرف أنني أحمل دميتها بيدٍ بينما أمسك باليد الأخرى سمّاعة التلفون. ثم إن إحساسي بحرارة الدمية الملتصقة بي في كابين الهاتف، سوف يجعلني أعبّر بثقة أكبر عن مشاعري، وسوف يلطّف ربما كثيراً، في الوقت نفسه، من حدّة

الفروق المتوقّعة بين ما سأقوله أنا وبين ما يمكن أن يقوله صوتي لرايا، فكرتُ. ولعلّي سأستطيع، بفضل التصاقها بي، تقليصَ هذه الفروق إلى حدٍّ لا يُمكّن رايا من الشعور بها بتاتاً. إنني بالنهاية لن أكذب عليها، وسوف أعني، بكلّ جوارحي، كلّ الكلمات الرقيقة التي سأقولها لها بالتلفون، بغض النظر عن عيني الكحليّة المنفوخة وما ترمز إليه في نفسي. ليس بيدي الآن، لا ليس بيدي أبداً، بل بيد الوقت فقط أن يُزيل، على مهله، أثرَ ناتاليا الذي لن يُخلّد في نهاية الأمر لا على وجهي ولا في صوتي ولا في نفسي مهما كان الآن بارزاً ومنفوخاً وكحليّاً. أعني أن ناتاليا، منذ مدةٍ طويلة، لم تعد في الحقيقة جرحاً مفتوحاً بالنسبة لي، بل مجرّد حكّة عابرة لذيذة فوق جرح قديم مندمل، تابعتُ قولي لنفسي. ثم تناولتُ حقيبة يدي، التي لا أحملها إلا نادراً، وضعتُ الدمية فيها برفق، وخرجت بها مسرعاً من الغرفة.

في الشارع شعرت فوراً بأهمية أن تُرافق الإنسانَ دميةُ المرأة التي يحبها، خاصةً إذا كانت إحدى عينيه ترمز، مؤقتاً ورغماً عنه، إلى امرأة أخرى. كنت أكثر خفّة إلى درجة أنني لم أكن أشعر بخطاي على الأرض، وأكثر ثقة بنفسي إلى درجة أنني كنت أتجاهل ببساطة شديدة عيون المارّة الدبقة المستفهمة المتهافتة على وجهي دون توقف. لم يكن يعنيني أنهم كانوا يلاحظون، أو لا يلاحظون، عيني الكحلية المورّمة. كنت، بكل أعضائي الخفيفة المتدفقة إلى الأمام، مشغولاً بإحساسي بنفسي الرشيقة المحبة للحياة وبأن شيئاً، مهما بدا شبيهاً بالعار، لا يمكن أن يُعيبني ما دام جزءاً غير مزيف من حياتي.

حاولت في أثناء وجودي في الجريدة ذلك اليوم أن لا يؤثر شيء من حولي على الخفة التي ظللت أستمدّها من إحساسي بوجود الدمية في

حقيبتي. امتنعت، بكل طاقتي، عن ملاحظة وفهم وتحليل الأصوات والحركات وملامح الوجوه المتداولة عادة في مكاتب وكوريدورات ومطعم وحمامات مبنى الجريدة طوال اليوم. وقد تعاملت مع زملائي في الغرفة، ما إن جلست وراء مكتبي، كما لو كانوا شخصاً واحداً يتكرر دون ملامح على عدة مقاعد وراء عدة طاولات لا أكثر. حتى سالم لم أسمح له بأن يلفت انتباهي إلى وجوده الشخصيّ الذي أكنّ له عادةً مودةً خاصةً تميّزه في نفسي عن الآخرين. وقد تعاميت، منذ لحظة دخولي الغرفة، عن خدّه وصدغه الكحليين المنفّخين بشكل كامل تقريباً، وكذلك لم يعنِ لي شيئاً مهماً أبداً فمُهُ المورّم المائل المتدلّي إلى الأسفل. وحين وضع أمامي كأس الشاي بالنعناع اعتقدت ببساطة أنني سوف أفقد خفتي تماماً إذا شربت منه جرعةً واحدة، فلم أجرؤ على مدّ يدي إليه. الشيء المؤسف الوحيد الذي لم أتمكّن من تجنّبه، قبل أن أخرج إلى موعدي في مركز الهاتف، كان كلام سالم الطويل في فترة الغداء. لكنني نجحتُ، إلى حدّ كبير، في تفريغ أخباره وآرائه ونمائمه من تأثيرها عليّ عن طريق تفتيت سياقها في رأسي وتحويلها إلى حطام عبثي من المعاني المبعثرة. فبوريس يلتسين يتهجّم على زوجة غورباتشوف وغورباتشوف يفصل الكهرباء عن ميكروفون الأكاديمي أندريه ساخاروف والأكاديمي أندريه ساخاروف يطالب بحذف الفقرة السادسة الخاصة بالحزب القائد من الدستور والعرب يرسلون باخرة محمّلة بالمصاحف إلى الاتحاد السوفييتي واليهود يبدؤون بتمويل صحف روسية في موسكو وكونياك نابليون الأصلي الذي أرسلته فرنسا كمساعدات إنسانية إلى الشعب الروسي يباع الآن في الأكشاك بأسعار رخيصة لا تُصدّق ونائب رئيس مؤتمر نواب الشعب

يكتب الشعر ويستحي من نشره وألمانيا مّولت ثورة أوكتوبر الاشتراكية العظمى وأندريه تركوفسكي الذي نام سالم في أحد أفلامه يقول من على فراش موته في فرنسا إن الوقت أصبح متأخراً جداً على العودة إلى روسيا والولايات المتحدة ترسل أرجل دجاج الرئيس بوش الشبيهة بأرجل الديوك الرومية مُعبّئةً بالكراتين إلى روسيا ومجموعة من المتعصّبين الروس يضربون الشاعر والمغني العجوز بولات أغودجافا وأملُ تطبيقِ القرارين 242 و338 سيضمحلّ حتماً إذا انهار الاتحاد السوفييتي وتفوّقُ طلاب الدكتوراه الفيتناميين على طلاب الدكتوراه السوريين بتصريف العملة وبيع الأدوات الكهربائية وتفوّقُ طلاب الدكتوراه السوريين على طلاب الدكتوراه الفيتناميين ببيع الغيارات الداخلية النسائية وأقلام الحمرة والمسكرة وعلب المكياج والساحة الحمراء تتحوّل إلى سوق دعارة بعد الساعة التاسعة ليلاً على مرأى ومسمع الحارسَيْن الجامدَيْن مثل تمثالَيْن مزيّفين أمام ضريح القائد المحنّط فلاديمير إيلتش لينين.

وهكذا فقد حافظت على مزاجي الطليق الذي خرجت به من البيت سليماً تماماً تقريباً حتى موعد خروجي إلى مركز الهاتف في شارع غوركي. وقد كان عليّ أن أخرج من الجريدة قبل نهاية الدوام لكي أكون هناك قبل الساعة الرابعة مساء بعشر دقائق من باب الاحتياط. ولكي أحدّد بالضبط لحظة خروجي كان ينبغي علي حساب مسافة الطريق التي قدّرت أنها ستستغرق من عشر إلى خمس عشرة دقيقة من المشي العادي. ثم حملت أخيراً حقيبة يدي وتوجهت إلى مكتب رئيس التحرير، أخبرته بضرورة وجودي الآن في مركز الهاتف، وغادرت مبنى الجريدة في تمام الساعة الثالثة والنصف وخمس دقائق.

II

عندما نطقتْ باسمي موظفة مركز الهاتف بمكبّر الصوت وحدّدت لي الكابين رقم 3 لأتوجّه إليه، قبضتُ على حقيبة يدي، ونهضت من مكاني في صالة الانتظار، ثم اندفعت أقطع الخطوات المعدودة الأخيرة التي كانت تفصلني عن صوت رايا.

كان الكابين، الذي دخلت إليه وأغلقت بابه وارئي، شبه معتم. نوّاسة صغيرة قريبة من رأسي، وجهاز هاتف مثبّت فوق رف صغير يكاد يلتصق بي، وهواء قليل راكد ومشبع برائحة عفونة خشب رطب قديم. ولعل النور الكليل قد زاد من شعوري بضيق المكان إلى درجة أنني لم أستطع فتح حقيبتي، لأخرج الدمية، إلا بصعوبة شديدة. مع ذلك لم تؤثر الرطوبة ولا العفونة ولا ضيق المكان ولا شحّة النور في توهج رغبتي العارمة في أن أرفع سمّاعة التلفون على الفور وأسمع صوت رايا، فوضعت راحة يدي سلفاً عليها في انتظار الرنين الموشك بين لحظة وأخرى. كانت يدي الأخرى تضم دميتها إلى صدري بقوة، فيما انحشرتْ حقيبتي بين قدميّ على أرضيّة الكابين. وفي الثواني القليلة الأخيرة قبل أن يرن جرس التلفون مرّ أمام عينيّ، كما لو في فيلم سينمائي، قصاصتهُا الأولى وقبلتنا الأولى تحت المطر الغزير في غابة البتولا وحاسة أبدول التلفزيونية النامية ونزوله، تحت مظلة زوجته الحمراء، إلى مركز البريد

وبرقية زوج رايا وانتقال أبدول إلى الطابق الثالث ولجوء رايا إلى غرفتي والليل الجليدي في قصيدة ألكسندر بلوك وليالي دوستويفسكي البيضاء ونشيش الزيت في مقلاة ساشا والضوء الأحمر على رأس برج موسكو الذي لم يفعل شيئاً من أجلنا والرب الذي لم يستجب لتوسّلنا إليه وباب الشقة الذي انقضّ عليه أبدول ومواطنوه الأذريون ذوو العيون المدوّرة الحمراء ونوبة صرع رايا وتكوّمها أمام المصعد وتسفيرها إلى باكو ورحلاتي اليومية التي لم تتوقف إلى هناك وبرقيتها وعيني الكحليّة المورّمة التي ترمز إلى ناتاليا ثم انتظاري الآن في الكابين تحت النواسة الصغيرة القريبة من رأسي.

شعرت أخيراً برنين التلفون تحت راحة يدي فرفعت السماعة فوراً، وقد أصبحت حواسّي كلّها متحفّزة لاستقبال صوت رايا.

- آلو.. رايا!

هتفتُ.

- مرحباً يا عزيزي!

تناهى إليّ صوت غريب ما كنت لأصدق أنه صوتها لولا التفاصيل التي ذكرتْها في كلامها بعد ترحيبها بي مباشرة. كان صوتاً مُجهَداً مثخناً كأنما بمعاناة مريرة لا تُحتمل، ومفعماً، في الوقت نفسه، بعنفوانٍ متواصل كان يحوّله في السمّاعة إلى صوت بطوليّ لامرأةٍ تريد إيصال كلماتها الحارة لحبيبها قبل أن تجترح من أجله مأثرتها الأخيرة. ولكي تخفّف كأنما من وقع آلامها عليّ كانت تتحامل على نفسها وتنثر في كلامها هنا وهناك ضحكات مفتعلة قصيرة دون مناسبة. ما كان يؤكد لي، مع كلّ ضحكةٍ لطيفةٍ مزيّفة، مقدار التضحيات التي كانت تُقْدم عليها من

أجلي طيلة وجودها في باكو. ثم دفعني تعاليها البطولي على معاناتها إلى أن أبالغ، في نفسي، بسوء المعاملة التي كانت تلاقيها في باكو حتى من أقرب الناس إليها. تصوّرتها الآن محجوزةً في قبوٍ باردٍ رطب سيّئ التهوية رديء الإنارة. ولعل عفونة الخشب القديم والنوّاسة الصغيرة الملتصقة برأسي والهواء الراكد في كابين الهاتف الضيق قد سهّلتْ عليّ مضاعفة إحساسي بمعاناتها. قالت إنها لم تذهب إلى منزل زوجها فور وصولها إلى باكو، بل إلى بيت أهلها وسجنت نفسها في غرفتها القديمة التي تماهت، في ذهني، حالاً بالقبو الخانق الذي افترضتُه قبل سطور. أغلقتْ على نفسها الباب بالمفتاح ورفضت أن تشرح شيئًا لأحد. لم تردّ على أسئلة أمها من وراء الباب. لم تخرج لتحدّث أخاها ضابط البحرية الذي طلبها بالتلفون، عدة مرات، خصيصًا من مدينة مورمانسك ليفهم منها ما حدث معها في موسكو. وعندما كانت تضطر إلى الخروج من الغرفة لسبب من الأسباب كانت تحافظ على صمتها المطبق فلا تُعلّق بشيءٍ على كلام أمها. أمها التي كانت تتعقّبها إلى المطبخ وتنتظرها عند باب الحمام وهي لا تكفّ عن نخر رأسها بسيرة زوجها الذي لن تجد أفضل منه في الدنيا كلها. وأحيانا كانت تصادف زوجها واقفًا في باب مفتوح من أبواب الشقة الداخلية. أو جالسًا في الصالون وهو ينظر بعين الرضا إلى حماته، التي لا تتعب من رفع رأسها به، ولا تكفّ من أجله عن لوم ابنتها الوحيدة العاصية الجاحدة الجميلة التي لن يتخلّى عنها برغم كل شيء. وقد جعلني ذلك كله أشعر فجأةً بمشاعر جديدة لم أتوقعها، فقد كنت أتضاءل، في عينيّ، طيلة كلامها، كما لو أنني لا أستحق عمليًا كلّ ما لاقته وتلاقيه من أجلي. وكنت لا أطيق طبعًا أن أبدو، في نظري، عبئًا نافلاً

على روحها النبيلة المتمردة دون أن تدري. شعرتُ برغبة شديدة بأن أقاطع تضحياتها المتواصلة، وأبرهن لها على جدارتي فعلاً بالآلام التي سبّبتُها لها وبتلك التي سوف أسببها، على الأغلب، في المستقبل أيضاً.

- وأنا أيضاً عيني كحليّة ومورّمة.

قاطعتها كأنما ببسالةٍ لم أقصدها أبداً، ثم ظننت في الحال أنني لم أقل ربما ما أردت قوله. غير أنني تابعت كلامي كما لو كنت أنقل إليها حقيقةَ ما كان يعتمل في نفسي من المحبة العميقة والاشتياق الشديد لرؤيتها في أقرب وقت ممكن.

- كحليّة ومنفّخة منذ مساء البارحة ولا أعرف بالضبط إلى متى سأظلّ أشعر بأنني ملطّخ بها. أعني أنني قد أظلّ أشعر بأن عيني كحليّة ومنفّخة حتى بعد أن تعود إلى شكلها الطبيعي الذي تعرفينه. أنا لا أستطيع أن أتحكّم بعيني الآن على كل حال، لأنها أصبحت تدلّ بوضوح على أشياء حقيقية حصلتْ معي في الماضي لا يمكنني الآن بالذّات أن أعترف لك بها ولا أن أتنصّل منها للأسف مهما حاولتُ. لكنْ أريدكِ أن تعرفي يا عزيزتي رايا أن وجودك القويّ في قلبي هو الشيء الوحيد الذي يجعلني أشعر بأن عيني كحليّة ومورّمة. أقصد أنني لا أشعر الآن بِوَرَمِها ولا بزراقها إلا من أجلك أنتِ. لقد كان بوسعي أن أعتبره، لولاكِ، مجرّد ورم طبيعيّ ظهر على وجهي بعد لَكمة قويّة تلقّيتها من رجل لا أعرفه التقيت به مساء البارحة في أحد المطاعم.

وكانت رايا، في هذه الأثناء، تؤكّد لي على أن أمها وأخاها وحتى زوجها سوف يرضخون لها في نهاية الأمر، وأنها سوف تُخضعهم جميعاً

بخوفهم الشديد عليها. ولذلك سوف تواصل، بلا رحمة، فقدانها لشهيتها على الطعام ولن تتوقف عن نحولها وشحوبها مهما فعلوا، وسوف تظلّ حدقتاها السوداوان جامدتين في محجريهما كعيني امرأة توشك على الهلاك. وإذا اقتضى الأمر فسوف تُسمعهم أنيناً خافتاً في أنصاف الليالي من أعماق عزلتها وصمتها المطبق في غرفتها المقفلة. ولأنهم، مهما كان غضبهم منها شديداً، لن يغامروا بفقدها إلى الأبد فهي متأكّدة من أنها سوف تعود قريباً إلى موسكو بعلمهم وموافقتهم جميعاً. وعندئذٍ لن تعيش عند أبدول طبعاً، بل سوف تستأجر غرفة في أي شقة مشتركة قريبة قدر الإمكان من المبنى الذي أعيش فيه. ثم إنها سوف تلتحق بدورة تأهيل متقدّمة، وسوف تفعل المستحيل لكي تُعَيّن، بعد نهاية الدورة، في مركزٍ لرعاية الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة في موسكو. ثم استدركتْ فجأةً بأنها لن تستطيع أن تطيل مكالمتها معي أكثر من ذلك، فتخيّلتُ، فوراً وبسهولة، الدقةَ الشديدةَ التي حسبتْ بها حركة أمها اليومية الاعتيادية حتى تأكّدتْ من أنها ستكون خارج المنزل خلال المكالمة القصيرة التي تجريها معي الآن. ولعل أخاها قد أخذ إجازة من عمله في مورمانسك وهو في طريقه، في هذه اللحظات أيضاً، إلى المنزل من المطار وعليها أن تنهي مكالمتها معي قبل أن يصل. وربما كان زوجها قد اتصل بالهاتف بأمها قبل خروجها مباشرة وأحاطها علماً بوصوله، هو الآخر، عند عودتها من مشوارها القصير. ولم أستبعد أن يكون هنالك أيضاً بشر كثيرون آخرون من الذين يخنقونها بمحبتهم الصادقة وبصبرهم الذي لا ينفد، على شاكلة أمها وأخيها وزوجها، لا تريدهم أن يسمعوا صوتها. لأنهم، إذا سمعوا صوتها، سوف يأملون بأنها سوف تخرج عن

صمتها في يوم من الأيام. وكنت أستطيع طبعاً أن أخترع لنفسي أسباباً كثيرة أخرى حتّمتْ عليها أن تنهي مكالمتها معي في هذه اللحظات، غير أنها ما لبثت أن سألتني فجأة:

- هل تعرف شاعراً أذرياً قديماً اسمه عماد الدين نسيمي؟

ثم اعترفتْ لي مباشرةً بأنها، في حياتها، لم تسمع شيئاً عن هذا الشاعر برغم حبها للشعر والشعراء، لكنها عرفت عنه أشياء هامة جداً في الطائرة الأخيرة التي جاءت بها من موسكو. كانت تجلس إلى جوار امرأة ظلت تقرأ كتاباً في يدها طوال الطريق، فسألتْها، عندما أصبحت الطائرة تحوم فوق باكو، عن الكتاب الذي تقرؤه. وفيما بدأت الطائرة تستعدّ للهبوط، فهمتْ منها أن الكتاب عن حياة عماد الدين نسيمي. ثم انقلب فجأةً صوتُ رايا، المثخن بالآلام والمفعم بالعنفوان، إلى صوتٍ يضجّ بالبهجة والفخر، فقد عرفتْ من المرأة، فيما أصبحت الطائرة تكرج على مدرّجها في أرض المطار، أن الشاعر نسيمي عاش السنوات الأخيرة من حياته في مدينة حلب، وأن أجدادي السوريين هناك قد أحبوه كثيراً، ثم سلخوه ودفنوه فيها وشيّدوا له ضريحاً يزوره الناس حتى الآن.

ما لفتني فوراً، عندئذٍ، أن رايا مرّت مروراً سعيداً بسلخ عماد الدين نسيمي في حلب، تماماً كسعادتها بما كان السوريون القدماء يكنّون له من المحبّة الكبيرة والتبجيل. ظننت في البداية أنها، تحت وطأة أشواقها المحمومة إليّ، لم تتوقف عند فظاعة سلخه لكي لا تعكّر بهجتَها باكتشافها ماضياً مشتركاً لأجدادنا. وقد كان كأنما مُنتَظَراً مني، في تلك اللحظة، أن أنظر إلى المحبّة السورية التي لاقاها نسيمي بحلب في قديم الزمان، كما لو كانت نبراساً لقصة حبنا ومثلاً أعلى يُحتذى به. كما بدا

لي، في اللحظة ذاتها، أنها كانت تحمّلني، بسرورٍ بالغٍ محسوس، شيئًا من دمه الأذري الحبيب الذي لم يجفّ كأنما بعد كل هذه السنين.

لم يكن يسعدني أبداً بطبيعة الحال أن أرث عن أجدادي ولو إصبعًا صغيراً واحداً شارك بسلخ نسيمي أيًا كان من أفتى لهم بذلك وأيًا كان حجم المحبة التي كانوا يضمرونها له. وما كنت لأتفهّم ما حدث حتى ولو كان نسيمي نفسه متفهمًا لما فعلوه به، وسعيداً ربما بالتضحية بحياته، حتى بهذه الطريقة البشعة، في سبيل عقيدته "الحروفية" التي أخذته بعيداً جداً عن المعتقدات السائدة في تلك الأيام. لقد كان ذلك كلّه منافيًا تمامًا لطبيعتي، فقد تحاشيتُ دائمًا الاستخفاف بالحياة وأنكرتُ بكل قواي التنازل الطوعيّ، أو الإجباريّ، عنها في سبيل أشياء زلقةٍ متقلبةٍ متعلّقةٍ غالبًا بالعقائد أو بما يسمونه أحيانًا بالشرف أو بالأوطان أو بالقضايا المصيرية العادلة أو بأيّ تسمياتٍ رنّانةٍ غامضةٍ أخرى. إلا أنني، برغم ذلك، كنت الآن حريصًا كأنما على أن لا أفسد على رايا سعادتها الوحشية بتاريخ أجدادنا المشترك، فلم أعترض على خفّتها في خلط الجريمة بالمأثرة. كأن خواطري خضعتْ فوراً، من تلقاء ذاتها، لسلطة سعادتها الطاغية إلى درجة أنني تخيّلتُ، من أجل إرضائها، أن نسيمي كان جدّها الشخصيّ وأن من سلخه في القرن التاسع الهجري كان جدي الذي مات بحلب في عام 1953. وكنت لم أر جدّي في حياتي، فقد توفّي قبل أن أولد بثلاث سنوات. لكنني أحببته دائمًا لأن أبي كان يحبه، فراعتني، الآن، السهولةُ التي حوّلتُه بها في داخلي، وأنا محشور في كابين هاتف بموسكو، إلى سلّاخ رجلٍ عاش قبله بعدّة قرون. ثم حاولت، ولم أستطع، استحضار ملامحه العزيزة من صورته الصغيرة الوحيدة التي كان

أبي يحفظها في كاصّة محلّه التجاريّ في الرقة، فتذكّرتُ عمتي التي كانت تصرّ دائماً على شبهي الكبير بجدّي. وهنا آلمني جداً أنني شعرتُ لأول مرة في حياتي بغثيانٍ مفاجئٍ شديدٍ من شبهي بجدّي، وقد زكم أنفي زنخُ لحمٍ ودم، فأدركتُ في الحال أن عليّ أن أتحرّر فوراً من غواية إرضاء رايا. وقد كنت الآن شبه واثقٍ من أنني، إذا تابعتُ إرضاءها أكثر من ذلك، فسوف أتخيّلني محلّ جدّي، ما دمت أشبهه كثيراً، ولسوف أفعل بها، في داخلي، من شدة حبي لها وشوقي إليها، الأشياءَ الفظيعةَ نفسها التي كان قد فعلها بجدّها عماد الدين نسيمي في القرن التاسع الهجري.

– لا، لا أعرف الشاعر عماد الدين نسيمي.

أجبت أخيراً على سؤالها وأنا أرتعد، وكان شعوري بالغثيان الآن قد تفاقم إلى درجة أنني ما عدت قادراً على تخيّل نفسي شريكًا بسعادتها الرهيبة أكثر من ذلك. ثم شعرت بعرقٍ بارد وإرهاق شديد مباغت أسقطني كأنما في نوم عميق. غبتُ تمامًا، ربما للحظات أو دقائق، عن الإحساس بوجودي في الكابين الخانق حتى فُتح الباب عليّ فجأةً. التفتّ برأسي كمذنبٍ قُبض عليه الآن، فألفيتُ امرأة لم تتوقّعني كأنما فجمدتْ أمامي في مكانها من شدّة الذهول. لعلّها كانت إحدى موظفات مركز الهاتف أو مجرد امرأة كانت تهمّ بالدخول إلى الكابين لسبب من الأسباب. لم أعرف ما الذي كان عليّ أن أفعله أو أقوله لها، فوجدتني أسلّمها سماعة الهاتف التي كانت ما تزال في يدي مثل أداةٍ لجريمةٍ مُرتكَبةٍ قبل قليل. ثم التقطتُ حقيبتي من بين قدمَيّ، وخرجت من الكابين مثل هارب.

III

لم أشعر في الشارع بالمارة ولا بالمحلات على جانبيه، ولا سمعت ضجيج السيارات والباصات وحافلات الترولّي ولا لاحظتها أصلاً. كل ما كنت أعيه وأشعر به هو أنني كنت أمشي على الرصيف بسرعة وأعبّ ما أمكنني من الهواء الوفير بملء رئتَيّ. وبرغم أن سرعتي لم تكن تهدف إلى غاية محدّدة، فقد وجدت نفسي فجأةً أمام مبنى الجريدة من جديد. لم أدخل. لم يكن في ذهني أيّ تصور عن ما يمكن أن أفعله في الداخل في مثل هذا الوقت. ثم إنني ما أردت أن أخسر الهواء في الشارع. أدرت ظهري لباب المبنى ولمحت، من بين الأشجار القريبة، رأس تمثال بوشكين. ثم اشتعل أمامي الضوء الأخضر للمشاة في إشارة المرور، كما لو خصيصاً من أجلي. استجبت له فوراً وقطعتُ الشارع، دون تردد، باتجاه الفسحة المحيطة بتمثال الشاعر حيث كان بوسعي أن أجلس على أحد المقاعد.

كانت المقاعد شبه فارغة. عجوزان متجاورتان صامتتان، واحدة تصفن في مكانٍ ما يقع بين أغصان شجرة قريبة، وأخرى تشرد في كفّيها المشبوكتين في حجرها. طفل يفتّت خبزةً لحمامات متجمّعات أمامه بينما تراقبه أمه، من مقعد آخر قريب، وتتكلّم معه بصوت خفيض. وفي الجهة الأخرى، حيث تصطف مجموعة أخرى من المقاعد الشاغرة، امرأة شابة تجلس على طرف أحدها. كانت تلتقط بأصابعها من وقت إلى آخر حبّةَ

فراولة، من كيس ورقي صغير في راحة يدها الأخرى، وتأكلها ببطء وتلذّذ ظاهرَيْن.

كأنني ما أردتُ أن أنفرد وحدي بأحد المقاعد، فاقتربت من المرأة الشابّة وجلست إلى جوارها على المقعد نفسه. كانت دمية رايا ما تزال في يدي، فأجلستها بيني وبين المرأة، ثم ركنت حقيبة يدي في الجانب الآخر. جعلتُ أنظر إلى تمثال بوشكين، وقد غطّى ذرق الحمام رأسه وكتفيه. ذرق الحمام جزء طبيعي مألوف من حياة التماثيل والنصب التذكارية التي تزيّن الساحات العامة والحدائق، ولا يكدّر، عادةً، الانطباعاتِ الرهيفة التي يمكن أن تشكّلها هذه الأعمال الفنية لدى الناظرين إليها، فكّرتُ. لكنّ ذرق الحمام الذي يغطّي رأس وكتفَيْ تمثال شاعر عظيم مثل ألكسندر سيرغييفيتش بوشكين، لا بدّ سيختلف في انطباعاتك، ولو قليلاً إذا شئت، عن ذرق الحمام الذي يغطي رأس وكتفي تمثال رجلٍ مجهولٍ كان مجرّد موديلٍ للنحّات. إنك، أمام بوشكين، لا تستطيع أن تتمتّع بجمال تمثاله، المسربل بذرق الحمام، بمعزلٍ عن الصور والمشاهد والمواقف والقصائد التي تعرفها من حياته ومن شعره. ومن ثم قد تنزلق، دون أن تقصد، إلى انطباعات فريدة يقترن فيها ذرق الحمام بتلك الصور والمشاهد والمواقف والقصائد، كما لو كان جزءاً طبيعياً منها أيضاً- ذرق الحمام جزء طبيعيّ من مبارزة بوشكين مع الفرنسي دانتيس من أجل زوجته ناتاليا مثلاً. ذرق الحمام جزء طبيعيّ من غضب القيصر الكسندر الأول على بوشكين. ذرق الحمام جزء طبيعيّ من منفى بوشكين في ميخايلوفسكوي. ذرق الحمام جزء طبيعيّ من تأثّر بوشكين باللورد بايرون. ذرق الحمام جزء طبيعيّ من خطاب دوستويفسكي في عام 1880

بعد رفع الستار عن تمثال بوشكين الذي أجلس أمامه الآن. ذرق الحمام جزء طبيعيّ من رأي تورغينيف ببوشكين حين لم يعتبره شاعراً عالمياً وحين اعتبره، في الوقت نفسه، جيلاً كاملاً من الشعراء الروس في شاعر واحد. ذرق الحمام جزء طبيعيّ من "ابنة الضابط" و"بنت البستوني" و"بوريس غودونوف". ذرق الحمام جزء طبيعيّ من الطوابير الطويلة التي تصطف، أمام مخازن الكتب في موسكو ولينينغراد، من أجل كلّ طبعة جديدة من أعماله الكاملة حتى الآن. ذرق الحمام جزء طبيعيّ من قصائده الثلاث القصيرة التي أحفظها عن ظهر قلب. ذرق الحمام..

- أنا أحب أن آكل الفراولة وأن أجلس فوقها وأن أمشي عليها أحياناً بقدمين حافيتين.

قاطعتْ تداعياتي فجأة المرأةُ الشابة التي كنت أجلس إلى جوارها أمام تمثال بوشكين، ثم تابعتْ كلامها، وهي تلتفت إلي من وقت إلى آخر.

- هناك أشياء كثيرة تبدو غير موجودة من قلة الانتباه إليها، لكنها بالنسبة لي موجودة مهما أهملها الآخرون. أنت مثلاً موجود بالنسبة لي. كل شيء موجود بالنسبة لي حتى الأشياء التي لا أراها بسهولة. من غير المعقول أن تكون الأشياء التي تغفل عنها غير موجودة أليس كذلك؟ هي موجودة بك ومن دونك، لكنّ الانتباه إليها يحرّكها ويجعلها ملحوظة، والإهمال يكبّلها ويطمرها، مع مرور الوقت، تحت طبقات كثيرة من الظلال. ليس بالضرورة أن يكون الشيء كلباً مسنّاً مريضاً في جحر، أو صندوقاً محطماً في فناء مهجور، لكي يكون مهمَلاً. هناك

أشياء تصبح مهمَلةً حين تعتاد عليها أو حين تتوقعها دائماً في مكانها فلا تعود مهتماً بملاحظتها. أنت نفسك تنتبه الآن مثلاً إلى تمثال بوشكين، بينما لا تشعر أبداً بالبرونز الذي يملؤه. والأشجار من حولنا من كثرة ما يتوقعها الناس من حولهم في الشوارع لا يلاحظونها ولا يشعرون بها إلا إذا اصطدموا بها، كالزوجات الجميلات البائتات والأزواج الوسيمين البائتين وكذلك الصمديات الثمينة القديمة في صالوناتهم. حتى المقاعد التي يجلسون عليها في الحدائق لا ينتبهون إليها ولا حتى إلى الناس الذين يشاركونهم بالجلوس عليها. أنت مثلاً هل تشعر بي؟ ربما لا تشعر بي ولا تنتبه إليّ مع أنك تراني لأول مرة. أعني أن من غير المعقول أن تكون قد اعتدتَ على وجودك إلى جانبي بهذه السرعة. على كل حال تستطيع، أنت أيضاً إذا شئتَ، أن تنتبه إلى الأشياء المهملة لكي لا تبدو بلا فائدة ولا دور ولا حصّة. أحياناً أشعر، كلما مررتُ بشيء مهمَل، أنه ينظر إليّ وينتظر مني أن أفعل شيئاً من أجله. والأشياء المهملة في حياتنا لا تُحصى كما تعرف، وأنا، كما ترى، لا أملك غير يدين اثنتين وعينين اثنتين ولساناً واحداً وقلباً واحداً فقط. لكنني، حين أنتبه إليها بكل عقلي وكل قلبي، لا أفكّر طبعاً بأنني أقوم بعمل خيري. لا أحب الأعمال الخيرية عموماً وأرتاب بالذين يُكْثرون منها. فعلُ الخير بحدّ ذاته يضايقني، ربما لأنه واجبٌ على الإنسان ومجالٌ لتبجّحه وعجرفته. ثم إنني، بطبعي، لستُ مُحْسِنة بل جبانة في حقيقة الأمر، هل

فهمت؟ أردت أن أقول إنني أخاف من نفسي كثيراً. نفسي تقسو عليّ مع أنها حنونة جداً على غيري. أنا طالبة فلسفة فاشلة منذ سنوات طويلة وأخاف من الألم وأُقبِل عليه. لو كنتَ جبانًا حقيقيًا مثلي لشعرتَ ربما بالفطرة بحاجة الأشياء المهملة الموجودة في كل مكان إلى انتباهك. لن يكون بوسعك، على كل حال، مهما كنت جبانًا ومهما شعرتَ بالتقصير، أن تنتبه إليها كلّها للأسف. لا تستطيع الأشياء المهملة أن تجتمع كلّها من أجلك في مكان واحد لتعيرها انتباهك دفعة واحدة. دائمًا سوف يفوتك الكثير منها. وإذا اجتمعتْ كلّها، في أحلامك مثلاً، فإنها لا تعرف كيف تجتمع بسلام، لأنها سوف تدرك فوراً أنها ليست في أماكنها الطبيعية في الحياة لتتابع غيابها الكلّي عن الملاحظة. أملُها المفاجئ بالملاحظة سوف يجعلها تتدافع وتتزاحم أمام عينيك، ولن تعرف عندئذٍ كيف تنتبه إليها بشكل جيد من شدّة الفوضى والزعيق. الأشياء المكبّلة من شدّة الإهمال لا تملك خبرةً بانتباه الآخرين إليها، فإذا شعرتْ به لا تعرف للأسف كيف تتحاشى الوقوع بالخطأ، وبالتعسّف أحيانًا. ويحدث أن تُصادف أشياءاً تبدو محكومة بالإهمال الدائم لكنها لا تشعر بذلك. كما يحدث أن تصادف أشياءاً أخرى تبدو محكومة بالانتباه الدائم، لكنها، هي الأخرى، لا تشعر بذلك. وقد تجد، في أحيان نادرة، شيئًا يدرك جيداً أنه في أمسّ الحاجة إلى الانتباه، لكنه لا يجرؤ، من شدة يأسه، على توقعه. أعتقد أنك من الصنف الأخير، وأنا أنتبه إليك الآن.

- أشكرك!
- وأنتبه إلى دميتك أيضـًا.
- ليست دميتي، دمية رايا.
- رايا؟!
- امرأة متزوجة أحبها سافرت منذ أسبوع تقريبـًا إلى باكو.
- هل لكمك زوجها على عينك فأصبحت زرقاء؟
- لا، عيني زرقاء بسبب امرأة أخرى اسمها ناتاليا سهرتُ معها ليلة البارحة.
- ضربتك؟
- صديق ماشا السابق ضربني.
- من هي ماشا؟!
- صديقة ناتاليا.
- هل كانت معكما؟
- نعم، وصديقي سالم كان معنا أيضـًا.
- سوف أتركك بعد قليل لكي أذهب إلى بيت جدتي، وأريد أن أقول لك إنك ودمية حبيبتك رايا قد أعجبتماني كثيراً.. هل أستطيع أن أحملها قليلاً قبل أن أذهب؟
- طبعـًا.
- أرى أنها دمية جميلة وذكية.
- أشكرك على لطفك، هي كذلك حقـًا.. هل أستطيع مرافقتكِ إلى بيت جدتك؟
- تستطيع مرافقتي إلى محطة القطار الكهربائي فقط.

- جيد.. عندما تكونين مستعدة قولي لي!
- إذا شئتَ يمكننا أن نتحرك الآن.. هيا، إحملْ من فضلك كيس الفراولة هذا واسمح لي أن أُبقِي الدمية معي حتى نصل إلى محطة القطار.

توجهنا، نحو محطة مترو بوشكينسكيا القريبة. وكان علينا، تبعًا لإرشاداتها، أن نغير الخطّ بعد محطتين، ثم نقطع ثلاث محطات، بالخط الجديد، لنصل إلى محطة كومسومولسكيا، بعد ذلك نخرج من المترو ونقطع جادة عريضة باتجاه محطة القطار الكهربائي. لم نتبادل كلمة واحدة طيلة تلك المسافة. كانت أحيانًا تنظر إلى الدمية، وأحيانًا تضمّها إليها برفق، وهي تنظر إلي أو إلى شخص آخر واقف ورائي أو إلى نفسها في زجاج باب عربة المترو أو إلى جروٍ يمدّ رأسه من محفظة بين يدَيّ سيدة في الشارع أو إلى نافذة مغلقة في أحد الطوابق أو إلى إشارة مرور أو إلى كرة صغيرة متوقفة إلى جانب عمود كهرباء أو إلى عشب قصير نما بين بلاطات الرصيف. لم أكن أنتظر منها، طوال تلك المدّة، أن تحدّثني بشيء، ولا كان عندي ما أحدّثها به. كانت ذاهبة إلى بيت جدتها ببساطة وكنت أرافقها إلى محطة القطار الكهربائي لا أكثر. وكان ذلك، لسبب لم أفهمه، شيئًا مهمًا بالنسبة لي، وربما بالنسبة لها أيضًا. ولعل الناظر إلينا ما كان ليظنّنا سوى شخصين متجاورين لا يعرف أحدهما الآخر. وقد كنا كذلك حقًا لولا صمتنا المشترك الهنيء الخفيف الذي كان يمكن لكلمة واحدة، مهما كانت لطيفة، أن تثقل عليه. كأننا كنا، معًا، حريصين على صفاء صمتنا أطول مدّة ممكنة. وقد كنت أخشى، وربما كانت تخشى هي أيضًا، منذ تحركنا من ساحة بوشكين، أن نصل إلى محطة القطار

الكهربائي بأسرع مما ينبغي. ولعل خطواتنا كانت تتباطأ باطّراد، وتبدو، في الوقت نفسه، كما لو أنها ما تزال سريعة جداً. وإذ التفتُّ، عَرَضَـاً، إلى محطة كازان القريبة، فيما كنا نقطع الجادة العريضة باتجاه محطة القطار الكهربائي، لَفَتَني في أعاليها ما يشبه إفريزاً من ثمار فراولة ضخمة محفورة بالحجر ومصطفّة على شكل شريط طويل يكلّل رؤوس جدرانها كلها. وكنت، قبل ذلك اليوم، قد زرت تلك المنطقة من موسكو غير مرةٍ، ولا بدّ أنني قد نظرتُ، في كلّ مرةٍ، إلى محطة كازان من بعيد. غير أنني لم أذكر أنني لمحتُ شيئاً من قبيل الفراولة المحفورة، أمام عينيّ الآن، على جدرانها العالية. ظننتُ أنني أتخيّلها، وأنا ما أزال أقطع الجادة العريضة إلى جانب رايا، وأن أحداً غيري لا يراها على الأغلب. وفي واقع الأمر لم أكن مهتماً أبداً بما إذا كان شريط الفراولة المحفور على جدران المحطة موجوداً حقاً في الواقع، فقد كان يكفيني ويمتعني كثيراً وجوده في أعالي محطة كازان الخاصة بي في عينيّ وفي أعماق نفسي. ثم اعتقدتُ أنني، إذا شئتُ، أستطيع أن أرى ثمار فراولة أخرى محفورة في أمكنة كثيرة أيضاً قبل أن نصل إلى محطة جدّتها. ثم أصبح يداخلني سرور عذب من أنني صرتُ أرعى، وأنا أمشي بمحاذاتها، خيطاً خفياً، لا يشعر به أحد سواي، يربط اللذّة التي كانت تمضغ بها حبّات الفراولة في ساحة بوشكين بشريط الفراولة الحجريّ الذي يزيّن الآن جدران محطة كازان وبإحساسي المثير المستمرّ بكيس الفراولة الذي كنت أحمله، من أجلها، براحة يدي.

وكان لابدّ في نهاية الأمر من الوصول إلى محطة القطار الكهربائي بغض النظر عن رغبتي، ورغبتها ربما، باجتياز المزيد من محطات المترو ومشي المزيد من الأرصفة وقطع المزيد من الشوارع والجادّات معاً قبل أن

نصل. رافقتها إلى مكتب قطع التذاكر، ثم إلى رصيف القطار الذي سيأخذها إلى بيت جدتها. انتظرت معها الدقائق الستّ المتبقية على مغادرة القطار. وفي الدقيقة الأخيرة فقط صعدتْ، مع دمية رايا، بخفّة لافتة إلى مقطورتها وغابت فيها. وبعد ثوانٍ معدودات ظهرت من جديد من إحدى النوافذ. مدّت رأسها وكتفيها إلى الخارج، ثم أخرجت يدها التي كانت ما تزال تحمل الدمية. أعادتها إلي، فوضعتها في حقيبة يدي. وحين أعدت إليها كيس الفراولة مدّت يدها إلى داخله والتقطتْ حبّةً قدّمتْها لي.

- هذه لك!
- أشكرك!
- هل ستأتي مع الدمية إذا دعوتكما إلى بيت جدتي؟
- طبعاً سنأتي.
- اليوم هو الثلاثاء أليس كذلك؟
- الثلاثاء.
- هل يلائمكما يوم السبت؟
- يلائمنا.

ثم تحرك القطار ببطء، فرافقتُ نافذتها بخطىً مفتوحةٍ متسارعة.

- أنتظركما هنا إذاً على هذا الرصيف في الساعة الخامسة من مساء السبت.

قالت، وهي تلوّح لي بيدها. ثم سألتني في اللحظة الأخيرة عن اسمي.

هتفتُ باسمي وأنا أحاول عبثاً اللحاق بنافذتها المبتعدة، فعاجلتني، هي الأخرى، باسمها بصوتٍ ارتفع فوق ضجيج القطار.

- إسمي نوووونّاااااااااا..

زوج رايا

I

بعد مرور يومين فقط على مكالمتي مع رايا بدا لي أن شيئًا مُقلقًا جداً قد استجدّ معها في باكو. فقد استلمتُ برقية جديدة منها أعادت إليّ فوراً هواجسي المحبِطة التي عانيتُ منها حين انقضّ أبدول، مع مواطنيه الأذريين، على باب الشقة عشية إرغامها على العودة إلى أذربيجان. لقد أخبرتْني، بكلمات باردة وقليلة، أن زوجها يريد مقابلتي، وأنهما سيصلان معًا إلى موسكو حوالي الساعة الواحدة من بعد ظهر يوم غدٍ- الجمعة. ثم أنهت برقيتها بجملةٍ، توقفتُ عندها طويلاً جداً، مفادها أنها تأمل بأن أكون مستعداً بشكل جيد لاستقبالهما في الساعة السادسة من مساء اليوم نفسه في غرفتي.

لم أستطع طبعًا، برغم ثقتي الكبيرة برايا، أن أستنتج شيئًا مُطَمْئِنًا واحداً من أن يطلب رجلٌ لقاءَ رجلٍ آخر لا يعرفه، لكنه يعرف تمام المعرفة أنه يرتبط بعلاقة حب مع زوجته. وقد زاد كثيراً من قلقي أنني لم أستوعب بالضبط ما عَنَتْهُ رايا من أملها في أن أكون **مستعداً بشكلٍ جيد** لاستقبالهما. أقصد أنني لم أتوصّل إلى تحديد الأشياء الضرورية التي كان ينبغي عليّ أن أحتاط بها لكي أكون مستعداً بشكلٍ جيد لاستقبالها مع زوجها في غرفتي. كان بوسعي طبعًا أن أذهب إلى صديقتها أنّوش وأطلب إليها أن تستوضح منها، باتصالٍ من تلفونها المنزليّ، عن المعنى

الحرفي المباشر لاستعدادي الجيد الذي أشارت إليه وكذلك عن المستجدّات المريبة التي جعلتها توصيني بهذا النوع العاجل المريب من الاستعداد. ثم ما لبثتُ أن خشيتُ، إن ذهبتُ إلى أنّوش، أن تعتبر رايا عَرْضَ برقيتها على طرف ثالث، ولو كان صديقتها، نوعاً من سوء الأمانة، فلم أذهب. ظللت أمحّص وأحمّص، وحدي، المعاني المحتملة، المتكاثرة بين يديّ ساعة بعد ساعة، لاستعدادي الجيد الأمثل المنشود. حاولت في البداية أن أعتمد على حسن النية، قدر الإمكان، في تحديد المعنى الذي قصدته رايا، فرأيت، بعد تفكيرٍ إيجابيّ عميق، أن أستعدّ بشكلٍ جيد بالتفاح والموز والمشمش المجفف والزبيب والمكسّرات، بالإضافة طبعاً إلى القهوة، أو الشاي إذا كان زوجها من هواة شربه في المساء. ولا بأس أيضاً من بعض البسكويت والشوكولا بما أنني لا أحبّذ المربيات الجاهزة. وإذا أردت، فوق ذلك، أن أبيّض وجهها أمام زوجها فمن الوارد جداً أن أستعدّ أيضاً بقالب كيك فاخر. إلا أنني استبعدتُ تماماً أن أضع على الطاولة أيّ صنف من صنوف المشروبات الروحية نظراً للحماوة العالية نسبياً التي يمكن أن يتّسم بها لقاؤنا المعقّد على الأغلب، فلم يكن ثمة ضرورة لتأجيجه بالكحول. إن أحداً لا يضمن، بعد الكأس الثانية أو الثالثة، أن لا يخرج الجميع عن أطوارهم دون أن يقصدوا، فيخسروا أشياء ثمينة لا تعوّض كان عليهم الحفاظ عليها بأي وسيلة. ومن باب الإرادة الطيبة واحترام ثقافة الآخر وجدتُ من المناسب أيضاً أن أشغّل على البيك آب، قبل وصولهما بلحظات، الإسطوانةَ التي أهدتني إياها رايا قبل أيام من لجوئها إلى غرفتي، وهي لمطرب شهير مختصّ بالمقامات الأذريّة القديمة.

كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة من ذلك المساء حين بدا لي هذا التصوّر عن استعدادي الجيد مقبولاً ومتاحـًا. وما أعجبني فيه بصورة خاصة هو أنه حسّن كثيراً من ظنّوني السيئة الأولى حول اللقاء المنتظر إلى درجة أنني تصوّرت زوج رايا مجرّد ضيف أذري وديع. وقد كان عليّ، لكي أبعد شكوكي المعتادة عن هذا التصوّر الغضّ، أن أتوقف حالاً عن أيّ تمحيصٍ جديد لأي احتمالات مرتجلة أخرى. ومن أجل ذلك قررتُ أن أشغل نفسي بعمل مجهد وممتع يستهلك وقتي بسلام حتى موعد نومي في تلك الليلة، فتذكّرت درّاجتي الهوائية. أنزلتها، دون إبطاء، إلى الشارع وباشرت بقيادتها.

ظننتُ فترةً طويلةً، وأنا أحلّق ببطء على سرج درّاجتي، أنني أتنفس هواء منعشـًا وأتفرّج، خالي البال، على أرتال أشجارٍ عالية تمرّ بي وعابرين قليلين على أرصفة شوارع عريضة يندر فيها ضجيجُ السيارات والباصات وعربات الترام. ثم وجدتني أصدّق، إلى حدّ كبير، إحساسي بالمتعة التي وفرتْها لي درّاجتي إلى درجة أنني بدأت أدندن، بصوتٍ جرشٍ شبه مسموع، مقطعـًا أحبه كثيراً من أغنية للشيخ بكري الكردي. وما كنتُ لأتوقع عندئذٍ أن مزاجي الجيد، الذي حققته أخيراً بصعوبة، سوف يتكدّر بشيءٍ من الأشياء لولا دولاب درّاجتي الذي فرغ فجأةً من الهواء وصار يمشي على الجنط. قطعتُ دندنتي فوراً ونزلت من على السرج وعرفت أن الدولاب مثقوب. ثم حاولت قدر الإمكان، وأنا أمشي إلى جانب الدراجة في طريق العودة إلى البيت، أن أتعامل مع فشل نزهتي كشيءٍ كان يمكن أن يحدث أيضـًا قبل برقية رايا الأخيرة. ومن ثم لم أعتبره فألاً سيّئـًا لما سيحدث في مساء يوم الجمعة على سبيل المثال. لقد

كـان مـن الصـعب فعـلاً، بـل مـن المسـتحيل تقريبـاً، أن يـربط المـرء بـين دولاب دراجته المثقوب وبين الأحداث التي يمكن أن تحدث معه، أو مع غيره من البشر، في أيّ يوم من أيام الأسبوع. ثم خيّل لي أن إيماني بهذه القناعة البسيطة راسخٌ إلى درجة كافية بدليل أنه لم يتأثر، تقريباً، بمطر صيفيّ مباغت غزير صار يهطل فوقي وفوق دراجتي مدةً طويلةً قبل أن نصل إلى باب البناية التي أسكن فيها. وبرغم أنني ما فضّلتُ قط أن أمشي برأس مبلل وثياب يزرب منها الماء، إلا أنني تمكّنتُ، وأنا أطوي دراجتي وأدخل بها إلى المصعد، من أن أعتبر المطر الذي أغرقني شيئاً موضوعياً مستقلاً أيضاً عن برقية رايا تماماً كدولابي المثقوب.

في كوريدور الطابق الرابع عشر، وأنا أتجه إلى الشقة حاملاً دراجتي، لمحت جاري ساشا خارجاً منها. ولسببٍ ما قدّرتُ، ربما من طريقته بالمشي، أن أبدول قد وضعه بصورة ما جدّ من الأخبار في باكو. حاولتُ، تلقائياً، أن أوحي إليه بكل طاقتي بأن المعلومات الطازجة التي نَمَتْ إليه لم يُحطني علماً بها أحدٌ بعدُ، وأن نزهتي الفاشلة، بكل الماء الذي يراه يزرب مني ومن دراجتي المعطوبة، كان يمكن أن تفشل معه أيضاً في التوقيت نفسه.

رَكَنْتُ دراجتي في مكانها في الموزّع بعد دخولي الشقة. ثم أخذت دوشاً حاراً سريعاً وجلستُ، ببرنسي، إلى طاولتي. بدوت كما لو أنني لا أشعر بغير الراحة التامّة بعد حمامي وأنني، إلى ذلك، أستطيع أن أخرج إلى الموزّع لأعمل لنفسي صندويشة جبنة مع كوب من الشاي. لم أتحرك من مكاني، فقد شغلني مسندُ كرسي الخيزران الذي كنت أجلس عليه- لم يكن، برأيي في تلك اللحظة، يسند ظهري بشكل جيد. ثم

سرعان ما غاب عن ذهني إذ لم أكن متأكّداً من أنه كان في السابق يسند ظهري بشكلٍ أفضل. وكان المنبّه، في هذه الأثناء، يتكتك فوق الكومودينو المجاور للسرير بصوت أوضح من المعتاد، ويشير، بحيادٍ معدنيٍّ مونوتونيٍّ بارد، إلى الساعة التاسعة والنصف تقريباً. شعرت بما يشبه خيبة صغيرة جداً لم أسمح لها، طبعاً، بأن تؤثر على شعوري العنيد بالراحة التامة التي خرجتُ بها من الحمّام. كأنني تمنيتُ، مجرد أمنية لا أهمية كبيرة لها، لو كان المنبّه يشير الآن إلى الساعة الحادية عشرة والنصف على الأقل. إلا أنني لم أتردّد باستحسان فكرة النوم باكراً برغم أنني لا أنام عادة قبل منتصف الليل. ما أردت، كأنما، أن تتراكم لديّ خيبات صغيرة جداً، لا أهمية لها أيضاً، قد أصادفها هنا أو هناك في الغرفة أو في ما يمكن أن يخطر برأسي من أفكار متسرّعة غير متوقعة وغير مسؤولة. نهضت من على الكرسي واتجهتُ إلى الخزانة بحذر ملحوظ إلى حدٍّ جعلني أظنّ أنني مشيتُ على رؤوس أصابعي- كأنني كنتُ أداري شيئاً هامّاً شديد الهشاشة قد ينهار في نفسي في أيّ لحظة. أخرجت بيجامتي ولبستها بالحذر نفسه. ثم أطفأت النور ودسست نفسي في سريري مثل رجلٍ يأوي إلى فراشه في موعد نومه المعتاد. أغمضت عينيّ، فاشتدّ الظلام والسكون من حولي. شعرتُ فجأةً بحاجة ماسّةٍ إلى شيءٍ آمنٍ ومحبّبٍ إلى قلبي يأخذني من يدي، في طريقي الدامس الطويل، إلى النعاس. تذكّرتُ كلباً مالطيّاً صغير الحجم أصادفه عادة في مصعد البناية حين يتوقف في الطابق الخامس. دائماً كان هذا الكلب يبعث في نفسي رغبة شديدة، ما حققتُها يوماً، في أن أضمه إلى صدري بقوة وأصعد به إلى غرفتي. كان ينظر إلي بطريقة أشعر معها بأنه لا يفكّر بأحدٍ أو بشيءٍ

سواي وأنه لم يُبدِ رغبتَهُ بالخروج من المنزل، للمرأة التي ترافقه دائماً، إلا لكي يصادفني في المصعد. كان يجعلني، بعينيه السوداوين السعيدتين بي، أشعر بأنني جدير بما يغدقه عليّ، من المحبّة الصافية والانتباه الخالص والهرتمات الرقيقة الخافتة، طوال الوقت القصير الذي نترافق فيه من الطابق الخامس إلى الطابق الأرضيّ أو العكس. وقد ظلّ الآن، بعينيه الأمينتين الأموميّتين الساهرتين عليّ في ظلام غرفتي، يقودني بحنكةِ دليلٍ مُحِبٍّ عارفٍ بأقصر الطرق وأسلسها إلى النوم العميق حتى أسلمني إليه أخيراً بسلام.

II

في الصباح مددت يدي إلى المنبه وأوقفتُ رنينه. لم أنهض مباشرةً كما أفعل عادةً في مثل هذا الوقت. ظللتُ ممدّداً في السرير أنظر إلى باب الغرفة غير المقفول وأستعيد على مهلي، بعد ساعات كافية من النوم، ما حدث معي منذ استلامي برقية رايا في مساء البارحة. أول ما لفت نظري كان مبالغتي، التي لا تُصدَّق في الواقع، بالاعتماد على حسْن النية في فهم الاستعداد الجيد الذي أشارت إليه رايا في برقيتها. لقد كان واضحاً لي الآن أنني حوّلتُ، دون مسوّغات متينة جداً، اللقاءَ الذي سيجري بيني وبين زوجها في مساء اليوم، من لقاءٍ يملك من الموجبات ما يكفي لأن يكون لقاءً عاصفاً إلى مجرّد سهرة عائلية يشوبها بعض الخلافات الطفيفة التي يمكن تجاوزها بقليل من التبصّر وطول البال. غير أنني، من ناحية ثانية، اعترفتُ لنفسي بأن تلك المبالغة، برغم ركاكتها وافتقارها الشديد إلى الواقعية الشائعة، كانت وستظلّ أقرب إلى حقيقتي وطبعي وقدراتي وطريقتي بالحياة من أي تصوّر آخر عن لقائي بزوج رايا. وإذا كنت سأتمسّك بها، وسوف أتمسّك بها على الأغلب، فلأن أيّ تصور واقعيّ عاصف عمّا سيحدث في غرفتي في المساء سوف يُظهرني حتماً أشدّ خراقةً وأقل قدرةً على الإقناع. لن أكون شخصاً غيري، قلتُ، وقد بدا لي الآن بوضوح حاسمٍ ومُقْلِق أنني، برغم كل شيء، لن أستعدّ اليوم بغير

الفواكـه الطازجـة والمجففـة والمكسـرات والكيـك والشـوكولا التـي توصلتُ إليها في مساء البارحة. ثم قررتُ، وأنا أنهض أخيراً من سريري، أنني لن أذهب اليوم إلى عملي. يجب أن أحتاط بما يكفي من الوقت لكي أتمكّن من **الاستعداد بشكل جيد** قبل بلوغ الساعة السادسة مساءً، فكّرتُ. لم يكن ينقصني طبعـًا، فوق ما أنا عليه من القلق وعدم اليقين، أن أرتكب خطأً، ولو صغيراً جداً، بسبب ضيق الوقت.

بعـد حلاقتـي ذقنـي شـعرت بـالجوع، ففكّـرتُ بكـوب مـن الشـاي وصحن لبنة صغير وسريع مع زيت الزيتون ورشّة من النعناع اليابس. ثـم رأيتني، كمـا لـو دون إرادتي، أنهمـك، دون تعجّـل، في إعـداد وجبـة فطـور مؤلَّفة، على غير العادة، من أطباق صغيرة كثيـرة متنوعـة مـن كـلّ مـا يتـوفّر لديّ في البرّاد. جبنة، لبنة، زبدة، بيض، مرتـديلا، بقايـا مـن مربـى الفراولـة الذي صنعتْه ذات يوم سـارا زوجـة أبـدول وأهـدتني منـه مرطبانـًا صغيراً، سلطة بنـدورة وخيـار بالإضـافة إلـى كـأس كبيـرة مـن الشـاي. وكمـا لـو أن شيئـًا ملحّـًا آخر كان لا يشغلني ولا ينتظرني أبداً أكلت ببطء شديد وشـهيّة عالية كما لا أذكر أنني فعلت في أيّ صباح سابق.

ظننتُ، بعد انتهائي من فطوري، أن الدقيقة التي تمضـي بـبطء أطـول بكثير من الدقيقة التي تمضـي بسـرعة. ثـم اعتقـدت، وأنـا أنهـض مـن وراء طاولة الطعام، أن البطء يقاوم لامبـالاة الوقـت في تقدّمـه الجليـديّ الـدقيق ويجعلـه أكثـر دفئـًا. بـالثواني الإضـافية المتخيَّلـة التي يضـيفها الـبطءُ إلـى الدقائق عند الحاجة إليها، وبالدقائق الإضافية المتخيَّلة التي يضـيفها إلـى السـاعات، يصـبح الوقـت أكثـر رفقـًا بمشـاعرك. وحـده، الـبطء الـرحيم، يجعل المسافة طويلـة جـداً بينـك وبـين مـا سـوف يواجهـك مـن المشـاكل

المحتملة بعد دقيقة أو بعد ساعة أو بعد يوم، تابعتُ ظنوني. ثم نهضتُ وغسلتُ الأطباق ببطءٍ شديد، ورتّبت الغرفة ببطءٍ شديد. وببطءٍ شديدٍ وقفت أمام الخزانة لأختار الثياب التي سأرتديها في المساء. نادراً جداً ما كنت أرتدي بذلة رسمية، لكنّ خياري وقع، بعد تفكير مشتّت طويل، على بذلة صيفية رسمية سكّريّة اللون وقميص بيج فاتح. ثم تحيّرت بين ربطة عنق بنّية داكنة وأخرى بيضاء قبل أن أتخيّل ربطة عنق ثالثة، لم أكن أملكها، بلون ذهبيّ كامد بدت لي أكثر ملائمة من كليهما. "سأشتريها اليوم" قلتُ بصوتٍ مسموع. ثم أخرجتُ بنطلون جينز سوري وقميص بوبلين أبيض ارتديتهما، على هينتي، وخرجت من البيت بإحساسِ رجلٍ مضطرٍّ إلى السفر، لكنه يتمنى من كلّ قلبه لو يفوته القطار.

من أول كابين هاتف للعموم صادفته في الشارع اتصلت بالجريدة وأبلغتهم بأنني لن أداوم اليوم لأسباب طارئة. ثم تابعت طريقي إلى رأس الشارع. وقفتُ هناك على موقف الباص الذي جاء بعد دقائق قليلة فقط، فلم أصعد إليه. فوتُّ الباصين التاليين أيضاً. ركبت في الباص الرابع لا لشيء إلا لأنني اكتشفت رجلاً يطلَ عليّ من نافذة في البناية المقابلة خيّل لي أنه لاحظ أنني أقف على الموقف ولا أصعد إلى أيّ باص. نزلت، بعد محطتين، أمام سوق التعاونيات الزراعية. ظللت فترة طويلة أتجول بين بسطات باعة الخضار والفواكه والألبان واللحوم دون أن أشتري شيئاً. ثم وقفت أمام صفّ طويل من باعة العسل الذين يغمسون قطعاً صغيرة من ورق الزبدة بصنوف مختلفة من العسل ويقدمونها للمتريّثين أمام مرطباناتهم المفتوحة لكي يتذوقوها. أعجبني كثيراً عسل الزيزفون، بطعمه الفريد ورائحته العطرة وقوامه السميك ولونه الأصفر

الفاتح، وتوقعت أن يعجب رايا وزوجها أيضاً، فاشتريت منه مرطباناً صغيراً. سوف أنصحهما بتذوّقه وألحّ على ذلك، قلتُ. ولو كان عندي طحينة سورية لكنت سأمزجه معها ثم أدهن المزيج على شطائر من الخبز وأقدمه لهما مع الشاي. وقد أطلي الشطائر قبل ذلك بطبقة رقيقة من الزبدة البقرية لتصبح ألذّ وأَمْرَأَ. لا داعي لشراء مزيدٍ من الزبدة، فما تزال في البراد كمية كافية منها، قررتُ. ثم لفتت نظري مِتْلةٌ مدخّنة لعجل صغير تصلح كمقبلات باردة مع المشروبات القوية كالفودكا أو الكونياك. تردّدت بشرائها في البداية، بسبب قراري المسبق بتجنب المشروبات الكحولية هذا المساء. ثم قررت شراءها مع ذلك- قدّرتُ أن الوقت قد لا يسمح لرايا وزوجها أن يتناولا شيئاً بعد وصولهما من باكو، وسوف يكون من المناسب جداً أن يُسْكِتا جوعهما، عندي، بشرائح من متلة العجل مع بكرات خيار مقشر وأوراق نعناع أخضر أو عروق بقدونس فوق شطائر خبزٍ أو بدونها. ثم خطرت ببالي شطائر الكافيار مع الزبدة أيضاً وأنصاف البيض المسلوق واعتقدتُ أنها ستكون ملائمة، هي الأخرى، لمسافرَيْن جائعَيْن، غير أن استحالة العثور على علبة كافيار، في مخازن الأغذية في تلك الأيام، جعلتني أعدل عن الفكرة. زد على ذلك أن باكو موطن الكافيار ولا أظن أن مطبخاً أذرياً واحداً يخلو منه، ومن المحتمل جداً أن لا تقترب رايا وزوجها من شطائره لو عثرتُ عليه بعد طول عناء. ولعلّهما سيفضلان عليه شطائر المرتديلا مع جبن القشقوان، قدّرتُ. ثم اعتقدتُ، أن في البراد ما يكفي أيضاً من المرتديلا وجبن القشقوان. تقدّمتُ، بعد ذلك، من بسطة فواكه لأشتري كرزاً ريحاوياً كما نسميه في الرقة وحلب وإدلب، ثم تذكرت مربى الكرز الذي تصنعه أمي

من كرز الوشنة، فلم أشترِ الكرز الريحاوي. سألت البائع عن كرز الوشنة، فقال لي نادراً ما تراه في سوقنا. تركته، وصرت أبحث بين بسطات الباعة عن كرز الوشنة. سوف أحدّث رايا وزوجها في المساء عن كرز الوشنة الذي تطبخه أمي أيضاً مع كرات اللحم المفروم والصنوبر المحمّص والبقدونس والسكّر والقرفة والفلفل الأبيض. وحين لم أجد كرز الوشنة شعرتُ ببعض الضيق، لكنني تابعت تجوالي في السوق حتى نال مني التعب وأدركت أن ثمة أشياء ضرورية كثيرة لابدّ من التزود بها، في كل الأحوال، قبل أن أعود إلى البيت. اشتريت أنواعاً مختلفة من الفواكه والخضار والمكسّرات والحشائش، وأصبحت أحمل كيسين بلاستيكيين محشوّين بالأغراض خلال وقت قصير. ثم صادفت كشك زهور في طريقي إلى باب الخروج، وخشيت أن لا أجد مثل جودتها في مكان آخر. اعتقدتُ أن باقة من التوليب الذهبي سوف تخفّف كثيراً على رايا من وطأة الوحشة الذكورية المضجرة التي سوف نشكلها، لابدّ، أنا وزوجها في الغرفة. ابتعت باقة كبيرة، وقد ذكرتني بربطة العنق الذهبية التي كان عليّ أن أشتريها أيضاً، مع قالب كيك مميّز، قبل الساعة السادسة. مدّدتُ باقة التوليب، برفق، فوق فم الكيس البلاستيكي الذي كنت أحمله بيدي اليمنى، ثم تابعت طريقي متثاقلاً حتى وصلتُ إلى موقف الباص. وضعت أحمالي كلها على الأرض وجلست على مقعدٍ تحت مظلّة الموقف. فوتّ عدة باصات قبل أن أنهض أخيراً بالكيسين البلاستيكيين من جديد وأقف بالقرب من حافة الرصيف في انتظار الباص القادم. وهنا حدث معي ما كنت قادراً، في ظرفٍ آخر، على اعتباره حدثاً عارضاً لا أهمية له، لكنه لم يكن كذلك أبداً بالنسبة لي في ذلك النهار:

اقترب مني رجل عجوز سكران ووقف على مسافة قريبة جداً مني. كان قصير القامة، شديد النحافة، بوجهٍ ممصوصٍ غير حليق منذ أيام، يترنّح في مكانه ويمنع نفسه من السقوط بصعوبة واضحة. ما أثار انتباهي من اللحظة الأولى أنه، برغم وقوفه المضطرب، كان يعبّر لي، بغضون وجهه وعينيه المحمرّتين، عن ازدراء صريح بي. ثم لاحظتُ أن في فمه كلمات غاضبةً أيضاً حاول، غير مرة، أن يلفظها في وجهي ولم تساعده ثمالة قواه في نطقها. ابتسمت له ابتسامة صغيرة ربما من باب الشفقة، وربما لكي أنقل إليه أنني لا آخذ احتقاره لي على محمل الجد. ثم بدا لي أن ابتسامتي الصغيرة قد بعثت في جسمه المترنح النحيل من القوة، وربما من الغلّ، ما كان كافياً لأن يتوازن في مكانه فجأةً، كما لو أنه قد تلقى مني الآن إهانةً جارحة.

- لن تُخطئكَ رصاصتي ذات يوم!

قال لي أخيراً، في الثواني القليلة المعدودة التي توقّف جسمه فيها عن الترنّح، وهو ينظر إليّ بعينين تحوّل فيهما الازدراء إلى حقدٍ غريب. ثم ما لبث أن انفجر بقهقهةٍ عاليةٍ أزالتْ تماماً ملامحه الحاقدة وأخلّتْ بتوازنه فأسقطتْه إلى جانبي على الرصيف. وضعت الكيسين البلاستيكيين على الأرض، ثم انحنيت فوقه وساعدته على النهوض من جديد، بينما ظل يضحك وهو ينظر إلي مستخفّاً كأنما بالهراء الذي قاله لي الآن كما لو أنه صدر عن شخص آخر لا يعرفه. وكان الباص قد وصل في هذه الأثناء، فسارعت إلى الصعود بكيسيّ البلاستيكيين، دون تلكّؤ، وتركته يتمايل وحده على حافة الرصيف.

في الباص ظلّ ما قاله لي العجوز السكران يتردد في نفسي بإلحاح غريب. كنت أعي تماماً طبعاً أن أيّ رصاصة في الدنيا لن تكون في متناول

يده ذات يوم، ناهيك عن المسدس الذي سيبادله فوراً، لو توفّر لديه، بثلاث زجاجات فودكا وسمكة مجففة. ومن ثم لن يتسنّى له أن يصيبني، أو يصيب غيري، برصاصته المستحيلة التي تخيّلها عندما كان يترنح إلى جانبي عند موقف الباص. ما شغلني كثيراً في واقع الأمر شيئآن. الأول هو أن ملامحه كانت تنمّ عن صدقٍ مؤثّر حين عبّر لي عن ازدرائه بي وحقده عليّ إلى درجة أنني اعتقدتُ أنه لو كان قادراً فعلاً على استخدام يده المرتعشة شديدة النحول في حمل مسدسٍ متخيَّلٍ ما وتصويبه عليّ ثم الضغط على زناده لفعل ذلك دون تردّد. أما الشيء الثاني فهو أن ملامحه نفسها كانت تنمّ عن الصدق المؤثّر نفسه حين انفجر بالضحك مستنكراً كأنما ما قاله لي ومستخفّاً به، وربما نادماً عليه. وقد حاولتُ، طيلة ركوبي الباص، أن لا أستسلم، ببساطة، للمَثَل الغريب الحيّ الذي ضربه، بنفسه، أمامي العجوز السكران. كنت لا أريد أن أصدّق، وربما بدأت أخاف، أن يكون في مقدور أيّ شخصٍ آخر، لهذا السبب أو ذاك، أن يقتل أو ينوي القتل بصدقٍ مؤثر أيضاً، ثم أن يضحك بعد ذلك مباشرةً مستنكراً فعلته أو نادماً عليها بالدرجة نفسها من الصدق المؤثر. لقد أرعبتني هذه السهولة العبثية بالانتقال الصادق من القتل إلى الضحك. حاولت أن أردّ هذا الانتقال غير المعقول إلى أقداح الفودكا التي كرعها العجوز قبل أن يظهر إلى جانبي على موقف الباص. لكنْ دون جدوى، فالفودكا، مثل أي عاملٍ خارجي، لا تزرع الميول في النفس إنما تؤثر على نموها وتساعد، إلى جانب أسبابٍ أخرى، في تظهيرها في لحظة معيّنة. ثم ما لبثتْ أن شغلتْني ملاحظةٌ أخرى، أكثر إيلاماً وعبثاً، وهي أن العداوة، التي تصل إلى درجة التفكير بالقتل أو الشروع به، لا تحتاج بالضرورة

إلى مضمونٍ تستند إليه، فقد تنشأ فجأةً من اللاشيء. كما لو كانت إرضاءاً غريزيـًا لطبيعة عمياء متخفّية تحت طبقات كثيرة من الضحك الحقيقي والندم الحقيقي والنبل الحقيقي والوفاء الحقيقيّ والصداقة الحقيقية ورهافة المشاعر الحقيقية. لم يكن بيني وبين العجوز مثلاً، قبل مصادفة لقائنا على موقف الباص، ما يستدعي ازدراءه بي وحقده عليّ وتفكيره بقتلي، فكّرتُ. ثم هالني أنني مرّرتُ في نفسي احتمالَ أن أكون ذات يوم في مكان العجوز. وقد بدا لي، في تلك اللحظة، أنني لا أملك، في حقيقة الأمر، ما يخوّلني لأن أكون أفضل منه، برغم كلّ ما أشعر به وأسعى إليه دائمـًا بكل قواي من الرغبة بالعيش بسلام مع الناس والحيوانات والأشياء من حولي. كأنني وجدتُني الآن، مثل أيّ شخص آخر في الدنيا، لا أضمن أن لا أنزلق، أنا أيضـًا، في لحظة مفاجئة إلى التفكير بالقتل أو بالشروع به، تمامـًا كما فعل العجوز، تحت تأثير أيّ سببٍ طارئٍ سخيف. ولعلّي كنت، طيلة حياتي، أتخفّى بمظهر رجل وديع مسالم لم يجد حتى الآن الفرصة السانحة لكي يتكشّف عن شخص آخر شرسٍ وخطير. ثم حزّ بي كثيراً أنني حاولتُ ولم أُفلح باستثناء نفسي من هذا الاحتمال الرهيب. كأنني اكتشفت، الآن فقط، استعداداً مُشيناً منزوياً في داخلي، مثل عجلٍ متحفّز كامن، غيرَ قابل للنقض أو التفنيد. ظللتُ كامداً، في مكاني في الباص، مثل محكوم بعارٍ لا فرار منه، وخائفـًا مما قد تدفعني إليه نفسي، الملغومة بعجل، في أي لحظة. ثم لاحظتُ، من وراء زجاج النافذة، أن الباص كان يمضي بي الآن في أماكن ليست قريبة أبداً من البناية التي أسكن فيها، فأدركت أن الموقف، الذي كان عليّ أن أنزل فيه عند مفرق شارع غالوشكين، قد فاتني منذ وقتٍ طويل.

نزلت من الباص، مع كيسيّ البلاستيكيين الثقيلين، في موقف لم أذكر أنني نزلت فيه من قبل. قطعت الشارع ووقفت على حافة الرصيف تحت مظلة الموقف المقابل لأعود أدراجي. وإذ وصل الباص بعد قليل صعدتُ إليه وجلست على مقعد قريب من باب النزول. كنت الآن بمزاج متوتّر شائك مختلف تماماً عن المزاج الفضفاض المشتت الذي خرجت به من البيت. حاولت، عبثاً، أن أطرد من رأسي أفكاري الجديدة العنيفة، وأنا أنتبه، عبر الزجاج، إلى توالي المواقف التي كنت قد تجاوزتها دون هدف، حتى توقف الباص عند مفرق غالوشكين من جديد، فنزلت.

قطعت الشارع مرةً أخرى إلى الرصيف المقابل، وبدأت أمشي بكيسيّ البلاستيكيين باتجاه البيت. لفت نظري، الآن، أنني لم أعد كأنما أشعر بالتعب الذي نال مني في سوق التعاونيات. وقد كنت قادراً على تجاوز هذه الملاحظة العابرة لولا تخوّف حقيقي بدأ يخامرني من أن يكون الرجل القوي الخطير المتخفّي بي قد قرّر أن يكشف عن نفسه في هذا اليوم العصيب بالذّات. لم أعد كأنما واثقاً جداً من أن مظهري الآن، وأنا عائد إلى البيت، ما يزال يوحي، كعادته، باحترام الآخرين وبالقدرة على مسايرتهم أيّاً كانوا ومهما فعلوا. ثم خشيتُ، بدافعٍ أكيدٍ من معلوماتي الجديدة المؤسفة عن نفسي المليئة بالمفاجآت، من أن أكون في هذه اللحظات قابلاً ببساطة لأن أسيء فهم أيّ إشارة أو كلمة أو حتى برطمة يمكن أن تبدر عن أي شخص أصادفه في الشارع. ولعلّي صرت أدقّق النظر بوجوه العابرين من حولي مترصّداً كأنما سبباً تافهاً لتفريغ شيء من القوة المتهوّرة التي حسبتُ أنني قد امتلكتها فعلاً بعد نزولي من الباص. حتى الكيسين البلاستيكيين المحشوّين بالأغراض ظننت فجأةً

أنهما أخفّ منهما عندما خرجتُ بهما من السوق، فرفعتهما فوراً إلى الأعلى لأتأكّد كأنما من ظنّي. ثم كانت مفاجأتي كبيرة فعلاً حين شعرت بأنهما كانا خفيفين إلى درجة مريبة حقًا. وكانت باقة التوليب قد سقطت إلى الأرض في هذه الأثناء، فأنزلت الكيسين والتقطتها في الحال. شردتُ، ربما لِلَحظات، بأصفر التوليب الذهبي المُشرَّب بحمرةٍ خفيفة عند أصول بتلاته، وقد تراءى لي واضحًا، بين صور سريعة وانطباعات مشوّشة وأحداث متداخلة في ذهني، وجهُ رايا المغسول بالمطر الغزير الذي بلّلنا معًا في غابة البتولا ذات يوم. استعدتُ، كأنما بوجه رايا المبلّل وآثار كحلتها الممحوّة بالمطر، شيئًا من صورتي الاعتيادية السابقة التي خسرتُ كأنما كثيراً منها في الباص. ثم ما لبثتُ أن خسرتُ ما استعدته منها من جديد حين خطر ببالي زوج رايا مثل سهمٍ مسمومٍ يتّجه نحوي وسوف يصل إليّ حتمًا في الساعة السادسة من مساء هذا اليوم. أعدتُ باقة التوليب الذهبي إلى مكانها بحيرةٍ ظاهرة. ثم حملت الكيسين البلاستيكيين وتابعتُ طريقي بخطى رجلٍ فظّ متردّد لا يشبهني كثيراً. انعطفتُ في ممشى حجري ضيق يخترق العشب باتجاه باب البناية التي أسكن فيها، وتذكّرتُ أنني في الشتاء الماضي سقطتُ على ظهري فوق الجليد الزلق الذي كان يغطي هذا الممشى. وقد كنت سعيداً آنذاك حين أدركتُ، وأنا أنهض، أنني لم أُصَب بكسر كان سيقعدني في البيت مدّةً طويلة. تريّثتُ الآن، لِثوانٍ معدودة، فوق المكان الذي سقطت فيه، وأنا أستحضر إحساسي باللحظات القليلة التي غمرتني بالسعادة هنا قبل عام. ثم ساعدتني الألفة التي لطالما خبرتُها دون أن أعيها، في باب البناية وفي صناديق البريد المصفوفة على جانبي مدخلها وفي وجوه من صادفتهم من

قاطنيها وفي لوحة إعلاناتها وفي مقعديين خشبيين لم أعرف قطّ الغايةَ من وجودهما دائماً بالقرب من أحد الأعمدة في بهوها وفي الصريف المعدني الذي يحدثه مصعدها عادةً عند فتح بابه وإغلاقه، ساعدتني هذه الألفة في تخفيف إحساسي بالعِجل المُتَمَلْمِل في داخلي. وكما لو أنني الآن قد فقدت فعلاً الكثير من القوة المتهوّرة التي تملّكتني قبل قليل، تمكّنتُ، بفضل الألفة نفسها، من أن أبتسم في مرآة المصعد من فكرة أن يصعد، بدلاً مني، عجلٌ هائج إلى غرفته في الطابق الرابع عشر. لم يكن أمامي في المرآة سواي كما عرفتُني دائماً تقريباً، وقد منحني ذلك بعض سرور خجول. ثم أكّد شعوري بضعفي الطبيعيّ المألوف، حين خرجت من المصعد، وقعُ خطواتي المعهود في كوريدور طابقي الطويل ونوعُ الصرير الذي تصدره، عادةً، ألواح الخشب المتراصّة في الأرضية تحت وطء قدميّ وكذلك الجدرانُ الباهتة، التي أحفظها عن ظهر قلب، وأبوابُ الشقق المتتالية وأسماءُ أصحابها المكتوبة إلى جانب كبسات الأجراس على الجانبين، والمصابيحُ الصغيرة المتكرّرة، بانتظام ممل، على طول السقف الضيق حتى آخر الكوريدور. ثم كان دخولي إلى شقتي مؤثّراً جداً على غير العادة، فقد انتبهت، كأنما لأول مرة، إلى الطمأنينة الأهليّة التي أحاطتني بها الأشياءُ التي تشغل الموزّع. وضعت الكيسين البلاستيكيين، الثقيلين الآن، قرب دراجتي الهوائية المعطوبة، ثم غسلت يديّ ووجهي في الحمام ودخلت إلى غرفتي.

كنت الآن أقرب ما أكون إلى إحساسي بي عندما استيقظت في الصباح. كان كل شيء من حولي يذكّرني بخصالي وعاداتي التي ما عرفت غيرها قبل اليوم- السرير، الديوانة، المقاعد، خزانة الثياب، الستارة،

النافذة، برج موسكو، طاولة الطعام، طاولة الكتابة، كرسي الخيزران، رفوف الكتب، جهاز الراديو، ميزان الحرارة، المنبّه، البيك آب، الأسطوانات، وأشياء أخرى لا تحصى من الأشكال المختلفة التي تشاركني غرفتي. كانت، كلها، تقف الآن إلى جانبي، تساعدني في لجم العجل الذي نبشه الرجل السكران في داخلي، وفي إعادته إلى حظيرته في أعماق نفسي المشينة ثم في طمْرِهِ هناك بكلّ الكتب التي قرأتها وبكلّ الأغانيّ التي سمعتها وبكلّ حفلات الأوركسترا التي حضرتها وبكلّ المسرحيات والأفلام التي شاهدتها وبكلّ اللوحات التي سحرتني في الإرميتاج والمتحف الروسي ومتحف تريتيكوف ومتحف بوشكين للفنون الجميلة.

جلست إلى طاولة كتابتي أخيراً. وكان عليّ الآن أن أفكّر، بأقصى سرعة ممكنة، بضماناتٍ أمينة محدّدة تمنعني من الانزلاق، مرة أخرى، إلى هواجسي العنيفة التي تأكّدتُ من وجودها هذا الصباح. كان من العبث طبعًا، بعد الذي حصل معي، أن أفكّر باقتلاع هذه الهواجس من نفسي اقتلاعاً نهائياً وإلى الأبد. فما كان مطلوباً مني، كرجل ما قصد يوماً إلى أن يؤذي أحداً، أن أعرف، على الأقل، كيف أتعامل مع الآخرين، بأقل الخسائر الممكنة، حين يتململ في نفسي عجلي المطمور. صحيح أنني لا أملك أيّ خبرة واقعية في الصراع المفتوح المباشر مع الآخرين، لكنني، مع هواجسي البشعة المكتشفة حديثًا، لم أعد أضمن أن لا ألجأ، في اللحظة الحاسمة، إلى أرخص الحِيَل وأشدّها نذالةً للإيقاع بخصمي. لقد كان عليّ ببساطة أن أعرف كيف أتحكّم، عند الضرورة، باستعداداتي المُشينة الغاوية لا أن أستسلم لها. ولكيّ أفعل ذلك رأيت أن

أبـذل، اعتبـاراً مـن تلـك اللحظـة وصـاعداً، كـل مـا بوسـعي مـن الجهـد والحرص والانتباه كي لا أعبث، أو يعبث أحد غيري، بأيّ عشّ زنابيرٍ أصادفه في حياتي. إن عليّ ببساطة أن أتجنّب كلّ ما يمكن أن يوصلني إلى شِدّةٍ مباغتةٍ تفقدني صوابي. بحواسّي الست وبخبرتي الطويلة في قراءة الوجوه والإشارات والأصوات وأدقّ حركات الجسد، عليّ أن أكون مستعداً في أيّ لحظة لأن ألتقط العلامات الواهية الأولى لأيّ خلافٍ محتملٍ، بيني وبين أي إنسانٍ آخر، وأن أعمل على إخماده في مهده دون هوادة، فكّرت. ثم نهضت من على كرسي الخيزران، وقد بدا لي فجأةً أن لقائي الموشك مع رايا وزوجها سوف ينطوي حتماً على مخاطرة كبيرة.

أنا لا أعرف زوج رايا، ولست متأكّداً من أن السلام الكلّي والاحترام المتبادل والمجاملات المدروسة بشكل جيد سوف تسود كلّ لحظات لقائنا الاستثنائي المنتظر. لست واثقاً أبداً من أنه لن يلجأ إلى الألعاب المتداولة الفجّة التي يستدرج فيها الرجال بعضهم بعضاً إلى حلّ مشاكلهم العالقة عن طريق تأزيمها. ولا أعتقد، إذا جرت الأمور على هذا النحو، أن عجلي البدائيّ الفظّ الغشيم سوف يبقى مطموراً إلى الأبد في أعماقي المشينة، تحت الكتب والأفلام والمسرحيات واللوحات. لابد أنه سوف يورّطني، شئتُ أم أبيتُ، بعمل فظيع سوف أندم عليه طيلة حياتي لكنني لن أتورّع عن ارتكابه متذرّعاً بأوهى الأسباب وأشدّها تفاهة. سيكون ربما كافياً جداً بالنسبة لي، لكي أعبّر عن بشاعتي بأحلك صورة، أن يُلمّح زوج رايا مثلاً، مجرد تلميح بعيد، إلى إساءة مشذّبة موجهة لي أو لرايا. وليس من المستبعد طبعاً أن يُقْدِم على ذلك، فهذا، من وجهة نظرٍ واقعيّةٍ محضة، أقل ما يمكن انتظاره من زوج يرافق زوجته

إلى بيت حبيبها. لا داعي إذاً، لا داعي أبداً في هذه الحال إلى النوم، طواعيةً وعن سابق عمد، بين القبور، فكّرتُ وأنا أذرع الغرفة دون توقف. لا داعي أصلاً لفكرة لقائي به، فهو في النهاية ليس نبياً ليرحّب بوجودي محشوراً بينه وبين زوجته. ومن ثم لن أكون سوى أحمق وسيّئ نية إذا ظننت لحظةً واحدةً أنه سيكون سعيداً بلقائي. لا شيء سيمنعه حتماً، مهما رَصْرَصَتْهُ رايا قبل أن يدخل بيتي، من أن يعبّر أمامي عن غضبه المستفزّ السافر أو المبطّن، وهذا حقّه المشروع الذي لن يُؤاخذه عليه أحدٌ عاقل في الدنيا كلّها.

نظرت إلى المنبه الذي كان يشير إلى الساعة الواحدة. لابد أن طائرتهما تهبط الآن في مطار دوموديدوف في موسكو، قلت. ثم وجدت أن أسرع إلى أنّوش، صديقة رايا، وأطلب إليها أن تعثر عليها بأي وسيلة ثم تخبرها بأنني، لأسبابٍ قاهرة، لن أكون موجوداً في غرفتي في الساعة السادسة ولا أعرف متى سأعود إليها بالضبط.

لم أكن أعرف طبعاً ما كان يدور، وما يزال يدور، في رأس رايا حول اللقاء المرتقب الذي ترتّب على الأغلب بموافقتها في باكو. وكان من غير المقبول، من ناحيتي، أن أشكّك بما إذا كانت قد فكّرت جيداً بنتائج هذه الخطوة قبل أن توافق عليها. ولعل النجاح الباهر كان سيحالفها فعلاً بتحقيق الغاية التي هدفتْ إليها وخططتْ لها لو أن هذا اللقاء حدث قبل المصادفة التي جمعتني اليوم بالرجل العجوز السكران عند موقف الباص. فأنا، بكلّ إمكاناتي العنيفة التي اكتشفتها بعد تلك المصادفة مباشرةً، أصبحت للأسف شخصاً مختلفاً، كأنما إلى حدّ بعيد، عما كنت عليه من قبل. وأعتقد أن من التهوّر وقلّة الضمير أن أتعامى عن ذلك في

أي حالٍ من الأحوال. وإذا كانت رايا تجهل الآن ما طرأ عليّ من المستجدات الخطيرة، فإنني أتوقّع أنها سوف تفهم وتتفهّم إلغائي لقاءنا في الساعة السادسة عندما سأشرح لها دوافعي في وقت مناسب لاحق، فكّرتُ وقد أصبحت جاهزاً للانطلاق إلى بيت أنّوش. ثم، في اللحظة الأخيرة قبل أن أفتح الباب وأخرج، ثبّط همتي في الذهاب إليها أنني لم أكن واثقًا تمامًا من أنها سوف تعثر على رايا. كما احتملتُ أن ألا يكون عندها الآن الوقت الكافي لأن تبحث عن صديقتها، فمن الوارد جداً أن أراها مشغولة مثلاً أو مرتبطة بمواعيد ضرورية لا تستطيع إلغاءها أو تأجيلها. ثم إنني قد لا أجدها الآن في بيتها إذا كانت مناوبتها نهارية في المشفى الذي أصبحت تعمل فيه منذ مدة قصيرة كما فهمتُ من رايا. وبذلك فإن مغامرة الذهاب إليها لن تكون، في النهاية، سوى مضيعة للوقت لا أكثر.

لم يكن بوسعي طبعًا أن أفتح باب الشقة وأخرج هكذا، ثم لا أعود إليها قبل منتصف الليل، فقد كان يعزّ عليّ كثيراً أن أخذل رايا أمام زوجها. غير أن الوقت أصبح يجري بسرعة كبيرة في داخلي، وأدركت أنّ عليّ أن أجد، على وجه السرعة، مخرجًا آخر، للعواقب الوخيمة المحتملة، غير إلغاء اللقاء. ولكي لا أمنح أيّ بصيصٍ لآمالي الكاذبة بالنجاة كان عليّ أن أتوقّع، سلفًا، أسوأ الاحتمالات التي يمكن أن يقدم عليها زوج رايا، وأن أفكّر مليّاً في الوقت نفسه بما يمكن أن يمنعني عندئذٍ من ارتكاب أي فظاعة سيدفعني إليها حتمًا عجلي الهائج. ثم رأيت، بعد تفكير طويل، أن السبيل الوحيد الذي سيمنعني من تنفيذ البشاعة التي ستضطرم في داخلي هو أن أرقى إلى الحال التي كان عليها الرجل العجوز

السكران عند موقف الباص. لقد ازدرى بي بكلّ مرارته الصفراء وحقد عليّ بكل تجاعيد وجهه، ثم هدّدني بالقتل بصدقٍ عميقٍ مؤثر، لكنه، وهذا الأهم، لم يكن يملك، في تلك اللحظة الحاسمة، الأداة التي تمكّنه من قتلي. كذلك تماماً يجب أن أكون عندما سيستفزّني زوج رايا. ومن أجل أن أكون كذلك حقاً، عليّ أن أحتاط منذ الآن بكل شيء لكي لا أجد آنذاك، لا في الغرفة ولا في موزع الشقة ولا في الحمام، ما يمكن أن يسهّل عليّ الشروع بتنفيذ ما ستدفعني إليه الفظاعة الصادقة المؤثرة التي ستعصف بي.

خرجت من الغرفة فجأة إلى الموزّع، فوقع بصري فوراً على سكاكين المطبخ الحادة المصفوفة على نسق مرعب فوق المجلى. لَمَمْتُها كلها. ثم فتحت درج أدوات الطعام والتقطت الشوكات وسكاكين تقشير الفواكه المثلّمة وقشّارة البطاطا والمفتاح المُلَوْلَب لزجاجات النبيذ وفتّاحة العلب ذات المخلب المعدني المعقوف. ثم دخلت إلى الحمام. تنقّلتُ بعينيّ المتفحّصتين في المكان ولم أجد ما يمكن أن يثير الوساوس الشنيعة. غير أنني حين فتحت الخزانة الصغيرة عثرت على مقص صغير وعلى مجموعة من شفرات حلاقة لم أستخدمها بعد، فالتقطتها جميعاً ثم عدت إلى الغرفة. كوّمتُ ما جمعته بين كفيّ فوق طاولة الكتابة، وجعلت أتلفّت من حولي بحثاً عن أشياء حادة قاسية ومدبّبة مهملة هنا أو هناك بين قطع الأثاث. وجدتُ، على حافة أحد رفوف المكتبة، قلمَيّ رصاص مبريّين بدقّةٍ مفرطةٍ تُقَشعر البدن فنقلتهما دون تردّد إلى كومة الأدوات الحادة على سطح الطاولة. تأكّدت بعدئذٍ، بنظرة شاملة، من نظافة الغرفة تماماً من الأشياء التي تساعد الإنسان على ارتكاب الفظاعة عندما يخرج عن طوره.

فتحت خزانة الثياب، بعد ذلك، وسحبت قميصاً داخلياً أبيض. وبينما هممت بإغلاق باب الخزانة انتبهت إلى ربطات عنقي المتدلية من بلاستيكة مثبتة على ظهر الباب، فسحبتها هي الأخرى، معتقداً أنها قد لا تقل خطورة عن السكاكين في اللحظة الحاسمة. ثم لففت بالقميص الأبيض كل ما على الطاولة من أدوات العنف، وخرجت من الشقة باتجاه منور الدرج. لم أكن أذكر أنني شاهدت أحداً من سكان البناية يصعد على قدميه إلى الطابق الرابع عشر. مع ذلك فقد تلبّثت قليلاً في مكاني، بعد أن أغلقت باب المنور ورائي، لأتأكّد من أنني لا أسمع وقع خطوات شخص صاعد أو نازل على الدرج. ثم اقتربت من نافذة طولانية عالية تُدخل الهواء وضوء النهار إلى المنور. رفعت يدي على طولها، ودفعت لفافتي البيضاء إلى أعمق نقطة طُلْتُها من حرف النافذة، ثم خرجتُ بسرعة.

شعرت، وأنا عائد إلى الشقة، بأنني أزلتُ من على كاهلي همّاً ثقيلاً. يستطيع الآن زوج رايا أن يستفزّني بما شاء من الإساءات الصريحة والمبطنة من أول لحظة في اللقاء إلى آخر لحظة، كما يستطيع عجلي الغبي أن يعربد في داخلي، دون جدوى، طيلة الوقت. نعم سوف أفقد صوابي، لكنني سوف أكون عاجزاً تماماً عن القيام بأي شيء جنوني. سوف أتلفت عبثاً من حولي، وسوف أدرك فوراً أنني لن أجد تحت يدي دبّوساً صغيراً. أما إذا خطر بي، في ذروة هياجي، أن أستعيد لفافتي البيضاء من نافذة المنور فسوف يكون من غير المعقول طبعاً، بل من المضحك جداً، أن ينتظرني زوج رايا في الغرفة ريثما أخرج من الشقة وأقطع الكوريدور بطوله الممل وأفتح باب المنور وألتقط أدواتي الوحشية، ثم أعود بها إليه لكي أنفّذ فيه ما يُرضي بشاعتي الدفينة

المستيقظة. ومع اقترابي كالمطْمَئنّ من باب الشقة خشيت فجأةً من أن يكون زوج رايا أكثر جنونًا مني، فتسمّرتُ في مكاني وسألت نفسي ماذا سأفعل إذا عدت، مدجّجًا بكامل عتادي، إلى الغرفة ووجدته في انتظاري؟

رجعت أدراجي إلى المنور. استعدت لفافتي البيضاء البغيضة، ثم توجهتُ بها إلى فتحة القمامة في الطابق، فتحت غطاءها الحديديّ، أمسكت بقميصي الداخلي ونفضت محتوياته في الفتحة ثم رميت به وراءها. أصغيت، لثوانٍ معدودة، كيف أصبحت أدوات جريمتي المحتملة تطرطق في طريقها المعدنيّ الطويل من الطابق الرابع عشر إلى الحاوية التي تتجمّع فيها قمامة البناية كلّها، ثم أرجعت الغطاء وعدت إلى الشقة.

عندما دخلت الغرفة شعرت بتعب شديد إلى درجة أنني اتجهت فوراً إلى السرير وانكببت على وجهي دون حراك. ولعلّي نمت في الحال، غير أن شيئًا ما انتشلني من نومي فجأةً، فالتفت إلى المنبّه- كان يشير إلى الساعة الخامسة.

جلست على حرف السرير بصعوبة. لم أتحرك من مكاني ربما لعدة دقائق. كانت راحتا يديّ ملتصقتين ومدلدلتين بين ركبتيّ، وأنا أشرد في مجلة زناميا التي كانت ما تزال مستلقية على سطح طاولة الطعام منذ أيام.

- لم أقرأ قصيدة فوزنيسينسكي الجديدة حتى الآن.

قلت بصوت خافت مسموع، وأنا أتذكّر الكلب المالطي الصغير الذي يعيش وصاحبته في الطابق الخامس. ثم شعرتُ بحاجةٍ كأنما ملحّةٍ إلى هرتماته الرقيقة الخافتة ومحبّته الصافية وانتباهه الخالص إليّ.

نهضت واتجهت إلى باب الشقة مثل مُنوّم، فتحته وخرجت. انتظرت أمام باب المصعد حتى إذا وصل فارغًا دخلت وكبست على زرّ الطابق الخامس. انفتح باب المصعد أمامي، بعد قليل، عند الطابق الخامس. لم يكن ثمة من ينتظر المصعد، فلم أخرج. ظللت واقفًا في مكاني حتى انطبق الباب من تلقاء نفسه ونزل بي المصعد إلى الطابق الأرضي. خرجت وجلست على أحد المقعدين الخشبيين المركونين إلى جانب أحد أعمدة بهو البناية، كما لم أفعل قط. كنت الآن أستطيع من مكاني أن أراقب الخارجين من المصعد والداخلين إليه. بصبرٍ نافدٍ ظللت جالسًا لا أشيل عيني عن باب المصعد. ثم خيل لي، بعد مرور وقت طويل من الإنتظار، أن دقائق قليلة جداً فقط أصبحت تفصلني الآن عن الساعة السادسة، فكان لا بدّ من العودة إلى غرفتي. نهضت مثل مُرغَم. إلا أنني، حين دخلت المصعد، لم أكبس على زرّ الطابق الرابع عشر بل على زرّ الطابق الخامس من جديد. وحين انفتح الباب من أجلي بعد قليل، لم يكن ثمة من ينتظر المصعد هذه المرة أيضًا، لكنني خرجت مع ذلك. كان الكوريدور الطويل فارغًا تمامًا إلا من طفلٍ في الرابعة أو الخامسة من عمره يلعب بكرة صغيرة. أحسست برغبة شديدة بأن أمشي، ولو بخطوات سريعة، إلى آخر الكوريدور ثم أعود أدراجي إلى شقتي لولا أن الطفل انتبه إلي من بعيد، فتوقف فجأة عن لعبه وصار ينظر نحوي كالمرتاب بي. خشيت، إن تقدّمتُ إلى الأمام، أن يخاف منّي، فرجعت. لذتُ بمنعطف المصعد، فما عاد بوسع الطفل أن يراني الآن. لا بدّ أن ملامحي قد أصبحت مخيفةً في الساعات القليلة الماضية، فكّرتُ. ثم قلت سوف أنتظر هنا في اللّذوة قليلاً. قليلاً جداً. صرتُ أصغي، بانتباه

شديد، إلى طبطبة الكرة الصغيرة ووقع خطى الطفل الذي عاد يلعب في الكوريدور، دون أن أميّز أيّ أثرٍ لحسٍّ أو وهسٍ آخر. وكنت أدرك الآن أن الوقت الزهيد المتبقي على الساعة السادسة قد لا يكون كافياً لأن أصل إلى الشقة قبل وصول رايا وزوجها. لكنّني، مع ذلك، وجدتني أغامر بوقتٍ إضافيّ من الانتظار حتى أصبحت متأكّداً تماماً من أن الساعة قد تجاوزت الآن السادسة حتماً ربما بعدة دقائق أو أكثر.

اتجهتُ، عندئذٍ، بسرعة كبيرة نحو المصعد. ضغطت على كبسته، وكنت أشعر الآن بوجيب قلبي المتسارع في جسمي كلّه. ثم لاحظت، من الضوء المشتعل في لوحة أرقام الطوابق فوق باب المصعد، أنه عالق، لسبب من الأسباب، في الطابق الأرضي. انطلقت فوراً نحو المنور، وجعلت أركض صاعداً الدرج بأقصى سرعتي حتى إذا ظهرتُ في كوريدور الطابق الرابع عشر لم أعد أملك من الطاقة ما يكفي لأن أخطو خطوة إضافية واحدة. كدت أن أسقط من طولي على الأرض لولا أنني ملتُ نحو الجدار القريب واستندت إليه، وأنا أشهق وأزفر أنفاساً سريعة مبهورةً بكل قواي. ثم ما لبثتُ أن سمعت صوت رايا يهتف باسمي من بعيد، فرفعت رأسي باتجاه صوتها ورأيتها مع رجلٍ إلى جوارها يتقدمان نحوي، بخطى سريعة، من آخر الكوريدور.

III

لقد منحني لهاثي الشديد واهتمامُ رايا بما إذا كنت على ما يرام، هامشاً إضافياً غير متوقّع من الوقت لأن أختلس النظر إلى ملامح زوجها، التي حضّرها سلفاً من أجلي، وأستشفّ منها ما كان يدور في رأسه في اللحظات الأولى من لقائنا. كما أعفاني لهاثي من المبادرة بالكلام، فقد كنت حريصاً على أن لا يشي صوتي، باكراً، بمشاعر أو بأفكار كنت أُفضّل تأخير التعبير عنها قدر الإمكان. ثم بدا لي أن إمساك زوج رايا عن الكلام، طيلة تقدّمنا باتجاه الشقة، كان للسبب نفسه، فقد كان كالحريص، هو الآخر، على أن لا يُمَسِّكني، بنبرة صوته، إحساساً مسبقاً أستطيع اشماره لصالحي فيما بعد. وهكذا استمرّ صمت ملغوم بالمشاعر المُبهمة، تشاركنا بتأليفه أنا وهو، في الكوريدور الطويل وفي أثناء دخولنا الشقة وبعد جلوسه ورايا في غرفتي على مقعدين متجاورين بمحاذاة طاولة الكتابة، وجلوسي على المقعد المواجه لرفوف الكتب.

كانت رايا تشعر طبعاً بثقل الصمت علينا نحن الثلاثة، لكنْ دون أن تستسلم له، فقد كانت تحاول تقطيعه، من وقت إلى آخر، بابتسامات عذبة خفيفة كانت تخصّنا بها معاً، وأحيانا كانت تبتسم للنافذة أو لطاولة كتابتي أو لباب الغرفة. ولا بدّ أنها كانت تدرك تماماً صعوبة الكلمات الأولى بين رجلين وجدا نفسَيْهما متنازعين على امرأة واحدة، فاقترحتْ علينا

فجأة أن نشرب القهوة. ثم نهضتْ وخرجتْ إلى الموزّع دون أن تغلق وراءها باب الغرفة، فتابعتُها بنظري. سألتني من هناك، بصوت مرتفع، عن مكان الركوة والبن، مع أنها كانت تعرف جيداً أين أضعهما بالعادة، فقدّرتُ أنها تريد أن تخفف عني، وربما عن زوجها أيضاً، عبءَ الصمت الذي ازداد حدّةً بيننا بعد خروجها من الغرفة. لكنني لم أجب عن سؤالها من مكاني، بل لحقت بها إلى الموزّع. ودون أن أنبس بحرف تناولتُ الركوة من على جانب رف تجفيف الصحون المثبّت أمامها فوق المغسلة، ملأتها بالماء، ثم أشعلت عين الغاز الصغيرة ووضعتها فوقها. وكانت، تنظر إليّ، وتحاول كأنما، بعينيها المبتسمتين، أن تهدّئ الخواطر المتلاطمة في رأسي.

- والبن؟

سألتني بصوتٍ أخفض، ففتحتُ إحدى الخزائن الصغيرة المتجاورة وأخرجت علبة البن، وقدمتها إليها. ثم خشيت أن يستثقل زوجها وجودي معها في الموزّع أكثر من ذلك، فعدتُ مباشرةً إلى مقعدي في الغرفة.

- لم ينقطع المطر في الأسبوع الماضي في باكو.

عادت رايا، من جديد، تبدّد الوحشةَ القارسة المهيمنة بيني وبين زوجها في الغرفة بصوتها الدافئ القادم من الموزّع، وهي تضع البنّ في الركوة.

- والبَرَد أحياناً.

ردّ زوجها، كما لم أتوقع. وقد بدا لي أنه، على عكسي، كان يعرف جيداً كيف يتحكّم بنبرة صوته فلا توحي للآخرين إلا بما يريد. وقد

أوصل إلي، عبْر "البَرَد" الذي كان يسقط "أحيانـاً" في باكو، أنه ينتظر مني الآن أن أفهم جيداً أنه لم يأتِ إليّ لأنه لا يملك وسائل أخرى أسرع وأنجع لبلوغ ما يهدف إليه، لكنه، كرجل متحضّر، جاء إلى هنا لأنه لا يريد فقط الحفاظ على زوجته، بل وعلى مشاعرها الإيجابية نحوه أيضاً. وقد حاولت، قدر الإمكان، أن لا أتوقف كثيراً عند وسائله الناجعة الأخرى التي يملكها، لكي لا أستهلك أعصابي منذ الدقائق الأولى من اللقاء. ثم اعتبرتُ أن خروجه من صمته، بكلمتيه الوحيدتين المعبّرتين عن البَرَد، كان تنازلاً من ناحيته، إذ كان عليّ، أنا، أن أبادر قبله بكسر صمتي من باب اللباقة كمُضيف.

- أنتم محظوظون!

قلتُ أخيراً، فرنّت ضحكة رايا، المشغولة بتحريك القهوة في الموزّع، ما جعل الهواء الراكد من حولنا في الغرفة يتحرّك كأنما بنسيم عابرٍ منعش.

- في هذا الوقت من السنة يكثر العجاج في المدينة التي عشت فيها.

تابعتُ.

- وما اسم هذي المدينة؟

سألتني رايا، من الموزّع، مع أنها كانت تعرف اسم مدينتي الأولى.

- الرقة.

أجبتُها كما لو أنني أخبرها باسمها لأول مرة. ثم لاحظتُ أن زوج رايا بدأ ينظر إلى عينيّ مباشرةً بشيءٍ من الفضول، فألفيتُ في نفسي رغبة شديدة في متابعة الحديث الآمن عن الطقس الذي فتحتْه رايا.

- كان العجاج يستمرّ أحياناً لساعات طويلة. وبسبب كثافة الغبار في الفضاء، الذي يصبح برتقالياً معتماً، كان لا يمكنك أن ترى أمامك أكثر من مترين أو ثلاثة أمتار في عزّ النهار. لا رياح ولا حتى نسمة هواء، بل ركود تامّ خانق وبلاء برتقالي داكن كثيف تنخله السماء دون صوت ودون توقف فوق الشوارع وأسطحة البيوت والشرفات وأفنية الدور. وبرغم أن النوافذ والأبواب كانت تغلق بإحكام، إلا أن العجاج كان يتسلل، مع مرور الوقت، إلى داخل الغرف ويغطّي، بطبقة رقيقة من الغبار الناعم كالطحين، الفُرُش واللّحف المنضّدة والبُسُط والطرّاحات والمخدّات والأكتاف والرؤوس والحواجب واللحى والشوارب ورموش العيون.
- وكيف كنتم تتنفسون؟

خاطبتني رايا، وهي تعود إلى الغرفة بصينية عليها ثلاثة فناجين من القهوة وزّعتها على الطاولة ثم أعادت الصينية إلى الموزّع ورجعت إلى مكانها في الغرفة.

- عندما كنا صغاراً كانت أمي تقودنا جميعاً إلى الحمام، وهو المكان الأكثر ضيقاً في المنزل، لكنه الأكثر بعداً عن أرض الحوش المفتوحة للسماء البرتقالية المعتمة. كان حمامنا في داخل المطبخ، وكان على الغبار أن يخترق باب المطبخ المطبق ثم باب الحمام المحكم لكي يصل إلينا. هناك كنا نجلس، جنباً إلى جنب، على كراسي الحمام الخشبية المشبعة بالماء ذات القوائم القصيرة وعلى ظهور الطسوت المقلوبة. وكانت أمي

تبلّل مناديل قطنية وتطالبنا بأن نلصقها على أنوفنا وأفواهنا لكي نتنفّس من خلالها.

- نحن محظوظون فعلاً..

قال لي زوج رايا متعاطفاً، كأنما دون مواربة، معي ومع أمي وأخوتي وأخواتي، وربما مع أهل الرقة كلهم الذين كانوا يختنقون معنا بالعجاج في تلك الأيام، خصوصاً في فصليّ الربيع والخريف. ولعل صورة أمي التي استحضرتُها الآن، وهي توزع علينا المناديل المبللة في حمامنا القديم الضيق، قد بعثتْ في نفسي نيّتها الطيّبة، فظننتُ أن زوج رايا ما كان ليتعاطف معي لولا استعداده العفوي لأن يكون شخصاً جيداً بالنسبة لي. ثم لم أستثنِ، وأنا أنظر إلى عينيه المنتظرتين متابعة كلامي، أن يصبح، ربما في يوم قريب، أحد أصدقائي برغم كلّ شيء.

- أما إذا جاء العجاج في الصيف فجحيم حقيقيّ.

تابعت، كما لو كنت أتغنّى بالعجاج خصيصاً من أجل زوج رايا، مراهناً، في أغلب الظن، على أن عجاج الرقة الصيفي سوف يعمّق، سلفاً، إحساسي بالصداقة المحتملة بيني وبينه أكثر بكثير مما فعل العجاج الربيعي والخريفي حتى الآن.

كانت رايا، في هذه الأثناء، تشرب القهوة وترصد، بانتباه ظاهر، التطورات الجديدة الصغيرة التي بدأت تظهر، بصورة نوايا حسنة في طور التشكّل، على ملامحي، وربما على ملامح زوجها أيضاً.

- في تموز وآب كانت تمرّ أيام قائظة لا تطاق. كنا أحياناً، أنا وأخوتي وأخواتي، لكي نستطيع أن نغفو في الليل، نبلّل ثيابنا بالماء ونستلقي على فرشنا دون غطاء فوق سرير خشبيّ عائليّ

ضخم منصوبٍ في أرض الحوش. وإذا صادف، في تلك الليالي، أن جاءنا العجاج كنا نستيقظ في عتمة دامسة مسدودي الأنوف وطعم الغبار في حلوقنا وبقايا الماء المتبخّر من ثيابنا قد جعلتْها مطليةً بطبقةٍ رقيقة من طينٍ شبه جاف..

وهنا قاطعتني رايا بِدَقّةٍ خفيفةٍ مسموعة، بكعب فنجان قهوتها الذي أعادته إلى الطاولة، فساد صمت مفاجئ مشحون بانفعالات عميقة مكبوتة كأنما لدى الجميع. وقد شعرتُ بالأسف فوراً لأنني أعتقدتُ أنها أرادت، من دَقّة فنجانها، أن تقول لنا إن الوقت قد حان الآن للانتقال إلى الموضوع الذي عقدنا من أجله هذا اللقاء. وكنت، في تلك اللحظة، ما أزال أشعر بالرغبة في تمتين الصداقة، المحتملة بيني وبين زوجها، بأشياء أخرى غير العجاج- بأن أشرح له مثلاً لماذا لم أتعلّم السباحة مع أنني نشأت في مدينة تجاور نهراً عظيماً كنهر الفرات، وكيف كنت أنحشر في طفولتي، مع أطفال كثيرين آخرين، في غرفة صغيرة لدى شيخ مُقعَد في العطل الصيفية لتعلّم قراءة القرآن، وماذا كنت أفعل عندما كنت أحلّ محلّ أبي في خانِهِ ريثما يذهب إلى البيت لينام قيلولة ما بعد الغداء. ولربما رويتُ له، للغاية النبيلة نفسها، شكوكي بوجود السماء فوق مدينة حلب خاصةً عندما كنت أتذكّرها في أثناء دروس الحساب، التي مقتُّها دائماً، في مدرستي الابتدائية بالرقة. وقد كنت شبه متأكد من أنه كان سيصغي إليّ إلى الآخر بانتباه شديد بدليل استمتاعه الواضح الآن بأنواع العجاج الرقّي التي استظهرتها أمامه.

- زوجي يعرف جيداً وأنا أعرف جيداً أن مشروع انفصالنا قائم بيننا قبل أن أتعرف بك.

قطعتْ رايا الصمت الشائك الذي ساد في الغرفة بعد دقة فنجانها على سطح الطاولة مباشرةً، وهي توجّه كلامها إليّ، بصوت امرأةٍ متوازنة تعرف كأنما جيداً لماذا جاءت وماذا تريد بالضبط.

نظرتُ إلى زوجها، فبدا لي، وقد تبطّن وجهه بغضبٍ مفاجئ، كما لو كان ينكر كلامها ويحضّني بعينيه، بإلحاح، على مواصلة حديثي عن عجاج الرقة أو عن أي شيء آخر. وكان يسرّني طبعاً أن ألبّيه لولا أنني أدركتُ على الفور أن رايا سوف تفهم ذلك على سبيل إسكاتها بصوتي. وكان واضحاً أنها مصمّمة على متابعة كلامها، وأنها لن تفوّت، الآن، أول مكاشفة مع زوجها بحضوري ولن تقبل كأنما لا بتمييعها ولا بكسر حدّتها مراعاةً لمشاعر وعهودٍ أصبحت بائدةً بالنسبة إليها منذ مدّة طويلة.

- لكنه أصبح يظن، منذ تعرفّت بك، أنك لو تركتني فسوف يعرف كيف يجعلني أحبه من جديد.

تابعتْ رايا، وهي تؤكّد على مخارج حروفها دون أن يبدو عليها الانفعال الزائد. لكنها، برغم نبرتها المتماسكة، بدت كأنها غير واثقة تماماً من درجة الأمان في ردّ فعل زوجها المحتمل في أيّ لحظة. وربما لهذا السبب لم تكن تلتفت إليه لتلاحظ أثر كلامها عليه. لعلها كانت تراهن، دون مسوّغٍ مفهومٍ طبعاً، على أن وجودي إلى جانبها سوف يُحَجّم نواياه العدوانية ويجعله أكثر حذراً في ما سيقدم عليه. كأنها كانت تستمدّ مني جسارةً لم أكن أتمتّع بها في واقع الأمر. وكان الغضب في وجه زوجها قد بدأ يتفاقم ويمتزج بخيبة أملٍ كبيرة. كأنه كان متفاجئاً تماماً باختزالها علاقتهما أمامي بطريقةٍ كانَ يمكن اعتبارها، بقليلٍ من سوء النيّة، طريقةً مهينة.

- لا يريد أن يصدّق أن الوقت أصبح متأخراً جداً لأن أشعر نحوه بأي شيء، حتى الكراهية لن يجعلني أشعر بها نحوه مهما فعل بي.

تابعت بالانفعال المضبوط نفسه وبالتجاهل نفسه حيال ما كان يعتمل في داخل زوجها من الغضب الذي أصبح سافراً. بدا لي الآن أنه كان يبذل جهداً محسوساً ليسيطر على قبضتيه المرتعشتين بين ركبتيه، وهو ينظر إليها، وأحياناً إليّ، نظرات يمتزج فيها الاحتجاج والألم والتوعّد والازدراء- كأن رايا قد أفسدت، بكلامها، الغاية التي أراد تحقيقها من هذا اللقاء. أو أنها تجاوزت خطوطاً حمراء كانا قد اتفقا على الالتزام بها معاً في باكو، فبدا الآن مستعداً كأنما لأن يتجاوزها هو الآخر، إنما على طريقته الفظّة التي لن يتوقعها أحد، قدّرتُ. ثم أيقنتُ أن أيّ أمل، بأن ينتهي لقاؤنا على خير، قد اضمحلّ الآن تماماً، وأن لحظة المواجهة بيني وبينه لم تعد قابلةً للتأجيل بأي حال.

- هو الآن زوجي بحكم أوراق رسمية تحتاج إلى وقت للتخلّص منها لا أكثر. كان عليه أن يفهم هذا منذ مدّة طويلة، لكنه ما أراد ولا يريد أن يفهمه. هل تعرف لماذا جاء من باكو إلى هنا؟ لن تتوقّع! لقد جاء لكي يطلب منك أن تتركني، مع أنني أكّدتُ له مراراً أنك لن تمنحه هذه الفرصة، لكنه يريد أن يسمع جوابك منك..

ثم تريثتْ لحظاتٍ قليلة قبل أن تستدرك:

- أنت لن تتركني أليس كذلك؟؟

سألتني كما لو كانت واثقةً ثقةً كاملة من أن هنالك إجابةً واحدةً مفروغاً منها كان عليّ النطق بها الآن دون تردّد. وما كنت لأتردّد بالنطق

بها فعلاً لولا زوجها الذي فقد فجأةً السيطرة على نفسه، كما بدا لي في تلك اللحظة، فانعقد لساني من الخوف. كنت كأنما على يقين من أنه، الآن الآن، سوف يُلحِق بي أو بها، أو بنا معـًا، أذىً محقّقـًا لم أكن قادراً على تحديد طبيعته، فبدوت كالمستسلم له سلفـًا قبل أن يحدث. وكدت أغمض عينيّ عندما مال فجأةً بجذعه المتشنّج فجأةً إلى الأمام، لينهض كأنما من مقعده. لكنني، في تلك اللحظة الأليمة الفاصلة، لمحت شيئـًا مدسوسـًا بين كتبي عرفتُ فيه فوراً مقبضَ سكين قطع الأوراق، فسبقتُه إلى النهوض من مقعدي في الحال. ولعلّه فوجئ بالطريقة التي فزتُ بها قبله، فَلَبَدَ في مكانه من جديد وجعل يتابع ازدراءه بي، وهو ينظر إليّ كما لو أنني أصبحتُ الآن رجلاً لا يشبهني. وكنتُ، من شدّة الانفعال الذي تلبّسني وأنا أنهض، أشعر فعلاً بأنني لم أعد نفسي التي كنتها قبل التماع مقبض سكين قطع الأوراق في عينيّ. كأنني، برغم خوفي الشديد من ما سيجري في اللحظات القليلة القادمة، صرت فجأةً شخصـًا جلفـًا متهوّراً أحمقَ قصير النظر لا أذكر أنني كنته في يوم من الأيام بهذا الوضوح. وما ضاعف من خوفي أنني كنت كأنما عاجزاً تمامـًا عن لجمي. نظرت إلى رايا أدعوها، بعينيّ، إلى أن ترى ما أراه الآن بين الكتب، وأن تفعل في الحال ما يمكن أن يُخمِد غضب زوجها وتهوّرِي معـًا أو، على الأقل، أن تنهض من مكانها وترغمني على الجلوس في مكاني من جديد. بيد أنني لم أُمْهِلها لكي تفعل شيئـًا من هذا القبيل، فقد ابتعدتُ عن مقعدي واتجهتُ، بخطىً متوعّدة ثقيلة خرقاء، باتجاه المكتبة. وقفت وجهـًا لوجه أمام الكتب، وكان كل ما في ذهني الآن أن أرفع يدي فوراً وألتقط سكين قطع الأوراق، غير أنني لم أفعل. لم أستطع. بدأ بدني كلّه يقشعرّ من فكرة

الإمساك بها من مقبضها، وقد أصبحت واثقـاً كأنمـا مـن أنني إذا التقطتها الآن فسوف أرمي بها حتماً من النافذة. وكدتُ أقوم بذلك فعلاً، لولا أنني احتملتُ فجأةً أن يكون لدى زوج رايا حديدةٌ ما، مخفيةٌ بين ملابسه، أشدّ فتكاً وسرعةً منها. تركتها في مكانها، وأنا أشعر بالعار من وجودها بين كتبي ومن أنني أتستّر عليها فوق ذلك. ثم أرهبتْني فكرةُ أن أباغت بها زوج رايا حين سيُشهر حديدته الفتّاكة المُحتمّلة في اللحظة الحاسمة، فازداد نفوري منها وبدت لي دهراً البرهةُ التي استغرقها وقوفي أمامها.

- أنت لن تتركني أليس كذلك؟؟

انتشلتني رايا من خواطري بتكرار سؤالها بصوتٍ أعلى، فساعدتني كأنما في أن أدير ظهري، أخيراً، لسكين قطع الأوراق. كانت الآن تنظر إليّ وتكبت كأنما انفعالاً مريراً يكاد يفلت من سيطرتها. كأنها كانت لا تريد أن تصدّق أن الإجابة الوحيدة التي تنتظرها مني بصبر نافدٍ قد لا أنطق بها في نهاية الأمر. وقد حزّ في نفسي كثيراً أنني كنت الآن، في عينيها الجميلتين المتألمتين، أستطيع خذلانها فعلاً، فوجدتني أنفصل بظهري عن مقبض سكين قطع الأوراق بصعوبةٍ أقل بكثير مما كنت أتوقع قبل لحظات. ابتعدت عنها ببطء وإصرار. حاولت أن أثق بكلّ قواي بأنها ليست، ولا ينبغي أن تكون بالنسبة لي، سوى حديدة مثلّمة لقطع الأوراق لا أكثر، وأن ما سيجري في الغرفة الآن لن يتعلّق بها في كل الأحوال مهما فعل زوج رايا.

اتجهت إلى مقعدي وجلست. ثم التفتّ إلى رايا، وأنا أستسلم الآن من جديد لرعبي الصريح المكشوف من زوجها.

- لن أتركِكِ!

أجبتُها أخيراً بصوت خفيض، فاحمرّ وجهها وتسارعت أنفاسها حتى أصبحت مسموعةً، وهي تغالب دموعها بصعوبة.

- أعتقد أن تفكيركَ الطويل لم يقدْك إلى الصواب.

قال لي زوج رايا بانفعالٍ واضح.

- لا تتسوّلْني منه! أنا لست كعكة أحد.

صرخت رايا غاضبةً في وجه زوجها، وقد انفجرت بالبكاء.

- أنت لم ترافقني إلى هنا لكي تتساوم معه عليّ، أنت هنا لكي تسمع منه فقط أنه لن يتركني، وها قد سمعتَها الآن..

تابعت صراخها وبكاءها.

- أردت أن أُخبره بأننا فكّرنا، معًا، قبل عام فقط بإنجاب طفل.

قال زوجها، فنهضت رايا من مكانها في الحال، وقد فقدت أعصابها تمامًا، وصارت تصرخ بأعلى صوتها.

- وأنا قلت لك في باكو، البارحة وأول البارحة، وأقول لك الآن إنك لن تكون والد طفلي.. لن تكون.. لن تكون..

ثم سقطت فجأةً على الأرض، وهي ترتعص، بأطرافها المتشنّجة، في نوبة صرعٍ شبيهة بتلك التي أصابتها في غرفتي قبل أن تغادر إلى باكو.

أبعدْنا، زوجها وأنا، الأغراضَ التي كان يمكن أن تصطدم برأسها وبأطرافها. ثم ظللنا واقفَيْن ننظر إليها حتى همد بيننا جسدها الغائب عن الوعي. أخرجَ زوجها من جيب جاكيته منديلاً مسح به الزبد عن فمها المرتعش بينما اقتربتُ من سريري وكشفت عنه الغطاء. تَسَاعَدْنا في حملها إلى السرير. جعلناها تستلقي على ظهرها في الفراش. ثم نزع كلّ منا فردة من حذائها قبل أن أردّ عليها الغطاء.

وكما لو أن شيئاً آخر ما كان بوسعنا أن نقوم به معاً من أجلها، عدتُ، أنا، إلى مقعدي، بينما تلبّث، هو، واقفاً قرب السرير لبضع لحظات إضافية ثم عاد إلى مقعده. وضع مرفقيه على ركبتيه وسند رأسه إلى ساعديه، فظننت أنه سينام وهو جالس. لكنه انفجر فجأةً بنحيب قوي دام ربما عدة دقائق. بعد ذلك أخرج المنديل الذي مسح به زبد رايا عن فمها، جفف دموعه به، ثم ظل، وقتاً طويلاً، ينظر باتجاه النافذة، فشعرت بأنه كان يتحاشى النظر إليّ.

- هل تريد أن تعرف لماذا لم أتعلم السباحة في نهر الفرات؟

قلت له فجأةً بصوتٍ حذرٍ خفيض.

- لا، لا أريد أن أعرف.

ردّ عليّ بجفاء دون أن يلتفت إليّ.

نهضت عندئذٍ من مكاني، وأنا أداري خجلاً شديداً منه ومن نفسي. توجهت على مهلي إلى باب الشقة، فتحته وخرجت.

في الشارع لم يخطر بي مكان أذهب إليه، لكنني مشيت، مع ذلك، باتجاه محطة المترو.

بقيت، حتى ساعة متأخرة من الليل، أتنقّل، دون هدف، من قطار إلى آخر في متاهة الأنفاق المحفورة تحت مدينة موسكو. وقد ظلّ كثير من الناس، الذين صادفتهم أمامي على مقاعد العربات، يعيشون في داخلي أحداثاً كثيرةً متعاقبةً ومتشعّبةً طيلة الوقت. وحين وجدتني في محطة فِدِنْخا من جديد خرجت من عربة القطار، وعدت إلى بيتي.

لم أجد أحداً حين وصلت.

كانت رايا وزوجها قد غادرا، ربما منذ مدة طويلة.

في بيت جدّة نونّا

I

لم أخرج من البيت في صباح يوم السبت. توقعت أن ترسل رايا صديقتها أنّوش لتنقل إليّ ما حدث معها بعد لقائي بزوجها في مساء الأمس. انتظرت حتى اقتربت الساعة من بلوغ الرابعة مساءاً دون أن يظهر أحدٌ في بابي. وكان عليّ، عندئذٍ، أن أهيئ نفسي للقاء نونّا في محطة القطار الكهربائي في الساعة الخامسة. نظّفت حذائي وحلقت ذقني وارتديت ملابسي، ثم تلفتّ من حولي أبحث عن الدمية لأصطحابها معي، فقد كنا مدعوّيين معًا إلى بيت جدّة نونّا. لم يستغرق بحثي عنها وقتًا طويلاً. تذكّرت أنها رافقتني إلى مركز الهاتف يوم الثلاثاء، وأنني لم أخرجها، على الأغلب، من حقيبة يدي عندما عدنا إلى البيت.

تناولت الحقيبة من تحت طاولة كتابتي وفتحتها لأتأكّد من وجود الدمية. كانت ما تزال محشورةً هناك فعلاً، غير أنني لم أغلق الحقيبة عليها من جديد. بدت لي، من شعرها الأشعث الملبّد ومن ملامح وجهها المضغوطة وأطرافها الملتوية، كما لو أنها غير راضية أبداً عن حشرها بهذه الطريقة، المهينة لا بدّ بالنسبة إليها، في مكان ضيق ومظلم منذ يوم الثلاثاء حتى يوم السبت. لم أكن واثقًا طبعًا مما إذا كانت على درايةٍ ما بحياة الدمى الاعتيادية في بيوت الآخرين، إلا أنني كنت أستطيع أن أستبعد، لو كنت مكانها، أن تُحبس دمية قماشية رقيقة مثلها في حقيبة، لمدة أربعة

أيام، دون أن تشعر بالغبن. لم أكن أقصد طبعاً أن أعرّضها لمثل هذه التجربة القاسية حين وضعتها يوم الثلاثاء في حقيبتي. ولم أفهم الآن حقاً ما الذي دفعني إلى إخفائها حين رغبت في أن ترافقني إلى مركز الهاتف. هل خشيتُ من أن يراها معي مَنْ يستطيع أن يدّعي أنها دميته وأنه عاش معها وقتاً طويلاً قبل أن يفقدها ذات يوم؟ ربما خشيت ذلك دون أن أعيه، فأنا لا أعرف حقاً كيف وصلت الدمية إلى غرفتي، وأجهل تماماً سيرة حياتها السابقة قبل أن أعثر عليها تحت سريري. كنت أستطيع بسهولة طبعاً أن أجعلها تعيش، في داخلي، ماضياً زاخراً بالأحداث والمغامرات الشيّقة الملائمة لدمية لطيفة وجميلة مثلها. لكنني لن أستطيع بالتأكيد رواية هذه الأحداث لمن يمكن أن يدّعي أنها دميته، لأنه ببساطة سوف يعتقد حتماً أنني ألفّق أمامه الأكاذيب لأمنعه من استردادها مني. لكنّ أحداً، بالمقابل، لا يستطيع في كل الأحوال أن يتجاهل حقيقة أنني لم أسلبها من أحد ولا عثرت عليها على قارعة الطريق، بل وجدتها في غرفتي بالذّات. وإذا كنت لم ألاحظها قط، في كلّ المرات التي أزلتُ فيها الغبار، الذي يُخلَق عادةً تحت سريري، فذلك لا يعني بالضرورة أن حياتها الواقعية السابقة قد عاشتها في مكان آخر. أعني أن عدم رؤيتي لها تحت سريري، في الماضي، لا ينبغي أن يعني بالضرورة عدم وجودها هناك. فضلاً عن أن أحداً لم يطرق بابي قط ليطالبني بها حتى الآن، مع أنني أعيش في غرفتي منذ ثلاث سنوات. وهي مدة كافية، في الغالب، لتسويغ ادعائي أمام الآخرين بأنها شريكتي بالغرفة دون أن أبدو كاذباً في عيونهم. ثم إن رايا قد رأتها في منامها عشيّة عثوري عليها، ما كان يمكن اعتباره، بالنسبة لي على الأقل، نوعاً من صلةٍ إضافيةٍ أخرى تربطني إليها

قبل أي شخصٍ آخر. زد على ذلك الألفة الشخصية المتبادلة التي تنامت بيننا بسرعة لافتة في غياب رايا، فكّرتُ وأنا أخرجها من قلب الحقيبة. تأكّدتُ من سلامة يديها ورجليها وأصلحت تنورتها المشمورة عن ساقيها القطنيّتين ومسّدتُ بلوزتها المجعلكة. ثم رتّبتُ شعرها بأصابعي ومرّرت سبّابتي على ملامح وجهها بلطف محاولاً كأنما أن أزيل عنها ما بدا لي من التجهّم تحت ضوء النهار الساطع المتسلل من النافذة. وكانت، في أثناء ذلك، لا تتوقف عن التحديق بي، بعينيها المرسومتين الزرقاوين، في تعبيرٍ ربما عن تقديرها لي، برغم كل شيء، لأنني تذكّرتها في اللحظة الضرورية المناسبة قبل أن أنطلق إلى محطة القطار الكهربائي. وما كنت، في الحقيقة، لأذهب من دونها بأيّ حال، إذ كنت ما أزال أذكر، كما لا بدّ أنها كانت ما تزال تذكر على الأغلب، أن نونّا قد دعتنا معاً إلى بيت جدتها بالحرارة نفسها دون أيّ تمييز. ثم بدا لي، ونحن خارجان من الشقة، أنها قد غفرت لي حبسها الطويل في حقيبتي. كانت الآن سعيدةً جداً بأنها ستلتقي نونّا من جديد، وفخورةً، كأنما بالقدْر نفسه، بأن علاقتي معها أصبحت وثيقةً إلى درجة أنني أصبحت أرافقها دون أن أحتاج إلى إخفائها أمام الآخرين. لابدّ أن لقاءها الأول بنونّا قد ترك فيها انطباعاً قويّاً لا يُمحى بسهولة، فكّرتُ. ثم نظرتُ إلى وجهها، ونحن نازلان بالمصعد، لأتأكّد من صحّة خواطري. كانت كما توقّعت تماماً لولا إحساس جديد واهٍ، نمّ كأنما عن قلقٍ مُضمَرٍ، كان يلوح لي من بعيد في إطباقة شفتيها المرسومتين بخيوط حمراء. ظننت في البداية أن ذلك يعود إلى وجود رجلٍ كان يوبّخ زوجته أمامنا في المصعد. غير أن قلقها المضمر ظلّ يلوح لي، من بعيد أيضاً، حين خرجنا من البناية وحين

اتجهنا إلى محطة المترو، وحتى حين اشتريت باقة ورد جوريّ لنونّا من كشكٍ صادفناه في طريقنا إلى هناك. لم يكن قلقها يعكّر طبعاً لا سعادتها بلقائها القريب بنونّا، ولا اعتدادها بعلانية مرافقتي لها، بيد أنني ظللت أهجس به طيلة المحطات المتعاقبة التي كنا نقطعها في قطار المترو. وقد كان طبيعياً، بالنسبة لي، أن يكون قلقها متعلّقاً حصراً بواحدٍ من ثلاثة أشخاص، بي أو برايا أو بنونّا، ما دامت لا تربطها إلى غيرنا، حسب علمي، أيّ علاقة من أي نوع. ما كنت طبعاً لأدّعي معرفة كلّ ما كان يدور في خلدها بالضبط بقدر ما كنت مؤهّلاً، بناءً على قربي الشديد منها، لأن أستشفّ أفكارها غير المعلنة من سلوكها العام ومن ردود أفعالها على ما يجري من حولها. وعليه فقد أدركتُ بعد قليل أن من غير الممكن عملياً أن يكون قلقها متعلّقاً بنونّا لأن أحداً منا لم يكن يعرف عنها شيئاً أبداً منذ يوم الثلاثاء. أما بالنسبة لي، فلم يكن هنالك ما كان يمكن أن يستدعي قلقها عليّ إلّا إذا كانت قد نبشتْ، بطريقتها الخاصة، أشياء غير مُطَمْئِنة حدثت في نفسي، دون علمي، خلال فترة وجودها في حقيبتي. ومن ثم كان يتعذّر عليّ نَفْيُ أو تأكيدُ أشياء من هذا القبيل مادمت أجهلها تماماً. لكنْ إذا كانت قد تمكّنت حقاً، وهي داخل الحقيبة، من معرفة ما دار في غرفتي، في مساء الأمس على وجه الخصوص، فمن الوارد أن يكون قلقها متعلّقاً برايا. حزّ في نفسها ربما أن رايا لم تفتش عنها حال وصولها إلى الغرفة ولا أتت على ذكرها ولا حتى سألتني عن أخبارها قبل أن تصيبها نوبة الصرع. غير أن هذا الاحتمال لم يصمد طويلاً أمام رغبتي الجادّة بمعرفة ما كان يقلقها بالفعل. ذلك لأن خبرة عيشي معها، مهما بدت لغيري قصيرةً جداً، قد جعلتني أومن، منذ ساعاتنا المشتركة

الأولى، بأنها ليست مجرد دمية قماشية طيبة وحنونة ومنفتحة على الآخرين فقط، بل وفي غاية الذكاء قبل أي شيء آخر. ومن ثم فإن سعة أفقها لابدّ قد جعلتها تستوعب أن حساسيّة اللقاء المصيري، الذي جمعنا أنا ورايا وزوجها بالأمس، ما كانت لتسمح لرايا بالتعبير عن شوقها إليها ولا حتى إليّ، فكّرتُ فيما كنا نخرج من قطار المترو لنجتاز محطة واحدة فقط في قطار آخر على الخط الدائري. وقفت في عربة القطار الجديد قرب باب الخروج بسبب قرب المسافة، ثم جعلتُ أنظر مليّـًا إلى وجه الدمية عمومـًا وإلى إطباقة فمها المرسوم بخيوط حمراء بشكلٍ خاص. ومع وصولنا إلى محطة كومسومولسكيا أصبحتُ مقتنعـًا، كأنما بقوة كافية، بأن ما كان يقلق الدمية في الواقع إنما هو، حصراً، شعور شخصيّ بخسارةٍ موشكةٍ لشيءٍ ثمين. لم أكن قادراً على تحديد هذا الشيء للأسف، إلا أنني كنت أشعر، بوضوح تام، بأنه عزيز جداً عليها، وأن حياتها سوف تتنغّص كثيراً من دونه. ثم قدّرتُ، على سبيل التخمين لا أكثر، أن يكون هذا الشيء قد لعب دوراً مهمـًا في أحداث حياتها السابقة التي جرت تحت السرير الذي أنام عليه دون أن أشعر. لكنْ ماذا يمكن أن تخسر دمية قماشية مثلها في ظلام شبه دامس تحت سريرٍ منصوبٍ في شقة تقع في بناية ضخمة في شارع غالوشكين؟ كنت أستطيع طبعـًا أن أتخيل وأقتنع بسهولة أنها لم تكن تعيش وحدها تحت سريري، وأن فضولها وحبها للحياة قد دفعاها إلى مخالطة طيفٍ واسعٍ من الكائنات المختلفة هناك. ولا بدّ أن صروف الدهر قد علّمتها أنّ الحياة لا تستقيم دون خدينٍ مخلصٍ، فوثّقت عرى الصداقة والمحبّة مع كائنٍ ما أثبت لها، في أيام الشدّة، أنه السند المحب الأمين، فما عادت تطيق الابتعاد عنه لحظةً واحدة- ربما

كان دمية قماشية ثانية قد أجدها، هي الأخرى بمحض المصادفة، تحت سريري ذات يوم. وربما كان كلباً بلاستيكياً صغيراً، أو بقرةً معدنية ملوّنة بحجم الكف، أو فأراً حقيقيةً، من لحم ودم، تعيش في غرفتي منذ زمن بعيد دون أن ينتبه إليها أحد. ولا بد أن الدمية لم تتوقع أن تسرقها حياتها الجديدة في النور إلى هذه الدرجة. ولعلها بدأت تخشى، منذ لقائها الأول بنونّا، من أن تأخذها السعادة الجديدة بعيداً جداً عن شركائها في حياتها المظلمة السابقة تحت سريري، فظهر إحساسها بالخسارة، بصورة أوضح، على ملامحها منذ أن خرجنا معاً من البيت. لا بدّ أنها كانت تدرك جيداً إذاً أن سعادتها بلقاء نونّا لن تعوّض لها خسارة توأمها الدمية مثلاً، أو كلبها البلاستيكي، أو بقرتها المعدنية الملوّنة، أو فأرها الحقيقية التي لم يلاحظها أحد أو غير ذلك من الكائنات العزيزة التي تعلّقت بها. ثم اعتقدتُ، ونحن خارجان من المحطة، أنها لم تكن تريد أن تعترف بخسارتها الفادحة المحتملة، فقد كانت تنكرها وتستبعدها وتقاومها بكل قواها. ولم أستغرب أبداً أن يكون تمسّكها بسعادة لقائها بنونّا، طيلة الطريق، وسيلةً مثاليةً لدحض إحساسها المؤلم العنيد بالخسارة. هذا لا يعني طبعاً أن سعادتها كانت مجرّد قناع سطحيّ لإحساسها بالخسارة، أبداً، فقد كنت أرى وألمس حرارة مشاعرها بلقاء نونّا، وهي تقف بين أصابعي إلى جانب باقة الورد الجوري. ثم بدا لي أنني لم أكن، أنا نفسي، بريئاً تماماً من هذه المشاعر، فقد لاحظتُ، ونحن نجتاز الشارع العريض باتجاه محطة القطار الكهربائي، أن الدمية كانت تنظر إليّ بطريقةٍ مُلغزةٍ بدتْ معها كما لو أنها قد قبضتْ عليّ متلبّساً بالسعادة نفسها التي كانت تشعر بها.

عندما وصلنا إلى رصيف المحطة، الذي تركتْنا عليه نونّا يوم الثلاثاء، كان علينا أن ننتظر ما يقرب من خمس دقائق قبل أن تشير الساعة إلى الخامسة. ثم تبيّن لنا، بعد قليل، أن نونّا قد وصلت، هي الأخرى، في وقتٍ مبكّر، فقد لاحت لنا خارجةً من مبنى المحطة باتجاه الرصيف الذي كنا نقف عليه. بدت لي من بعيد جذّابة بشعرها الأشقر المرسل على كتفيها وثوبها الأصفر الذهبي القصير الذي يُظهر بياض ساقيها وذراعيها العاريتين من الأكمام، وقد تدلّتْ من كتفها حقيبة يد حمراء. وحين اقتربتْ منّا قدمتْ لي تذكرة ركوب كنت أستطيع العودة بها أيضاً، فيما احتفظت لنفسها بتذكرةٍ أخرى.

وكنت قد حضّرت نفسي لأن أقدّم باقة الورد لها، غير أنها بادرتني فوراً بأن أسمح لها بحمل الدمية وأن أُبقي باقة الورد عندي ريثما نصل إلى بيت جدّتها.

حين صعدنا القطار جلسنا متقابلين. وقد ظلت صامتة، مدةً طويلةً، صمتاً مفعماً بالاحتفاء بالدمية وبي بالدرجة نفسها. ولعلها انتبهت إلى السعادة التي قبضتْ عليّ الدميةُ متلبّساً بها قبل قليل، فما أرادت كأنما، ولا أردتُ، أن أُؤكّدها لها بالكلمات. كنت واثقاً من أنني كنت سأقول لها أشياء لا أقصدها. لكنها كانت تُشعرنا، من وقت إلى آخر، بأنها ليست بأقل إحساساً بالسعادة التي تغمرنا أنا والدمية الجالسة الآن في حضنها. وأحياناً كانت تمنحنا ابتساماتٍ قصيرة تتراءى من بعيد على شفتيها الزهريّتين وفي عينيها العسليتين. وفي بعض الأحيان كانت تسرح، عبر النافذة، في ظلال الغابات والبيوت المتناثرة المتدفّقة في عكس اتجاه القطار الذي كان يجتازها في ضواحي موسكو.

- اليوم عيد ميلادي!

قالت مبتسمة ابتسامة خجولة هذه المرّة، وقد التفتتْ إليّ لِلَحظات، ثم عادت تنظر إلى النافذة.

- عيد ميلاد سعيد!

قلتُ بعد صمت قصير، وقد أحببتُ كثيراً لو كان معي شيء مميّز ومناسب أقدمه هديةً لها بهذه المناسبة.

- أشكرك!

قالت، وهي تضمّ الدمية إلى صدرها بقوة، فشعرتُ كما لو أنها قد ضمّتني في اللحظة نفسها. ثم كذّبتُ شعوري، وخشيتُ من أن تكون الآن تنتظر مني، بصبرٍ نافدٍ ربما، أن أقدم لها الدمية هديةً في عيد ميلادها. كانت الدمية مفتونةً بضمّة نونّا وتنظر إليّ بعينيها السعيدتين، وقد لاح فيهما، بوضوح أكبر، شعورها المؤلم بخسارتها الموشكة الأكيدة. كنت على يقين تقريبًا من أنني لا أملك الحق الكامل في تقديمها هديّةً لها، كما لو أن أمرها، في الحقيقة، لم يكن متعلّقًا بي فقط. ولعل الدمية، بسبب الحرارة اللذيذة التي كانت تستمدّها من حضن نونّا، لم تنتبه إلى أن ما كان يعتمل في نفسي، وفي نفس نونّا على الأغلب، إنما كان يتعلّق بتقرير مصيرها. ولربما كانت ستوافق على أن تصبح دمية نونّا دون تردّد لو كان الأمر متروكًا لها فقط في هذه اللحظات بالذّات. ثم تحسّبتُ من أن أكون قد ساهمتُ، بصورةٍ من الصور، في دفعها إلى الموافقة على ذلك دون أن أقصد. وكان من غير المعقول طبعًا أن أسحبها من حضن نونّا لأثبت لها براءتي من أي خطوة أحادية من طرفها يمكن أن تقرّر بها مصيراً جديداً لحياتها في المستقبل. لم أكن، في الحقيقة، جاهزاً لمثل هذه الخطوة

المتهوّرة التي كانت ستشعرني حتماً بألمٍ شديد. ثم عثرتُ على خيط مفاجئٍ رفيع يربط كأنما بين هذه الخطوة وبين خسارة الدمية التي ظلّت تومض، أكثر فأكثر، في إطباقة فمها المرسوم بخيوط حمراء. لقد خيل لي فجأةً أن خسارتها الموجعة التي كانت تتوقعها ستتحقق فوراً إذا قدّمتُها هديةً لنونّا، أو إذا قرّرتْ، هي، مصيرها بنفسها ورضيَتْ بالعيش معها دون موافقتي. ثم سرعان ما تبين لي أنها، في الحقيقة، لم تكن لتجرؤ على القيام بتلك المغامرة بأيّ حال. فقد أصبحتْ الآن تشخص إلي بعينيها، كأنما بضراعةٍ وإصرار، لكي أرى كيف كانت سعادتها بنونّا وإحساسها بالألم الشديد من الخسارة الموشكة ينموان معاً في روحها إلى درجةٍ لم تعد تطيقها. ثم بدا لي، بعد ذلك بلحظات، أنها تكاد تصرخ من شدة الألم والسعادة وتحضّني، في الوقت نفسه، على أن أفعل شيئاً من أجلها. كانت، كأنما بكلّ إرادتها، تترك لي، أنا، أن أقرّر الآن مصيرها على وجه السرعة، كما لو أنها لم تعد قادرة على تحمّل عجزها عن الاختيار أكثر من ذلك.

- للأسف لا أستطيع أن أهديك الدمية في عيد ميلادك.

قلت أخيراً لنونّا بصوت منفعل مذنب خفيض.

- أعرف.

أجابتني، وهي تبتسم ابتسامة ودودة، ثم عادت تنظر إلى الغابات والبيوت المتناثرة والمحطات المتعاقبة في النافذة.

- القطار محكوم بسكّتيه.

قالت كأنما لنفسها بعد قليل، ثم أردفتْ:

- أتمنى لو كنتُ دراجة هوائية.

نظرتُ الآن إلى وجه الدمية، فألفيتُها ما تزال تشعر بسعادة وجودها في حضن نونّا، غير أن حزنًا رهيفًا قد حلّ محلّ إحساسها السابق بالخسارة. وما كان بوسعي أن أفكّر بحزنها، فقد نهضت نونّا فجأة من على مقعدها.

- سوف ننزل بعد قليل.

قالت،

فنهضتُ وتبعتُها.

II

في مدخل البناية، حيث يقع بيت جدتها، ردّت نونّا الدميةَ إليّ، وأخذت مني باقة الورد الجوري.

- أشكرك.. باقة جميلة جداً.

قالت وقد احمرّ وجهها من شدّة التأثّر. ثم سبقتني إلى باب مغلق في الطابق الأرضي، فتحتْه وأومأت لي بأن ألحق بها.

- لن نستخدم المصعد، البيت في الطابق الثاني.

قالت، وهي تصعد الدرج أمامي. ثم أبلغتني بأننا، الدمية وأنا، سوف نتعرّف الآن إلى أصدقائها.

وقفنا بعد قليل أمام أحد الأبواب في الطابق الثاني. قرعتْ نونّا الجرس، ثم أخرجت، من حقيبة يدها الحمراء الصغيرة، مفتاحاً فتحتْ به باب الشقة، ودعتني إلى الدخول.

كان في استقبالنا، في الموزّع، شاب قدّم نفسه لي باعتباره فولوديا، ثم وجّهَنا، بإشارةٍ لطيفةٍ من يده، إلى باب مفتوح إلى يمينه، وقد أدار ظهره لبابين مغلقين كان لا يفضّل كأنما أن نتّجه إليهما الآن.

كان في الغرفة امرأة ثلاثينية توقّفت، مع دخولنا الغرفة، عن مداعبة أوتار غيتار بين يديها، ثم نهضت من مكانها مع غيتارها، اقتربت منّي، صافحتني وقدّمتْ نفسها.

- غالا.

دخل الغرفة بعدئذٍ رجل خمسيني أصلع يضع نظّارة طبية ذات عدستين سميكتين، اقترب مني، صافحني وقال:

- انا مكسيم فاديميتش! معلّم مدرسة ثانوية منذ ثلاثين عاماً.

قدّمتُ نفسي للجميع، وقد بدا لي، من ملامح وجوههم، أنهم كانوا يعرفون، بشكلٍ جيد، من أكون. لا بدّ أن نونّا كانت قد نقلت إليهم تفاصيل انطباعاتها عنّ لقائها الأول بي وبالدمية في ساحة بوشكين، فكّرتُ. ثم اعتقدتُ أنهم كانوا يُظهرون سعادتهم بنا بهذا السخاء كرمى لها، وربما بتوصيةٍ منها قبل أن تخرج لإحضارنا من محطة القطار الكهربائي.

- هذه دمية رايا.

قلت بعد أن اتجهتْ إليها عيونهم المفعمة بالفضول.

ثم بدا لي أنهم كانوا يعرفون، بشكلٍ جيدٍ أيضاً، من تكون رايا بالنسبة لي، فلم يكن كأنما ضرورياً لأيّ منهمً أن يسألني عنها.

- اليوم عيد ميلاد نونّا، كما لابد أنها قد أخبرتك في الطريق، وأودّ، قبل أن نبدأ احتفالنا بهذه المناسبة، أن أرحب بك صديقاً للجميع.

قال فولوديا.

- وبدمية رايا أيضاً

أضافت نونّا.

- وبدمية رايا بكل تأكيد.

أردف فولوديا، متناولاً باقة الورد من يد نونّا برشاقة راقص، ثم تراجع باتجاه الباب خطوتين، محسوبتين كأنما بدقة مُسبَقة، قبل أن يتابع كلامه:

- قبل أن نتوجه إلى الطاولة أرجو أن نتريّث هنا بعض الوقت..
أما أنت يا عزيزتي نونّا فأرجو منك أن تخلعي حذاءك.

بُهتنا أنا ونونّا فقط.

- أخلع حذائي؟!!

قالت نونّا، وهي تقترب مني وتقف إلى جانبي.

- نعم، من فضلك!

أكّد لها فولوديا مبتسماً. ثم استأذن بغمزةٍ واعدةٍ كأنما بشيء سارّ، وقد علّق سبّابته المنتصبة في الهواء دلالةَ أنه لن يتأخر طويلاً. ثم خرج، بملامح احتفاليّة استعراضية، تاركًا وراءه باب الغرفة مفتوحًا.

استجابت نونّا إلى ما طُلِب منها أن تفعل، وقد ظهر شيء من الاستغراب المحبّب على وجهها إزاء الطريقة التي خرج بها فولوديا من الغرفة، بينما بدا مكسيم فاديميتش وغالا مثل متواطئَيْن مكشوفَيْن.

نظرتُ إلى نونّا، وقد فهمتُ أن أصدقاءها الثلاثة قد حاكوا لها، في غيابها، مفاجأةً سارّة. وكانت، في هذه الأثناء، تنظر إليّ بطريقة شعرتُ معها بأننا قد نكون معنيّين، أنا والدمية أيضًا، بما سيحدث بعد قليل. ثم لم نعرف كيف ننفق الوقت في انتظار ما سيحدث، لولا غالا التي عادت، من جديد، تداعب أوتار غيتارها المعلّق برقبتها. ظللنا، نونّا ومكسيم فاديميتش وأنا والدمية، ننظر إلى حركة أصابعها دون أن نصغي إلى رنين أوتارها، فقد كنا نتشوّق إلى عودة فولوديا. وحين ظهر علينا كان، بثقةِ وغموضِ ساحرٍ في سيرك، يحمل طستًا أحمر وضعه أمام نونّا.

- اخلعي الآن جوربيك، من فضلك، وقفي حافيةً داخل الطست.

كان الطست مملوءاً إلى نصفه بفراولة ناضجة منظّفة من الأوراق.

بدت نونّا الآن مأخوذة كأنما بسعادة لم تنتظرها، وقد اكتسى وجهها بحمرة انفعال مفاجئ، وهي لا تتوقف عن منح فولوديا نظرات امتنانٍ ومحبّة. وفيما صارت تخلع فردة جوربها، بدأتُ أنشغل، ككلّ الآخرين، بالظهور البطيئ لقدمها الصغيرة البيضاء المشرّبة بلون زهريّ ناصع فوق كعبها الطريّ وعلى نقاء أخمصها حتى نهايات أصابعها المنمنمة. وحين نزلتْ بها إلى أعماق الفراولة في الطست الأحمر أمسكتْ فجأةً بذراعي، لكي تتوازن، قبل أن ترفع قدمها الثانية وتخلع فردة جوربها الأخرى.

انحنى فولوديا والتقط جوربيها من الأرض، بعنايةِ مَنْ يقطف ثمرتين شهيّتين هشّتين من شدة الاستواء، ووضعهما، برفق، فوق مقعد قريب. وكنا، أنا والدمية وغالا ومكسيم فاديميتش، نصوّب الآن عيوننا إلى قدمها الثانية ونستمتع كأنما جميعاً بغيابها المتمهّل، هي الأخرى، في قلب الفراولة.

- تعلّمت من أبي كيف يُصنع نبيذ الفراولة، وقد اعترف لي، ذات مرة، بأن النبيذ يكون لذيذاً جداً إذا هُرسَتْ ثمارُه بقدمي امرأة تحبُّها في عيد ميلادها.

قال فولوديا مفتوناً بقدمي نونّا اللتين بدأتا بهرس الفراولة داخل الطست.

- سوف يكون نبيذ قدمَيّ نونّا جاهزاً في عيد ميلادي، أي بعد ثلاثة شهور ويومين بالضبط.

تابع فولوديا مبتهجاً، كمن يؤكّد واحدةً من محاسن المصادفات.

- أنتم، بالمناسبة، مدعوون جميعاً طبعاً إلى عيد ميلادي منذ الآن.

أردف، وهو لا يشيل عينيه عن قدمَيّ نونّا.

وكانت قدماها، المخضّبتان الآن بالحمرة النضرة، تصدران حفيفاً خفيفاً خاصاً في تناوبهما على الدخول في أعماق الفراولة والخروج منها، بينما كانت عيناها تكتسيان بشبكةِ شعيرات دموية واهية، كأنما من لذّة إحساسها بملمس الطراوة الحيّة المتهتّكة الحمراء تحت قدميها الحافيتين. ثم بدا لي أن شفتيها ارتعشتا فجأة، وهي تنظر إلى وجه الدمية في يدي الأخرى. وكدتُ أظن، في تلك اللحظة، أنها فقدت توازنها عندما تشبّثتْ، بقوة مفاجئة، بيدي التي كانت ما تزال تمسك بها. نظرتُ إلى حيث كانت تنظر، فأدهشني أن سعادة الدمية بنونّا كانت ما تزال مشوبةً بحزنٍ غامضٍ عميق لم تسنح لي الفرصة، الآن أيضاً، لأن أفكّر به. فقد عدت أستمتع بمتعة نونّا بقدميها وهما تهرسان الفراولة، وقدّرتُ أنها لابدّ ستشعر بمتعة أكبر بما لا يُقاس لو تسنّى لها، الآن، أن تغطس حتى عنقها في بانيو مملوء بالفراولة الناضجة العارية من الأوراق.

- يعود تاريخ الفراولة إلى الرومان، لكنْ هناك من يعيده إلى الإغريق، وإن كنت، شخصياً، لا أملك دلائل قاطعة حتى الآن على ذِكر الفراولة في ما وصلنا من أعمالهم المكتوبة. وكنت قد قرأت، في مجلة غير اختصاصية، خبراً غير موثق أيضاً مفاده أنهم عثروا، خلال أعمال تنقيب في سويسرا، على حبات فراولة تنتمي إلى العصر الحجري. الذي أعرفه، بشكل جيد، أن فرجيل اعتبر الفراولة من محاسن الحقل، وحذّر الأطفال، عند قطفها، من الأفاعي التي تختبئ في العشب. كما ذكرها أوفيد في كتابه "التحولات".

قال المدرّس مكسيم فاديميتش وهو يتابع، بعينيه، قدمَيّ نونّا المشغولتين بهرس الفراولة، مظهراً مخارج حروفه ومحافظاً على وقفاتِ صمتٍ قصيرة تكاد لا تُلاحَظ بين كلماته.

وكان فولوديا قد غادر الغرفة، قبل أن يبدأ مكسيم فاديميتش كلامه، وقد عاد الآن يحمل طستاً آخر مملوءاً بالماء ورغوة الصابون، ومن كتفه تدلّت منشفة برتقالية.

- لا أنسى ليلة صيفية نمنا فيها، نونّا وأنا، على سرير واحد في غرفتي منذ سنوات. كان سطح السرير يحاذي حافة نافذتي الواسعة المفتوحة على مصراعيها، وكنا قد أطفأنا مصباح الغرفة لكي لا يتسلل إلينا البعوض. كنا نستند إلى ظهر السرير ونطل، عبر نافذتنا العالية، على حرش مظلم من أشجار الصنوبر. وأحياناً كنا نراقب خطاً مستقيماً طويلاً من مصابيح شارع بعيد كانت تمضي فيه أحياناً سيارات بدت لنا طيلة الوقت صغيرة جداً إلى درجة أننا لم نكن نسمع ضجيج محركاتها. نادراً جداً ما تبادلنا الكلام في تلك الليلة. كنا من وقت إلى آخر نلتقط برؤوس أصابعنا حبات فراولة من إناء كان بيننا على السرير، نأكلها ببطء ونهم ولا نترك منها، في العتمة، إلا ما ينجو بالمصادفة من أوراقها الغضة الصغيرة.

قالت غالا، بصوت من يتذكر حلماً، وهي تنظر إلى نافذة مفتوحة تطل على بناية في الطرف المقابل من الشارع.

- عندما سأذهب لزيارتكِ في المرة القادمة سوف أنام عندكِ أيضاً.

قالت نونّا بالنبرة المتداعية الحالمة التي تحدثت بها غالا، وقد كفّت الآن عن هرس الفراولة وجعلت تنظر إلى رغوة الصابون في الطست الذي وضعه فولوديا إلى جوار الطست الذي كانت تقف فيه.

- تستطيعين الآن يا عزيزتي أن تنتقلي إلى الطست المجاور.

قال فولوديا مخاطباً نونّا.

وإذ انتقلتْ إلى الطست الجديد، حمل فولوديا طست الفراولة المهروسة وخرج به من الغرفة باحتفاء ظاهر.

- غير أن ما دعاني دائماً إلى التأمّل كان المنديل الذي طرّزه شكسبير بالفراولة ثم جعل بطله المغربي عطيل يقدمه هديةً لزوجته ديدمونة. دائماً كنت أسأل نفسي ما الذي دفع مؤلفاً مسرحياً عظيماً مثله لأن يختار الفراولة بالذات. وأحياناً يخطر بي أن بطلته المسكينة ديدمونة كانت ضحية هذه الثمار الحمراء الشهيّة المطرّزة في هدية زوجها عطيل، دون أن أعرف كيف أثبت ذلك.

قال مكسيم فاديميتش، وقد التفت إليّ فجأةً، فخيّل لي أنه كان يتوقع مني بالذات أن أفسّر له الآن خواطره المعذِّبة بشأن نهاية ديدمونة المُفجعة.

- للأسف، لم أكن أعرف قبل الآن أن منديل ديدمونة كان مطرزاً بالفراولة.

قلتُ لمكسيم فاديميتش، وأنا أظنّ أن السيد خليل مطران، الذي قرأت "عطيل" بترجمته، قد استخدم إسماً قاموسياً ميتاً للفراولة، ما جعلني أعتقد آنذاك أن المقصود شيء آخر.

- هل تستطيعين يا عزيزتي الجلوس على المقعد الذي يقع وراءك مباشرة؟

قال فلوديا مخاطباً نونّا، وكان قد عاد من جديد إلى الغرفة وقرفص أمام طست الماء ورغوة الصابون الذي كانت تقف فيه.

- بلى، أستطيع.

أجابت نونّا، ثم جلست.

- كان شكسبير يستطيع ببساطة أن يطرّز منديل ديدمونة بالكرز أو بالعنب، لكنه لم يفعل. لا بدّ إذاً من سببٍ وجيه دعاه إلى تطريزه بالفراولة، لا بدّ.

أكّد مكسيم فاديميتش.

- ما يزال سريري بمحاذاة النافذة يطلّ في ليالي الصيف على حرش الصنوبر، والسيارات الصغيرة الخرساء ما تزال تمرّ في الشارع البعيد حتى الآن..

قالت غالا.

وكان فولوديا الآن قد غاص بكفّيه تحت الماء ورغوة الصابون، حيث انفرد بقدمي نونّا. كانت أصابعه تتراءى لي بين الفقاعات المشتّتة، وهو يمرّ بها، برفق وبطء، على ظاهر القدمَيْن وعلى الأخمصين وبين الأصابع، يدلّكها إصبعاً إصبعاً بمودّة ومتعة، ثم ينزلق إلى الكعبين، يدوّر حولهما راحتيه ويثير حولهما زوابع صغيرة من الرغوة، مرةً واثنتين وثلاث، ثم يزحف إلى الكاحلين حتى إذا تجاوز، فوق سطح الماء، الحدّ الذي كانت قد وصلت إليه الفراولة المهروسة على ساقيها، عاد أدراجه منزلقاً على قدميها إلى قلب الماء الذي بدأ يصبح زهريّ اللون. ثم حين

تأكّد أخيراً من إزالة ما علق من آثار الفراولة على قدميها انتشل فجأةً إحداهما من الماء.

- ومن المعروف، تبعاً لرواية شكسبير، أن ساحرة مصرية كانت قد أعطت ذلك المنديل لأم عطيل لكي يبقى أبوه مغروماً بها فلا يخونها، وأوصتْها بأن تحافظ عليه لأن زوجها سوف ينصرف عنها إلى امرأة أخرى إذا فقدت المنديل. ولما حضرتْها الوفاة أعطته لابنها عطيل لكي يمنحه لزوجته فيضمن إخلاصها، وهكذا فعل.

تابع مكسيم فاديميتش كلامه.

- أشكرك يا فولوديا على مفاجأتك...

قالت نونّا، وكان فولوديا قد أنهى تجفيف قدمها الأولى، بالمنشفة البرتقالية المتدلّية من كتفه، ثم بدأ يُدخِلها، بحنان ورفق، في فردة جوربها.

كانت غالا، في هذه الأثناء، قد انسحبت مع غيتارها من الغرفة، ثم لحق بها مكسيم فاديميتش الغارق بمنديل ديدمونة حتى الآن. ولم أكن متأكّداً مما إذا كان عليّ أن ألحق بهما، فتريّثتُ في مكاني أنتظر إشارةً من نونّا. ثم زاد من حرجي أنني فهمتُ، من بروفيل فولوديا، الذي كان قد بدأ بتجفيف قدم نونّا الثانية، أنه كان يفضّل لو أنني لحقتُ بغالا ومكسيم فاديميتش في الوقت المناسب. وما كنت لأتعمّد طبعاً أن أثقل بوجودي على انفراده بنونا. فبدا كأنما عليّ أنني قد قررت الآن أن ألحق بغالا ومكسيم فاديميتش، وإن متأخراً، مع أنني لم أكن واثقاً من الباب الذي سيكون عليّ التوجّه إليه بعد خروجي من الغرفة.

- انتظر!

قالت لي نونّا، وهي تدخل قدمها الثانية في فردة حذائها، بينما نهض فولوديا بطست الماء.

- سوف نتابع احتفالنا في المطبخ.

قال لي فولوديا قبل أن يخرج من الغرفة. وقد أشعرتني نبرته التلقائية الودودة، وكذلك ملامحه النظيفة تمامًا من أيّ ضيقٍ مني، بأنني قد فسّرتُ بروفيله قبل قليل بشكلٍ خاطئ.

- هل نمت البارحة بشكلٍ جيد؟

سألتني نونّا، ونحن نخرج من الغرفة، كما لو أنها لاحظت، الآن فقط، شيئًا من الإرهاق على ملامحي.

- ربما لم أنم بشكلٍ جيد.

أجبت بعد صمت.

ثم دخلنا معًا إلى مطبخ نظيف واسع جيد الإنارة في صدره نافذتان كبيرتان بستارتين مخرّمتين بيضاوين. نباتات زينة متدلّية على الجدران من أصصٍ مثبتة في الأعلى، على شكل جدائل طويلة من الأوراق تكاد تلامس الأرض. وفي الزاويتين إلى جانب كل نافذة يوجد أصيص ضخم ذهبي اللون لنبات جلد النمر بأواراقه المنتصبة مثل أنصال سيوف عريضة خضراء بحوافّ فستقيّة فاتحة. وعلى طاولة كبيرة، في الفسحة بين مكان تحضير الطعام وصدر المطبخ، وُضع الورد الجوري، مع زهور متنوعة أخرى، في مزهرية صُفّ حولها زجاجتا فودكا، وزجاجة شمبانيا مع مجموعة صحون من المقبلات الباردة والفواكه، وأطباقٍ لخمسة أشخاص.

كان فولوديا يقف أمام الموقد يعاين طنجرة تُستخدم عادة لطبخ البلوف الذي كان ينشر من حوله رائحة الرز المطبوخ مع اللحم والجزر

والبصل والتوابل. وفيما كان مكسيم فاديميتش يجلس، متفكّراً، على أحد الكراسي المتحلقة حول الطاولة كانت غالا تقف عند النافذة وتنظر إلى الشارع من وراء خروم الستارة البيضاء المسدلة.

جلست نونّا على رأس الطاولة، وأشارت لي أن أجلس إلى يمينها، فجلست، وأجلستُ الدمية في حجري. انضمّت إلينا غالا بعد لحظات، وجلست إلى يميني بعد أن وضعت غيتارها فوق كرسيّ مجاور. وبينما ابتعد فولوديا عن الموقد ووقف وراء الكرسي الشاغر بين نونّا ومكسيم فاديميتش، قال إنه قد أطفأ النار تحت البلوف وإنه يستطيع أن يقدمه لنا وقتما نشاء، لكنْ ليس قبل أن نشرب بعض الأنخاب. ثم تناول زجاجة شمبانيا، فتحها وملأ منها كؤوساً وزّعها علينا، ثم تناول الكأس الأخيرة لنفسه دون أن يجلس.

- اسمحوا لي أن أكون أول المتكلمين في عيد ميلاد امرأة أحبها.

قال فولوديا، ثم التفت إليّ وتابع كلامه.

- لا بدّ أنكَ قد لاحظت معي الآن، أنني قد اعترفتُ بالحب لنونّا مرتين منذ وصولك إلى هنا. نادراً جداً ما أفعل ذلك في حياتنا اليومية، ولا أعتقد أنني تعمّدت أن أفعله أمامك، ولكنه، كما ترى، قد حدث.. ربما لأنني أشعر بالقلق من اهتمام نونّا بك وبدمية رايا منذ يوم الثلاثاء. كان المفروض أن لا ينتابني أي قلق من ناحيتك، فأنت في النهاية رجل تحبّ امرأةً أخرى تنتظر قدومها من باكو بصبر نافد، كما فهمتُ من نونّا، وتحمل دميتها معك مثل برهان ساطع على حبك لها. وفوق ذلك فإنني أرى أنك رجل مهذّب وخجول وتقدر مشاعر الآخرين، لكنّك،

بالمقابل، توحي لي، شخصياً، بأنك من الناس الذين يمكنهم القيام بخطوات غير متوقّعة. لهذا السبب لا أريد أن ألعب معك في الظلام. آمل أن لا يكون لديك أيّ مانع من أن تكون الإنارة جيدة في محيط العلاقة الطيبة التي ستنمو حتماً في ما بيننا يا عزيزي، فلا يكون هنالك احتمال للخطأ أو الالتباس أو سوء الفهم. دائماً سعيت إلى أن أكون واضحاً وأن يكون ما يدور حولي واضحاً أيضاً بالدرجة نفسها، الأمر الذي كان يورّطني أحياناً بمواقف لا أُحسَد عليها أبداً. نعم، إنني من ذلك النوع الذي لا يحب المقامرة ولا المغامرة ولا المفاجآت مهما كانت سعيدة. ثم إنني أجد صعوبة كبيرة في أن أغفر لنفسي حين أجدني مخدوعاً رغم كل احتياطاتي التي فُطرتُ عليها. ولأن شخصاً مثلي قابلٌ لأن يتحول إلى موسوس ظَنُون وسيّئ نيّة إلى درجة تجعله ثقيلاً جداً على الأشخاص المُقرّبين إليه، فإنني أفاتح نفسي ومن هم حولي، أولاً بأول، بكل الأشياء التي تتحوّل أمام عيني إلى أحجيات صغيرة في علاقاتي معهم. وهذا ما يُشعرني دائماً بأنني مدين لهم في كل مرة أضطرّهم فيها إلى توضيح أشياء تبدو غالباً بديهية جداً بالنسبة إليهم. ولا بد لي من الاعتراف بأن نونّا قد تحمّلت الجزء الأكبر من هذا العبء ولم تتذمّر منه حتى الآن. ليتك يا عزيزي تستطيع أن تتصور ما الذي تعنيه امرأة مثلها بالنسبة لي. لقد وقعت في غرامها من النظرة الأولى. جاءت إلى مكتبة الآداب الأجنبية التي أعمل فيها. استعارت روايةً من الروايات المبسّطة المخصصة

للطلاب الذين يتعلّمون الإنكليزية، وذهبت إلى قاعة القراء تفكّ ألغازها بمساعدة قاموس التقطته من بين القواميس المتاحة فوق إحدى الطاولات، ثم بعد ما يقرب من ساعتين أعادتها إليّ. وقبل أن تغادر نبّهتني إلى أن المونستيرا، في الأصص الثلاثة الموجودة في قاعة القراء، لم تُسْقَ منذ أكثر من أسبوعين، وأن هذا النبات حسّاس جداً، برغم ضخامته، ويحبّ كثيراً أن يُسقى بانتظام وبكميّة لا تزيد ولا تنقص، كما يفضِّل، إذا كان ذلك ممكناً، أن يُترك الماء في إبريقه في الخارج طوال الليل، على سطح المكتبة مثلاً، قبل أن يُسكَب في أصيصه صباح اليوم التالي. لا أريد أن أسرد عليك الآن ماذا حدث بعدئذٍ وكيف أصبحت أعيش معها، هنا في بيت جدتها، منذ أكثر من سنتين. أردت فقط أن أعترف أمامك، وأمام الجميع، ببعض الأحجيات، الساذجة على الأغلب، التي بدأت تتشكّل لديّ بخصوصك. وها أنا أرفع الآن نخبها، نخب امرأة وجدتْ فيّ ما لم أستطع أن أجده بنفسي. دائماً كنت أظن أنني شخص يصعب تحمّله لمدة طويلة في علاقاته الحميمة، بدليل كل قصص الحب الفاشلة التي عشتها قبل أن تظهر نونّا في حياتي. من دونها ما كنت تعرّفتُ على احتمالات جديدة، مدهشة غالباً ومؤلمة أحياناً، للحب والصداقة والعلاقات غير المرئية، وغالباً غير المدرَكة بشكل جيد، بين الناس في كل مكان يتواجدون فيه كأصدقاء وعشاق وزملاء عمل وغرباء في الشوارع وفي المطاعم وفي محطات القطارات ومواقف

الباصات. وإذا كنت ما أزال أخيب أملها أحيانـًا بعدم هضمي لكل تلك الاحتمالات وبمعاناتي منها في أحيانٍ أخرى، فلأنني ما أزال أشعر في نفسي بقيود غامضة عنيدة ولدتْ كأنما معي، ولا أعرف ما إذا كانت يدا نونّا ستصل إليها ذات يوم لتخلّصني منها... أدعوكم جميعـًا أصدقائي الأعزاء إلى أن تشربوا معي نخب هذه المرأة الجميلة في عيد ميلادها.

شربنا،

ثم تناول فولوديا زجاجة الشمبانيا وأعاد ملء كأس نونّا. وقبل أن يعيد الزجاجة إلى مكانها سألني عن ما إذا كنت سأتابع شرب الشمبانيا أم أنني أفضل الآن شرب الفودكا. وإذ لم أعترض على الفودكا، تناول زجاجة فودكا، فتحها وملأ منها أربعة أقداح صغيرة قدّمها لغالا ولي ولمكسيم فاديميتش وترك الأخير لنفسه.

تناولت غالا غيتارها من الكرسي المجاور وانتظرت ريثما استقر فولوديا في كرسيّه إلى يسار نونّا، ثم غنّت أغنية عن امرأة غريبة تظهر فجأةً في باب رجل يعيش في مكان معتم موحش تحت سقف يزرب منه الماء. لا يصدّق الرجل أن امرأة جميلة مثلها يمكن أن تأتي إليه، وكما لو أنه يشعر بضآلته أمامها، يطلب منها أن لا تظل واقفة في العتبة- ادخلي من فضلك! من أنت؟ من أين جئتِ؟ إنني رجل مضحك، ولا بدّ أنكِ قد أخطأتِ بالباب وبالشارع وبالمدينة وبالقرن.

بعد نهاية الأغنية التفتت غالا إلى نونّا وقالت.

- أشعر أحيانـًا أنني امرأة لا تتعب من انتظار شخص غريب يطرق بابها بالخطأ.

- دائماً أتعلّق بأشياء غير متوقعة لم ألاحظها من قبل.

قالت نونّا، وهي تنظر إلى كأسها، ثم التفتت إلى فولوديا، وتابعت كلامها.

- أنا سعيدة معك حقاً يافولوديا.. وإذا اعتقدتَ يوماً أنني قد خدعتك، أو أنني سوف أخدعك ذات يوم، فاعلم أنني لم، ولن، أخطط لذلك.

كانت نونّا، في هذه الأثناء، تبتسم ابتسامة عذبةً لفولوديا، وقد مدّت يدها إلى كفّه المسنودة إلى حرف الطاولة، وضغطت عليها ضغطة رقيقة. وفيما عادت أصابع غالا تداعب أوتار الغيتار برفق شديد، بدت أصابع مكسيم فاديميتش، بحركاتها الحذرة الفاترة فوق جبينه، كما لو أنها تجلو الظلال الأخيرة التي ما تزال متناثرةً هنا وهناك بين أفكاره.

وهنا شعرتُ بأن الدمية كانت ترتعش في حضني، فنظرتُ إليها. كانت تصوّب عينيها على يد نونّا التي ظلّت مستلقيةً فوق يد فولوديا. وبدا لي أن حزنها الرهيف، الذي بدأت تشعر به بعد أن أعلنتُ لنونّا في القطار الكهربائي أنني لن أقدمها هدية لها، قد تحوّل الآن إلى ضيقٍ شديدٍ وألمٍ ظاهر. كان واضحاً بالنسبة لي أنها لم تفهم ما الذي جعل نونا تُبقي يدها فوق يد فولوديا حتى الآن. ولعلّها ظنّت أن نونا كانت تعرف أن ذلك سيؤلمها، فأرادت أن تدفعها، بهذه الطريقة، إلى المبادرة بالتعبير الصريح عن حقيقة مشاعرها نحوها الآن أمام الجميع. وقد عزّ عليّ كأنما أن أترك الدمية وحدها في هذه اللحظات الأليمة، فقررتُ أن أفصح في الحال ببضع كلماتٍ معبّرةٍ، دون مواربة ولا مكابرة، عن مشاعرها الحارة نحو نونّا في نخبٍ أرفعه الآن مباشرةً بعد النخب الذي رفعه فولوديا. سوف أعترف

لنونّا، دون لبس، بأنني اكتشفتُ في هذا الصباح فقط أن لقاءنا الأول معها في ساحة بوشكين قد ترك من الانطباعات القوية لدى الدمية ما جعلها لا تكفّ عن التفكير بك يا عزيزتي منذ يوم الثلاثاء. ولعلّ معاناتها، من الظلام الخانق في حقيبتي المقفلة عليها طيلة تلك الفترة، قد ضاعفت في نفسها تلك الانطباعات المضيئة ودفعتها إلى أن تفكّر بكِ كما تفكّر بِبَصيص نور أكيد في آخر نفق. وأودّ هنا أن أشير إلى أنكِ قد نجحتِ بهزّ قناعاتٍ وأولوياتٍ كانت تعتبرها، على ما يبدو، راسخةً طيلة حياتها. وقد أرغمها ذلك، بعد خروجها من الحقيبة مباشرةً، على موازنات مؤلمة بين تلك القناعات والأولويات في ضوء ما تراكم في نفسها من الأفكار الجديدة والانفعالات العميقة منذ لقائنا الأول حتى الآن. وهي إذ تهنئكِ معي الآن بعيد ميلادك وترفع نخبكِ بيدي، تودّ أن تلفت نظرك أيضاً إلى أن شيئاً لم ولن يتغيّر عملياً في مشاعرها نحوك بعد أن اعتذرتُ عن عدم تقديمها هديةً لك في هذا اليوم المميّز.

وكنت أشعر، وأنا أفكّر بالنخب الذي سأخاطب به نونا، أن الدمية كانت تردّد ورائي في نفسها كل الكلمات التي كانت ترِد ببالي، حتى لقد خيل لي أنها كانت الآن تلهث في حضني من شدّة الانفعال والخجل. ثم خشيتُ، لسببٍ من الأسباب، أن أتراجع عن قول ما فكّرتُ به لنونّا في اللحظة الأخيرة، فقررتُ أن أرفع، في الحال، النخب الجاهز الذي حضّرته في ذهني. أمسكتُ بقدحي ونهضتُ فوراً من على الكرسي، فالتفت إليّ الجميع مُنصِتين.

– البارحة زارتني رايا وزوجها.

قلت،

ثم أردفت:

- بدا لي زوجها شخصاً لطيفاً، في البداية، إلى درجة أنني لم أستبعد أن يصبح صديقي لو أنني التقيته في ظرفٍ آخر. وقد جاءت به رايا إلى بيتي لكي تسألني أمامه عما إذا كنت سوف أتركها. كان يعتقد أنه سوف يجعلها تحبه من جديد إذا تركتُها. وعندما أجبت بأنني لن أتركها ذكّرها بالطفل الذي كانا يفكّران معاً بإنجابه قبل عام، فأصيبت رايا بنوبة صرع قوية. وبعد أن نقلناها، أنا وزوجها، إلى سريري بكى بكل قواه. ثم اقترحتُ عليه أن أحدثه عن السبب الذي جعلني لا أتعلّم السباحة في نهر الفرات، لكنه رفض اقتراحي بجفاف واضح. نهضت، عندئذٍ، من شدّة خجلي منه ومن نفسي، وخرجت من الشقة ولم أعد إليها قبل منتصف الليل.

أنهيت كلامي، وأنا أعتقد أنني قلت، بالضبط، كل ما أردت أن أقوله لنونّا في عيد ميلادها. ثم استدركت في اللحظة الأخيرة:

- بصحتك عزيزتي نونّا، أتمنى لك في عيد ميلادك الصحة والسعادة والحب!

ثم شربت قدحي واقفاً وجلست.

- ولماذا لم تتعلّم السباحة في نهر الفرات؟

سألني فولوديا مباشرةً بعد أن شرب النخب الذي رفعته، متباهياً كأنما بإحساس يده الأخرى التي كانت ما تزال مطمئنة تماماً تحت يد نونّا.

لم أعرف ما إذا كان من المناسب حقاً في تلك اللحظة أن أشرح لفولوديا بالذّات سبب إحجامي عن تعلّم السباحة في نهر الفرات، فنظرتُ

إلى الدمية. بدا لي أنها، هي أيضـًا، كانت تعتبر سؤاله في غير محلّه. ثم فهمتُ، من عينيها المرسومتين بخيوط زرقاء، أنها لا تريدني أن أجيبه، فظللتُ أنظر إليه وأنا محرج جداً من إمساكي عن الردّ عن سؤاله.

- يا لها من دمية!

قالت نونّا مُقَهقِهةً، وهي تنظر إلى الدمية بإعجابٍ ومحبةٍ شديدين. ثم ما لبثتْ أن لملمتْ قهقهتها التي هيمنت على الطاولة لِلَحظات. ولعلها شعرتْ بأن فولوديا قد أساء استخدام يدها قبل قليل، فرفعتْها أخيراً من فوق يده، ما جعل الدمية تتنفّس الصعداء في حجري. لكنني ظللتُ أشعر بسؤال فولوديا معلّقًا دون جدوى فوق رأسي حتى اضمحلّ فجأةً في الهواء حين شرعت غالا بالغناء من جديد:

- مادامت الأرض تدور،

ومادام النور ساطعـًا،

أعطِ يا إلهي كلَّ إنسانٍ ما يحتاج إليه،

أعطِ رأسـًا للحكيم،

أعطِ حصانـًا للجبان،

أعطِ نقوداً للسعيد،

ولا تنسَني!

مادامت الأرض تدور، يا إلهي القادر!

أعطِ الطامح إلى السلطة ما يرضيه منها،

أعطِ الكريم فرصة ليلتقط أنفاسه حتى نهاية اليوم،

ولقايين أعطِ الندم،

ولا تنسَني!

أنا أعرف أنك تستطيع أن تفعل كل شيء،
أنـا أومـن بحكمتـك كمـا يـؤمن الجنـدي المقتـول بأنـه سـيعيش في الجنة،
كما تؤمن كلّ أُذن بكلماتك الخافتة،
وكما نؤمن نحن أنفسنا دون أن نعرف ماذا نفعل،
يا مولاي إلهي يا أزرق العينين!
مادامت الأرض تدور، وهذا ما تستغربه هي نفسها،
مادامت لا تزال تملك ما يكفي من الوقت والضوء،
أعطِ الجميع حصصهم يا إلهي،
ولا تنسَني!

ثم صمتت غالا بضع لحظات مغمضة العينين، ثـم فتّحتهمـا ومـدّت يدها إلى قدحها ورفعته. وكان مفهومـًا، من ارتعـاش ذقنهـا وشـفتيها، أنهـا كانت ما تزال تعيش في الأغنية التي انتهت منها الآن، وأن لديها ما تريـد أن تقوله لنونا بصورةٍ خاصة:

- غالبـًا ما أشـعر بـأن حصّـتي مـن العـالم، التي لـم أستلمها حتى الآن، حصـةٌ عنيـدة لـن تـأتي إلـي مـن تلقـاء نفسـها، بـل علـيّ أن أذهـب إليهـا بنفسـي. وقـد أدركـتُ، بعـد مضـي وقـت طويـل في طريقي إليهـا، أنهـا تحتـاج إلـى مهـارات خاصـة لا أتقنهـا، وإلـى صبر لا أحتمله، وإلى وقت طويل قد لا يُتاح لي. غير أنني لـم أيـأس منهـا حتـى الآن، مـع أننـي أصبحتُ متأكّـدة مـن أننـي لـن أصل إليها دون تسهيلات استثنائية يقـدمها لـي ربٌّ مـا متسـامح مع أخطـائي الصـغيرة التي لا أسـتطيع العيش مـن دونهـا. أرفـع

نخبك يا عزيزتي نونّا في عيد ميلادك! حين أكون معك أشعر بأنني أقترب خطوة جديدة من حصتي من هذا العالم. أنت تجعلينني في بعض الأحيان أومن بأن حصتي ليست مستحيلة أبداً. أشكرك يا عزيزتي على وجودك في حياتي!

نهضت نونّا، بعد شربها النخب المرفوع، اقتربت من ظهر غالا الجالسة إلى جانبي، انحنت فوقها، وحضنت رأسها للحظات، ثم عادت إلى مكانها.

ملأ فولوديا أقداحنا من جديد.

- لمن القصيدة التي غنّيتِها؟

سألتُ غالا.

- لبولات أغودجافا.. في قصائد كثيرة أشعر بأنه يكتب ويغني عني.

أجابت غالا.

- اسمحي لي يا عزيزتي نونّا أن أعود مرةً أخرى إلى سيرة الفراولة. سأحاول قدر الإمكان أن لا أخرجكِ من المشاعر الرهيفة التي عبّرتْ عنها غالا الرقيقة بالقصيدة التي غنّتها. ولعلّي سأستطيع الآن أن أصل إلى مستوى نبل وعذوبة تلك المشاعر نفسها، إنما عن طريق الفراولة. هي، في كل الأحوال، محاولة مجتهدة منّي للتفكير بهذه الثمار الجميلة على شكل نخب أرفعه بعيد ميلادك.

قال مكسيم فاديميتش، وهو يتأكّد من أنه يجلس على كرسيّه بشكلٍ مريح.

- أودّ، في الحقيقة، أن أعود تحديداً إلى الدور الهام الذي لعبه في تاريخ الفراولة منديلُ ديدمونة. ولكي نفهم هذا الدور بشكل

جيد لا بدّ من كلمتين سريعتين حول سيرة المعنى الذي حملته الفراولة قبل أن يكتب شكسبير مسرحية عطيل. في القرون الوسطى كان يُنظر إلى هذه الثمرة اللذيذة على اعتبارها رمزاً للكمال والاستقامة والعفّة والصلاح، فكانت تُلاحَظ منثورةً على خلفيات لوحات السيدة العذراء أو عند أقدامها أو على شكل تزيينات مكرّرة على ثوبها، وأحياناً كانت نبتتها تتراءى في يد الطفل المقدّس في حضنها. كما كانت تلُاحَظ في بعض المنمنمات وعلى هوامش بعض الكتب الدينية. ولم يتردّد المعماريون، في تلك الأيام، بنحت تصاويرها على المذابح وحول قمم الأعمدة في بعض الكنائس والكاتدرائيات. وكانوا يرون علامة الثالوث المقدّس في ورقة الفراولة الثلاثية، وجروحَ السيد المسيح في بتلات زهرتها الخمس. ثم استتبّ معنى الفراولة على هذه الصورة السامية، على حدّ علمي، حتى مطلع القرن السادس عشر عندما أنهى الرسام الهولندي هيرونيموس بوش ثلاثيّته "حديقة الملذّات الأرضية". ومنذ ذلك الحين بدأت الفراولة تتخذ معنى إضافياً مختلفاً تماماً عن معانيها الفاضلة السابقة، فقد جعلها بوش رمزاً صريحاً للإغواء واللهو والملذّات الجسدية بأشكالها المختلفة يمارسها أناس عراة وحيوانات في الجزء الأوسط من ثلاثيته. لا أعتقد طبعاً أن المعنى الجسور الذي منحه بوش للفراولة كان، في جانب منه، بمثابة ردّ بروتستانتي على معناه القديم الذي جسّدته بعض الأيقونات الكاثوليكية. إن فناناً عظيماً، يملك

مخيلة خارقة وغير مسبوقة بالهجاء بالصور، لا يمكن أن يرتهن، ببساطة، بأي مذهب جاهز مهما بدا مؤمناً به. وبالمناسبة فإن نيكولاي غوغول كان أول من أعطى كلمة الفراولة، في اللغة الروسية، معناها الخليع، وذلك على لسان بطله نوزدريف، في روايته "النفوس الميتة"، عندما تحدّث عن صديقه كوفشينكوف كزير نساء. ثم تبعه إيفان تورغينيف في روايته "الدخان" حين استخدم المعنى نفسه في إشارة سريعة إلى "الفراولة" التي تصبح مادة الحديث ما إن يجتمع عشرة رجال فرنسيين على حدّ قوله. لكنّ ما يهمنا الآن أن هذه الخلفية لدلالتَيّ الفراولة المتضادّتين، كرمز للكمال والاستقامة أو كرمز للأهواء والملذّات، قد مهّدتْ للدلالة الثالثة التي جاء بها شكسبير في منديل بطلته ديدمونة بعد مرور ما يقرب من مئة عام على ظهور ثلاثية بوش. إن شكسبير، المتمرّد على قواعد المسرح الكلاسيكية والرائد الملهِم للحركة الرومانسية قبل ظهورها، بمدّةٍ طويلةٍ، في أدب وفنّ القارة العجوز، ما كان ليستسلم، ببساطة، لحبس ثمرة الفراولة المكتنزة بالأسرار في أيّ من المقاربتين المتضادتين السابقتين. إن انحيازه السافر لصراع الأفكار والمشاعر وغموضها وصعوبة ضبطها بالنواميس والأعراف الجاهزة قد جنّب الفراولة، في مقاربته، من تقييدها بمعنى واحد. وهكذا فإن ثمرات الفراولة، التي طرّزها في منديل بطلته، أصبحت تصلح لأن تكون رمزاً للعفّة والإخلاص مادام المنديل في حوزة ديدمونة، كما تصلح، هي

نفسها، لأن تكون رمزاً للغواية والخيانة ما إن يصل ذلك المنديل إلى يديّ كاسيو. وبذلك فإن شكسبير، بتحريره الفراولة من قسرها على معنى واحد، إنما فتح الباب على مصراعيه أمام ما لا يحصى من المعاني والمشاعر المتدرّجة بين النقيضين. وبكلمةٍ أخرى فإن المقاربتين اللتين سبقتا منديل ديدمونة كانتا كاملتين نهائيتين، كل واحدة منهما مغلقة على معنى واحد لا لبس فيه. أما شكسبير فما أراد أن يرسو على دلالةٍ شافيةٍ واحدةٍ للفراولة، بل على دلالاتٍ مفتوحةٍ ناقصةٍ غير نهائيةٍ تشوبها ظلال الحيرة والشكّ والوساوس والالتباس والوهم والتردّد والتهوّر وسوء الفهم تبعاً للأحوال المختلفة، دون أن تستغني، في كلّ تقلّباتها، عن جموح الخيال. وإنني، إذ أرفع نخبكِ الآن يا عزيزتي نونّا، إنما أرفع نخب الفراولة بهذا المعنى الطليق المحيِّر الفاتن الذي لخّصه شكسبير في منديل ديدمونة، والذي ما يزال، حتى يومنا هذا، يُسوّغ الاحتمالات التي لا نهاية لها للعلاقة بين الرجل والمرأة.

لفت نظري، في أثناء شربنا النخب الذي رفعه مكسيم فاديميتش، أن فولوديا نظر إلى ساعة يده قبل أن يشرب قدحه. ثم نهض، اتجه إلى طنجرة البلوف، رفع غطاءها، وملأ منها صحنًا زجاجيًا كبيراً وضعه على الطاولة في مكان يطاله الجميع. وبدا أن البخار المتصاعد من الصحن والمُشبَع برائحة البلوف القوية قد فتح شهية الجميع على الإقبال عليه في الحال، فباشروا بملء أطباقهم، كلّ حسب حاجته، وبدؤوا يأكلون.

- هل تأخرت؟

وجهت نونّا سؤالها إلى فولوديا الذي كان يأكل بسرعة ملحوظة.

- ما يزال عندي الوقت الكافي لأن آكل.

ردّ فولوديا.

- فولوديا مضطر جداً إلى التوجّه إلى المطار بعد قليل..

شرحتْ نونّا لي.

- أمي في وضع حرج، وعليّ أن أكون في تبليسي إلى جانبها هذه الفترة.

تابع فولوديا شرح نونّا.

- هل ستبقى طويلاً هناك؟

اهتمّ مكسيم فاديميتش.

- آمل أن لا أبقى طويلاً..

أجاب فولوديا، وقد نهض حاملاً صحنه إلى المغسلة، نظّفه وجففه، ووضعه في واحدة من الخزانات الصغيرة المثبّتة على الحائط. ثم خرج من الغرفة ليتأكد كأنما من أنه لم ينس شيئًا من الأشياء التي كان عليه اصطحابها معه إلى تبليسي.

كانت نونّا الآن تتابع كأنما فكرة بعيدة في ذهنها، وهي لا ترفع عينيها عن دمية رايا الجالسة ما تزال في حضني، فيما عادت غالا تداعب أوتار غيتارها.

رجع فولوديا بعد قليل مع حقيبة سفر تركها عند باب المطبخ. اقترب من الطاولة، أكمل كأس نونّا بالشمبانيا، ثم فتح زجاجة الفودكا الثانية وملأ أقداحنا.

- سوف نخترع حتمًا، نونّا وأنا، مناسبات كثيرة لكي نلتقي من جديد بعد عودتي من تبليسي..

قال لي،

ثم أردف:

- بصحتكم جميعـًا.
- تبدو الآن دمية رايا فرحة جداً.

قالـت نونّـا بعـد أن أخـذت رشـفة صـغيرة مـن كأسـها، فنظـرتُ إلـى الدميـة وشـعرتُ بالخجـل أمـام فولوديـا الـذي كـان يبتلـع ملاحظـة رايـا بصعوبةٍ واضحة. لم أجد الآن في ملامحها ما يدلّ على أي أثر للحزن أو للضيق، فقد كانت تبدو فرحة حقـًا بسفر فولوديا، ما جعله يشعر كأنما بقلـقٍ شـديدٍ لـم يعـرف كيـف يداريـه عنّـا. وكمـا يفعـل الـروس عـادةً، في اللحظة الأخيرة قبل السفر، جلس فجأةً على كرسيّه. كفّت غالا فـوراً عـن مداعبـة غيتارهـا وصـمتنا جميعـًا، مـا يقـرب مـن نصـف دقيقـة، مـن أجـل سلامة طريقه الطويل إلى عاصمة جورجيـا. ثـم نهضـنا جميعـًا أيضـًا بعـد نهوضه مباشرةً. صافحناه فرداً فرداً، بينما كـان يهضـم، كأنمـا عبثـًا، القلـقَ الذي كان ما يزال يسبّبه له فـرح الدميـة المتواصـل. ثـم ابتعـد عنـا، كمـا لـو كان مرغمـًا، باتجاه باب المطبخ. وقبل أن يلتقط حقيبة سفره من الأرض، تلبّث في مكانه فجأةً والتفت اليّ. انتظر كأنما أن أؤكّـد لـه، قبـل أن يخـرج، أن فرح الدمية لا علاقة له بسـفره أبـداً. وكانـت نونّـا، المتريّثـة إلـى جـواره عنـد بـاب المطـبخ، تعـرف، كأنمـا جيـداً، أننـي لـن أكـذّب أمامـه وأمامهـا مشاعرَ الدمية. ظللتُ صامتـًا، وأنا أشعر بما يشبه الأسـف عليـه. ومـا كـان ليسـتطيع طبعـًا أن يتحمّـل صـمتي أكثـر مـن عـدة ثـوان ثقيلـة عليـه وعلـيّ وربما على نونّا أيضـًا، فقد خرج فجأةً من المطبخ، بينمـا كانـت نونـا تشـدّ من أزره بابتسامةٍ حلوةٍ دافئةٍ منحتْها إليه، وهي تشيّعه إلى باب الشقة.

عدنا إلى أماكن جلوسنا إلى الطاولة، غالا ومكسيم فاديميتش وأنا والدمية. لم يكن لدينا كأنما ما يمكن أن يقوله أحدنا للآخر، كأننا أصبنا بما علق بجوّ المطبخ من قلق فولوديا قبل أن يخرج. ثم بدأ مكسيم فاديميتش يتلفّت من حوله كما لو كان يتهيأ، هو الآخر، للمغادرة. وكانت غالا، لسببٍ ما، تحاول أن تتحاشى النظر في عينَي الدمية الفرحة حتى الآن في حضني، ما جعلني اعتقد، بسهولةٍ مريبة، أنها سوف تجد بعد قليل ما تتذرّع به لكي تغادر هي أيضاً. ثم خشيتُ من أن أكون قد اخترعتُ، في نفسي، رغبةَ غالا ومكسيم فاديميتش بالمغادرة لكي أبرّر لنفسي رغبة الدمية العارمة في أن نبقى في الشقة وحدنا مع نونّا. وفي محاولة لتبرئة ذمتي من مغادرتهما أردت، بكل قواي، أن أقتنع بأنهما لم يكونا يفكّران أبداً بالرحيل، ولم أستطع. ثم قرّرتُ أن أشجعهما على البقاء ببعض الكلمات، ولم يسعفني لساني بقول شيءٍ لهما، فبدوتُ كما لو كنت منقاداً، فعلاً، لرغبة الدمية الجامحة- كأنني كنتُ الآن دميتها. ثم ساءني فجأةً أنني بدأت أشعر بما يشبه مضضاً مخاتلاً من وجود مكسيم فاديميتش وغالا في المطبخ، حتى لقد ظننت أنهما كانا يتعمّدان المماطلة بالمغادرة نكايةً بالدمية. وقد زاد من إحساسي بسوئي أنني أصبحت مستعداً كأنما لأن أستخفّ الآن بكل الأفكار التي سردها علينا مكسيم فاديميتش عن أهمية منديل شكسبير في تاريخ الفراولة برغم أنني كنت معجباً جداً بها قبل سفر فولوديا، وكذلك بإحساس غالا العالي، الذي سحرني كثيراً، حين غنّت أشعار بولات أكودجافا. أدركتُ، عندئذٍ، أن نفوذ الدمية عليّ أصبح يتنامى بإيقاعٍ سريعٍ لن أكون قادراً ربما على إيقافه بعد قليل. ومع عودة نونّا إلى المطبخ شرعت الدمية تستمدّ من وجودها

المزيد من سلطتها الغاوية عليّ، فأصبحتْ كأنما لا تقاوم. وما أكّد لي ذلك أن نونّا نفسها صارت تبدو في عينيّ الآن امرأةً أجمل وأشهى بما لا يُقاس مما كانت عليه قبل أن تخرج من المطبخ. وكان مضضي الخفيّ من تلكّؤ غالا ومكسيم فاديميتش عن المغادرة حتى الآن قد تحوّل إلى ضيقٍ شديدٍ منهما، فكان عليّ أن أبادر فوراً إلى القيام بشيءٍ سريعٍ يحفظ لي ماء وجهي قبل أن أفقد السيطرة تماماً على نفسي. كأنني كنت متأكّداً من أنني قد أصبحت مستعداً، استعداداً أعمى، لأن أفعل، دون تردّد، كل ما ستمليه عليّ الدمية المستبدّة بي في هذه اللحظات. كما أصبح واضحًا لي الآن أن بالها لن يهدأ قبل أن أخطو ونونّا في هذه الليلة خطوةً فاصلةً لن تسمح لأحدٍ منا بالعودة إلى الوراء، حتى وإن كنت سأندم عليها طيلة حياتي. وهنا، هنا بالذّات، وجدتُني أنهض فجأةً من مكاني بصعوبةٍ بالغة.

– أنا مضطر إلى المغادرة الآن للأسف.

قلت، فانبهت الجميع.

ثم بدا لي أنني نطقتُ بتلك الكلمات بطريقة جعلتْهم، بعد لحظات، يستسلمون لضرورة خروجي، فنهضوا، مع ابتساماتهم المربَكة العالقة على وجوههم كأنما دون سبب، لكي يصافحوني قبل أن أخرج.

صافحت غالا، وأثنيت على إحساسها العالي في غنائها الدافئ الجميل وعزفها المميز على الغيتار. كما صافحت مكسيم فاديميتش وشكرته على الأفكار المهمة التي زوّدنا بها عن أسرار منديل شكسبير. ثم توجهت إلى باب المطبخ حيث كانت تنتظرني نونا. تقدّمتني بضع خطوات في الموزّع، فتحت لي باب الشقة، ثم خرجتْ ورائي.

– هل أنت مصاب بالإيدز؟

سألتني بملامح جدية وبصوت خفيض على قرص الدرج.

- لا.

أجبت بثقة.

- ولا بأيّ مرض عضال؟

- أبداً.. لماذا تسألين؟

- كنت أستطيع أن أنتبه إليك أكثر مما فعلت حتى الآن.

قالت، وهي تصافحني.

ثم قبل أن ابتعد عنها باتجاه الدرج سألتني عما إذا كنت أستطيع أن أتنزّه معها، مساء يوم الأربعاء، في حديقة النباتات.

- بلى أستطيع.

- هل يناسبك أن نلتقي في الساعة السابعة مساءاً عند بابها؟

- يناسبني، نعم.

- هل تعرف أين تقع؟

- تبعد عن بيتي محطة واحدة فقط بالمترو.

- **حسن إذاً إلى مساء الأربعاء.**

- **إلى مساء الأربعاء.**

- **في الساعة السابعة.**

- **في الساعة السابعة.**

في بيت سالم

I

وصلتُ إلى البيت حوالي الساعة العاشرة ليلاً.

توقعت وأنا أفتح باب الغرفة أن أجد على سطح الطاولة، أو على الأرض، خبراً من رايا في رسالة أو في قصاصة ورق جاءت بها أنّوش في غيابي.

لم أجد شيئاً.

كان عليّ أن أنتظر حتى حلول مساء الأحد لتظهر أنّوش. أخبرتني أن رايا تريد أن تراني وتطلب مني أن أحدّد لها الآن مكاناً آخر غير غرفتي للقائنا في الساعة الثامنة. اعتقدتُ، ما دامت قد تركتْ لي تحديد المكان، أنها لم تكن تريد أن نلتقي في مكان عام. تذكرتُ عندئذٍ شقة سالم، ورجوت أنَوش أن ترافقني إلى كابين الهاتف العموميّ عند مفرق شارع غالوشكين. اتصلتُ من هناك بسالم وسألته عمّا إذا كنت أستطيع زيارته، بصحبة امرأة لا يعرفها، بعد الساعة الثامنة. أكّد لي أنه، وزوجته سميرة، سيكونان مسرورين بذلك، وأنهما سينشغلان الآن بتحضير العشاء ريثما نصل. خرجت من كابين الهاتف وأبلغت أنّوش أنني سأنتظر رايا عند مخرج مترو دينامو في الساعة الثامنة.

كنت هناك قبل الثامنة بعدّة دقائق.

وقفت أدقّق بوجوه الخارجين من المحطة، وأنا أفكّر بما يمكن أن تكون الأمور قد آلت إليه بين رايا وزوجها بعد اللقاء الذي حدث في

غرفتي مساء الجمعة. ثم خطر بي أن تكون قد توصّلت معه إلى تواطؤ، غير معلن في الغالب لحفظ ماء وجهه، يجعل من لقائها بي أمراً لا فرار، مبدئياً، من السكوت عنه بصورةٍ من الصور. ومن ثم لا بدّ من تجنّب أيّ موقف جذريّ حاسم يمكن أن يستدرجنا إليه جميعاً استسلامُنا الغبيّ للانفعالات الطائشة. وإذا كانت قد طلبت مني أن لا نلتقي في غرفتي هذا المساء فلا شكّ من باب اللباقة، التي لا ينبغي التخلّي عنها في أيّ حال، حيال مشاعر زوجها بالذّات. فمادام موجوداً في موسكو فسوف يتردّد حتماً إلى غرفة أبدول في الطابق الثالث، ومن ثم كان يستطيع مصادفتها في طريقها إليّ إما في بهو البناية أو في مصعدها. أما بعد عودته إلى باكو فلن يكون هنالك مسوّغ واحد لأن تحسب حساب أبدول، أو أي شخص آخر، حين ستأتي إلى غرفتي بشكلٍ مكشوف. أبدول نفسه لن يجد، ربما، مبرّراً بعد الآن للتدخّل في شؤون حياتها الخاصة، وقد يتبادل معها التحية والسؤال عن الحال كلما صادفها صاعدةً إلى غرفتي أو نازلةً منها. بل قد يذهب إلى حدّ الاستفسار منها عن صحتي وتحميلها السلامات الدبلوماسية إلي، في كل مرّة، بوصفي جاره السابق.

غير أنني اعتقدت، في الوقت نفسه، أن التواطؤ غير المعلن، بين رايا وزوجها، سوف يُشعرها حتماً بخيبة أمل غير متوقعة برغم ما سيتيحه لها، ولي طبعاً، من حرية الحركة والظهور معاً دون أيّ تبعات. ولم أستغرب أن ألاحظ عليها علامات هذه الخيبة بعد قليل، وكنت كأنما مستعداً لأن أتقبّلها وأتفهّمها بصدر رحب، كما لو كانت نتيجة طبيعية، بل ضرورية، لأيّ هدنةٍ أو تواطؤ بينها وبين زوجها. كما لم أستبعد أبداً أن أعتبر هذه الخيبة تعبيراً عن الانحياز إلى الغموض والمغامرة وجموح الخيال

وسحر المعاناة في قصة حبنا. ومن ثم سأعتبرها توجساً مسبقاً من المشاعر الباردة التي سيصيبنا بها غيابُ الرقباء وإزالةُ العقبات أمام لقاءاتنا، ما سيجعلنا نجترّ رغباتنا الحميمة التي ستصبح ممكنة دائماً دون عناءٍ ودون أيّ إحساسٍ بالحدّ. ولربما تمكّنتْ هذه الخيبةُ منها في اليومين الماضيين إلى حدٍّ جعلَها تنزع عني هالة الفرادة اللذيذة التي ظلّت تحيط بي عندما كان الجميع يضايقونها ويتكالبون عليها بسببي. ومن ثم سيكون مفهوماً جداً بالنسبة لي أن أبدو في عينيها، من الآن فصاعداً، مجرّد نسخةِ رجلٍ لطيفٍ متاحٍ عند الطلب في أيّ مكان وفي أي وقت. الأمر الذي لن يعجبني طبعاً ولا سعيتُ إليه قط في نظر أيّ امرأةٍ التقيتها في حياتي. وإذا كانت رايا، التي أحلم بها، قد بدأت فعلاً تشعر بالأسف على شيءٍ ثمينٍ فقدتْه في هذين اليومين دون أن تقصد، فلا بدّ على شغفها الأعمى المحفوف بالمخاطر، الواقعية والمتخيلة، نحوي وليس بالضرورة عليّ بالذّات. ولن يكون الأسفُ الذي سوف أشعر به، أنا أيضاً، بأقلّ، إن لم يكن أكثر، من مقدار أسفها على الخسارات الرومانسية الجميلة نفسها التي سنتكبّدها معاً بطبيعة الحال. وهكذا فإن طلبها رؤيتي اليوم لم يكن، ربما، بدافع شوقها إليّ، فمن المحتمل جداً أنها تهدف، بالدرجة الأولى، إلى أن تتحقق بنفسها من تبلّد أحاسيسنا عندما سنتبادلها في هذه الليلة بحرية تامّة، كما لم نفعل أبداً في الماضي.

تراءت لي أخيراً ملامح رايا من بعيد بين وجوه الخارجين من محطة المترو، وأنا أحاول أن ألاحظ، ما أمكنني، التهافتَ الذي طرأ على صورتي في عينيها الآن. إلا أنني، مع تقدمها المتسارع باتّجاهي لم أستوعب بشكل جيد، ربما بسبب المفاجأة، الانطباعَ الأول الذي أصبح

يتأكّد لديّ مع كل خطوة كانت تقرّبها مني. لقد كانت تكذّب، بجلاء لا لبس فيه، كلّ التوقعات المضجرة التي خطرت ببالي بسبب الحرية التامة التي اعتقدتُ، قبل قليل، أننا أصبحنا نتمتع بها. بدتْ كأنها ما تزال تعيش قبل ثلاثة أيام على الأقل، فملامحها الجميلة كانت ما تزال تشي، دون مواربة، بإحساس امرأة مزهوة بمعاناتها التي لا تُطاق وبأنها لن تساوم أحداً على مشاعرها، وإذا اقتضى الأمر فإنها مستعدّة، الآن أيضاً، للتضحية في سبيلها في أيّ لحظة. وكانت، في غضون ذلك، تنظر إليّ من بعيد كما لو كنت ما أزال جديراً بكلّ ما أتسبّب لها من الآلام التي لم تتوقف حتى الآن. وقد زاد من هيئتها البطولية، في عينيّ، رأسُها الشامخ المتطلّع إلى الأمام وخصلات شعرها الطليقة السوداء التي كان الهواء ينسفها إلى الوراء مع أذيال تنورة صيفية طويلة لم أرها عليها من قبل.

لم أجد، في اللحظات القليلة قبل وصولها إليّ، تفسيراً آخر للعنفوان الساحر الذي كانت تتقدّم به نحوي سوى أن زوجها قد تراجع عن تواطئه غير المعلن معها، أو أنهما لم يكونا قد توصّلا أصلاً إلى أيّ تواطؤ. ومن ثم لم يعد هنالك، لحسن الحظ، أي احتمال لتحريرنا من القيود التي سيواصل فرضها علينا، هو ووكيله أبدول وكلّ أذريي موسكو، دون هوادة في المستقبل أيضاً. ولعلّه قد فقد أعصابه، في لحظة غاضبة، فأرسل إليّ معها الآن تهديداً صريحاً جعلها تتخذ تلقائياً هذه السيماء البطولية المدهشة. وقد بعث في نفسي هذا التهديد المحتمل لحظات رعب فريدة كنا قد عشناها معاً في غرفتي عشية تسفيرها إلى باكو، ثم عشتها وحدي عندما أخبرتني، في برقيتها الثانية، بأن زوجها يريد لقائي وأن عليّ أن **أستعدّ بشكلٍ جيد** لهذا اللقاء. لكنني، برغم ذلك، ظللتُ مفتوناً، وهي ما

تـزال تتقـدم نحـوي الآن، بجمـال تعاليهـا الشـجاع علـى الأذى الأكيـد المتواصـل الـذي سـيلحقونه بهـا، وبـي طبعـاً. وإذ لـم يعـد يفصـلني عنهـا سوى بضع خطوات، ألفيتُني أحنّ، وقد اعترتني نشوةٌ عميقة، إلى الألفين والخمسمئة كيلو متر التي كانت تفصلني عنها عندما كنت أستقلّ من أجلها القطارات المتجهة، من كل بقاع الأرض، إلى باكو عشرات المرات في اليوم الواحد. ثم عجبتُ فجأةً من أن لا يكون هنالك وسيلة أخرى لإنقـاذ مشـاعرنا العاصـفة مـن الفتـور سـوى أن تفصـل بيننـا آلاف الكيلومترات وأن نشعر، كلما التقينا، بالخطر المحدق بنا وبالأغلال المتجدّدة التي لا نكفّ عن تحطيمها طيلة الوقت، ونحن خائفان حتى العظم من أن يفقد أحدنا الآخر في أيّ لحظة.

شعرتُ، ما إن وصلتْ إليّ، أنني مِلْك يدها التي علّقتْها على ساعدي. انطلقتْ بي تقودني، بخطواتٍ واثقةٍ سريعةٍ، إلى الجهة التي أومأتُ إليها. كانت كأنما تودّ، أولاً، أن تبتعد بي، بأقصر وقتٍ ممكن، عن زحمة الخارجين معها من محطة المترو. كأنهم كانوا يشوّشون عليها صفاء إحساسها بي، وكنت أنظر إلى بروفيلها المفعم بالمشاعر الحارة والأخبار، وأنتظر اللحظة التي ستلتفت فيها إليّ. لم تلتفت، ظلّت عيناها مصوَّبتين على أول السماء في نهاية الشارع. غير أن شيئاً ما، لم أستطع تحديده في البداية، ما لبث أن جعل مشيتي أبطأ من مشيتها بعد وقت قصير من شروعها بنقل أخبارها الجديدة إليّ. ثم بدا لي أنها شعرت ببطئي ولم تنشغل به، فقد ظلّت تمضي بي بإيقاعها السريع نفسه، ما اضطرها، تلقائياً، لأن تبذل، بذراعها المعلّق بذراعي، جهداً إضافياً متنامياً لكي تبقيني إلى جانبها. وما أحببتُ طبعاً أن أشكّل عبئاً عليها، فحاولتُ

جاهداً أن أساعدها في تعيير خطاي على سرعة خطاها، لكنْ دون أيّ نتيجة مُرْضِية للأسف. مع ذلك فإن تقصيري لم يمنعها لحظةً واحدةً من استمرارها بتزويدي بتفاصيل ما حصل معها في اليومين الماضيين. ثم خيّل لي أنني كنت أستطيع مجاراتها بالمشي السريع لو أنها توقّفتْ عن الكلام. كأنني، ببطئي المتواصل إلى جانبها، أردت أن أكبح سرعة أخبارها الجديدة التي كانت تهدم، بحسنِ نيّةٍ على الأغلب، كلَّ تصوراتي العزيزة التي ربّيتُها في داخلي عن قصة حبنا حتى الآن. وكان من المستحيل طبعاً أن أطالبها، ولو بأكثر الصيغ لباقةً، بالتوقف عن الكلام لكي أستعيد خفّتي من جديد. لم أكن متأكّداً أصلاً من أنها سوف تفهم هذا الطلب بحرفيّته التي أعنيها، فقد كان قابلاً لأن يُفهَم أيضاً على سبيل المجاز، ما كان يمكن أن يجعلها تخرج باستنتاجات بعيدة تماماً عما أهدف إليه. وهكذا فقد استسلمتُ لثقلي العنيد إلى جانبها كما أستسلم لشيءٍ لا سلطة لي عليه ولا طاقة لي على مقاومته. وهنا توقفتْ فجأةً عن متابعة المشي والكلام، وجعلتْ تحدّق بي، بعينين ذكيّتين مستفهمتين، منتظرةً كأنما أن أفسّر لها ما كان يحدث معي. ثم بدا لي أنها أدركت بسرعة، ربما بسبب إرباكي الظاهر، أنني لم أكن قادراً في تلك اللحظة على تفسير أيّ شيء، فتابعتْ مشيَها وكلامَها بالإيقاع نفسه وبالهيئة البطولية نفسها. وما كان يفاقم من ثقلي وإحباطي، طيلة الوقت، أن معظم ما كانت تقوله، إن لم يكن كلّه على الإطلاق، كان يبدو لي بعيداً جداً عن روح البطولة والمغامرة والمعاناة التي كان يوحي بها، كأنما بالخطأ، بريقُ عينيها المعلّقتين بالأفق وشموخُ جبينها وبسالةُ صوتها وحزمُ اندفاعتها إلى الأمام وتموّجُ شعرها في الهواء. وما كنت قادراً في تلك اللحظات

على الاعتراف لها بإحباطي المتفاقم من أخبارها، وكان سيؤلمها حتماً لو لاحظتْه في ملامح وجهي. حاولتُ ما أمكنني أن أداريه عنها إذ لم أكن واثقاً من أنها قد تناولت، قبل أن تأتي، حبة الدواء التي تحميها عادةً من نوبة الصرع. وكانت قد أشارت لي، ذات يوم، إلى أنها تستطيع أن تنسى هذه الحبة أو تتناساها في الأيام العصيبة، ما كان كأنما يُتيح لها أن تحتمي، بالنوبة الرهيبة المتوقّعة، من لحظات اليأس والألم الشديد كما حدث لها في غرفتي مرّتين. وما كنت لأغفر لنفسي، في كلّ الأحوال، أن أدفعها الآن دفعاً بيديّ إلى نوبة صرع بذريعة إحساسي بالإحباط من كلامها. كان لا بدّ من أن أهضم ما يمكن هضمه من أخبارها الجديدة على وجه السرعة، أن أقفز فوقها على الأقل، أن أجعلها تفوتني بأيّ شكلٍ من الأشكال. أو أن أتخيّل لها، إذا اقتضى الأمر، ما يكفي من المسوّغات، المقنعة قدر الإمكان، لتليين زواياها الحادة في داخلي بطريقة تجعلها قابلة للبلع أو التجاوز أو الإهمال على أقل تقدير.

وقد عرفتُ منها، في هذه الأثناء، أنها تعيش الآن عند أنّوش وسوف تضطر إلى البقاء عندها بعض الوقت أيضاً ريثما تنتقل إلى مبنى سكني تابع لأكاديمية العلوم التربوية في نوفي تشيريوميشكي. ذلك لأنها ستلتحق بدورة تأهيل متقدّمة ستفتتح في الأكاديمية بعد أسبوع، وستبقى هناك حتى نهاية الدورة بعد شهرين. وقد وعدها زوجها، الذي سيعود إلى باكو في صباح يوم الأربعاء، بأنه سوف يسعى لدى معارفه لكي تُعيّن، بعد نهاية الدورة، في أحد مراكز رعاية الأطفال في موسكو، على أن لا تطالب بإجراءات الطلاق في القريب المنظور على الأقل. وعند هذه المعلومة توقفتْ رايا عن الكلام، لِلَحظات قليلة، معتقدةً على الأغلب أن يكون

لديّ الآن ما أعقّب عليه. وإذ تابعتُ صمتي وثقلي إلى جانبها، أخبرتني بأنها لم تعِد زوجها بشيء على أي حال، وأنها لن تحتاج، ربما، إلى معارفه لتعيينها في موسكو. ثم إن زميلة دراسة لها، تعمل الآن في واحدٍ من هذه المراكز، قد أخبرتها بأن تعيينها هنا ممكن في حال أظهرت تفوّقاً ملحوظاً على زملائها في الدورة. وسوف تكون متفوقة حتماً، أكّدت لي، لأنها تحب مساعدة الأطفال الذين يعانون من مشكلات بالنطق، وتحب، بالقدر نفسه، أن تعيش في مكان لا يبعد كثيراً عني في موسكو. بعد ذلك نوّهت، بهذا الخصوص أيضاً، بالإستعداد الجدّي الذي أبداه أبدول لأن يؤمّن لها غرفة تسكن فيها ما إن تتعين في مركز رعاية الأطفال. وقد لمّح لها، بينه وبينها، وهو يغمز بعينه غمزةً واعدة، باحتمال أن تكون الغرفة في شارع غالوشكين. وكانت قد زارته وزوجها مساء البارحة بالذّات، وأكلا عنده لحماً مطهوّاً بفخّارات صغيرة توضع على نارٍ هادئةٍ جداً طيلة ست ساعات. وهي أكلة تقليدية أذريّة تبدو، للوهلة الأولى، سهلة التحضير، إلا أنها في الواقع تتطلّب مستوى عالياً من المهارة في طريقة حشو الفخّارات وفي تناسب مقادير الهبر والدهن وشرائح البصل وكمية العصفر والفلفل الأسود والملح، كما شرحتْ لي رايا بالتفصيل. وفي أثناء تناولهما الطعام اللذيذ أخبرتْهما سارا، زوجة أبدول، بأن دورتها الشهرية قد تأخّرت كثيراً، ومن المحتمل جداً أن تكون في الأسابيع الأولى من حملها الأول. وقد ترك هذا الخبر السعيد أثراً ساحراً في نفسها وفي نفس زوجها، فباركا معاً لسارا وأبدول بجنينهما المحتمل. ثم أضحكهم طويلاً الكوميديان غينادي خَزانوف الذي ظهر فجأة في تلفزيون أبدول الـ 14 بوصة وصار يقلّد لهم الأمين العام السابق للحزب الشيوعي

السوفييتي ليونيد بريجنيف عندما كان يقرقع بطقم أسنانه الاصطناعية ويبرطم بالكلمات غير المفهومة في السنتين الأخيرتين من فترة حكمه.

وكنت أظن، في أثناء كلامها، أنني كنت أتمكّن بالفعل من هضم كلّ هذه الأخبار تقريباً، بالإضافة إلى أشياء أخرى كثيرة تنمّ بالمجمل عن روح الوفاق والتفاهم التي ستسود العلاقة بيني وبينها وبين زوجها، فضلاً عن أبدول الذي سيشرف على إدارة الإرادة الطيبة لدى جميع الأطراف. وقد ساعدني هضمي العسير المتواصل، لكل تلك التفاصيل، في أن أستعيد، شيئاً فشيئاً، بعض لياقتي بالمشي السريع إلى جانبها فلم أعد أعتمد اعتماداً كاملاً على ذراعها. كما أصبحتُ شبه مطمئن إلى أن وجهي لم يعد يوحي لها بعلامات الإحباط بشكلٍ ملموس. حتى لقد طرحتُ عليها بعض الأسئلة، التي لا تحتاج إلى أجوبة محدّدة، وذلك من باب التأكيد على اندماجي الإيجابي بحديثها.

- إلى أين نذهب الآن؟

قطعتْ فجأة سلسلة أخبارها، وسألتني.

- إلى بيت صديقي سالم وزوجته سميرة.

أجبت.

- يجب أن نأخذ شيئاً لهما.
- علاقتي مع سالم غير رسمية على الإطلاق.
- لا بدّ مع ذلك من باقة زهر على الأقل نقدمها لسميرة.

قالت، ثم رجتني أن نعود أدراجنا إلى محطة دينامو لأنها لمحت امرأة تبيع القرنفل في مدخل المترو، فعدنا، اشترينا الباقة وتابعنا طريقنا.

في مصعد البناية التي يسكن فيها سالم سألتني عمّا إذا كان وزوجته

سميرة سوريّين. وحين أجبت بأنهما كذلك اكتسى وجهها بملامح امرأة تقوم وزوجها بزيارة عائلية إلى بيت أخيه. صارت تنظر إليّ نظرة زوجةٍ مُحِبّة رؤوم وتنتظر كأنما أن أبادرها بكلمة، أو حركة، تعّبر عن شعوري بامتياز أن أكون متزوجًا من امرأةٍ محبوبةٍ مثلها. ابتسمت لها بمودّة، كما لو كنت أنظر إلينا، عبْر مونوكل صغير، من مقصورة عالية في مسرح. وقد أعجبني كأنما أن أكون زوجها الجيد ريثما يتوقف المصعد. كأن إحساسًا متقنًا من السرور العائلي قد سقط عليها فجأةً، مثل إضاءة مدروسة على منصّة تمثيل، وصار يضفي على ملامحها مسحة طفولية قريبة من القلب. كانت مندمجة بدور الزوجة وتستعجلني، بعينيها الجميلتين المذبّلتين، لأن أندمج بدور الزوج بشكلٍ أفضل. وبدا لي أنني قد نويت فعلاً أن أستجيب لها. بل كدْتُ أمسك بيدها وأقبّلها قبلةً زوجيّةً مسرحيةً صغيرةً لولا المصعد الذي أنهى المشهد، بتوقّفه المفاجئ عند الطابق الخامس، وقد فتح أمامنا الباب على مصراعيه لكي نخرج إلى شقة سالم.

II

فتح سالم الباب مبتسمًا ابتسامة عريضة، وهو يتمعّن بوجه رايا بصورة خاصة. بدا كما لو أنه يكتشف فيها الآن السبب، الذي أخفيته عنه، لكل الاضطراب الغامض الذي بدأ يلاحظه عليّ في الفترة الأخيرة. وكانت رايا ما تزال تعيش إحساس الزوجة الذي لعبتْه بإتقان لافت في المصعد، وما أرادت كأنما أن تخرج منه الآن. عبّرتْ ابتسامتُها الأهلية، التي ردّت بها على ابتسامة سالم العريضة، عن تلقائية الكنّة التي تستجيب، بأخويّةٍ جاهزة، لِلَطافةٍ يبديها شقيق زوجها. ثم لم تكتفِ بابتسامتها، التي تواصلت للحظات، فما لبثتْ أن بادرتْ سالم بنبرة صوتها حين يكون مرِحًا، متسائلةً عمّا إذا كنتُ قد بالغتُ بأوصافها الحسنة حين حدّثتُه عنها. ضحك سالم كما يضحك عادةً حين يمهّد لكذبة بيضاء، وأكّد لها أنني، في كلّ المرّات التي حدّثته عنها، جعلتُه يتخيّلها امرأة جميلةً ولكنْ ليس إلى هذا الحدّ الذي يراه الآن. ثم قهقها معًا، وقد بدت رايا سعيدة جداً بأنها نجحت، من اللحظات الأولى، بتحقيق انطباع جيد عنها في عينيه كواحدةٍ محتملةٍ من أهل البيت نظريًا على الأقل. ثم جعلت تؤكّد انتماءها إلى المكان بعينيها اللتين قامتا بجولة سريعة في الموزّع لتكتشف كأنما التغييرات التي طرأت، بعد زيارتها الأخيرة التي لم تقم بها قط، على باب مشلح المعاطف والقبعات

وعلى كومودينو التلفون وعلى باب غرفة النوم وباب الصالون المفتوح وكذلك على باب الحمام وكوريدور المطبخ. وقد فعلت ذلك، بخفّةٍ وكياسة، وهي تقترب من سميرة التي كانت تقف إلى جانب سالم. عانقتْها بحميميةٍ ظاهرة، كما لو كانت تعرفها منذ سنوات، ثم قدّمت إليها باقة القرنفل، وهي ما تزال تتابع بقايا قهقهتها المتخافتة التي بدأتْها مع سالم قبل قليل. ولم تكن ملامحها، في أثناء ذلك كلّه، تدفعني في ظهري دفعاً مبتذلاً باتجاه الإحساس الذي أرادت إيصاله إلي بالدرجة الأولى. كما لم أجد، من ناحيتي، أيّ ضررٍ واضحٍ في أن ترتجل، بعفويةٍ مقصودة ورشاقةٍ مدروسة، أواصرَ قربى قديمة بينها وبين سالم وزوجته، لتثبت لنفسها ولي طبعاً أننا قابلان، إذا شئنا معاً ذات يوم قريب جداً، لأن نكون جميعاً من طينة واحدة. وقد بدا ذلك الإحساس حلواً، مجرَّداً كأنما من أي عبء مرئيّ، حتى بالنسبة لي. غير أنني لم أعرف، للأسف، كيف أشاركها بحلاوته وكيف أساعدها في تنميته في نفسي الملتبسة عليّ في تلك اللحظات، بينما كانت، وحدها، تصقله وتداريه وتتدرّب عليه من دوني كما لو كان لا يخصّني أبداً.

كانت سميرة تغالب شعوراً واضحاً بالخجل وتحاول، ما أمكنها، أن تظهر أمامنا بوجه بشوش لائق. ولعلّها كانت مأخوذةً بطلاقة رايا في تجاوز الحواجز التي يشعر بها معظم الناس عادةً في اللقاء الأول. كانت ترتدي ثوباً طويلاً وتضع إيشارباً على رأسها يُظهر استدارة وجهها وبعض عنقها الطويلة وشيئاً من شعرها السبط المسدل على كتفيها على خلاف الحجاب الشرعيّ المُحْكَم الذي رأيته عليها في المرة السابقة. وفيما توجّهتْ بباقة القرنفل إلى المطبخ قادنا سالم، بصورة احتفالية، إلى

الصالون حيث مُدّت طاولة بمختلف أنواع المازوات السورية التي لم أكن ألاحظها في السابق بهذا التنوع والإتقان على سفرته. صحون وزوارق مختلفة الأحجام من المسبّحة والمتبّل والتبّولة والفتّوش والمحمّرة والمكدوس والشنكليش والباذنجان المخلّل والزيتون الأخضر المفقّش مع دبس الرمان والزيت والكمون والكبة النيّة، وجاط لأوراق الخس وشرائح البندورة والخيار والليمون، بالإضافة إلى زجاجة نبيذ أحمر مختومة. ثم لم يترك لي سالم فرصة كافية لأن أمتدح هذه الأصناف الشهية التي لم أتذوّق معظمها منذ مدّة طويلة جداً، فقد أراد أن يباغتني، فوق ذلك كلّه، بشيء آخر. انحنى وسحب، من وراء أحد المقاعد، كيلو من عرق الريّان، رفعه إلى الأعلى، وهو ينظر إليه، بإعجاب ومودّة قديمين، كما ينظر إلى أمنية عزيزة تحقّقت بين يديه الآن. ثم بحذرِ وعنايةِ مَنْ يمسك شيئًا ثمينًا شديد الرهافة وضعه بين الزوارق والصحون، كما لو في المكان الأوجه الذي يليق به. وقد كان من النادر جداً أن تحصل على زجاجة عرق سوري في موسكو تلك الأيام، حتى لقد نسيت تمامًا، وأنا أفاجأ به على مائدة سالم، متى شربته آخر مرة.

عادت سميرة من المطبخ بباقة القرنفل، وقد وضعتها في مزهرية زجاجية، ركنتْها على حافة النافذة، فزاد من بريق ألوانها الحيّة الستارةُ السكّرية المسدلة وراءها.

اقترح سالم، وهو يقرّب المقاعد من حافة الطاولة، أن نتجاوز الملل التقليدي الذي يمكن أن تسبّبه لنا قهوة "أهلا وسهلا" ومجاملاتها، وأن نجلس مباشرة إلى المائدة العامرة لكي نملأ وقتنا، دون تأخير، بالأشياء المفيدة والممتعة والمتاحة أمام أعيننا. وكانت سميرة قد خرجت من

جديد وجاءت، في هذه الأثناء، بصينيةٍ عليها مجموعة كؤوس فارغة وإبريق ماء وسطل صغير مليء بمكعّبات الثلج وضعتها فوق طربيزة قريبة من الطاولة.

أشار لنا سالم بيده إلى الديوانة، فجلسنا عليها، رايا وأنا، بينما جلس وسميرة على مقعدين مقابلين. ثم خيّر رايا بين أن تشرب النبيذ أو أن تجرّب العرق، وأردت هنا أن أسبق رايا فأختار لها النبيذ، لا لكي أقلّل من شأن العرق في عينيها فأصرف انتباهها عنه طبعاً، بل لأؤكّد لها ربما، أمام سالم وزوجته، معرفتي المُسبَقة بالأشياء التي تفضّلها. ولعلّي، في حقيقة الأمر، قصدتُ أن أقوم أخيراً بمحاولة، يائسة على الأغلب، لمشاركتها بحلاوة إحساسها بأواصر القربى المرتجلة التي كانت ما تزال تغزلها أمامنا، وحدها، بمهارةٍ وبداهةٍ وذكاء. غير أنها ما لبثت أن سبقتني بالإجابة على تخيير سالم، فقد نظرت فوراً إلى سميرة، بعينَيّ صديقةِ طفولة، وسألتْها:

- وأنت ماذا ستشربين؟
- أنا سأشرب الشاي.

أجابت سميرة، متوقّعة كأنما أن يكون وقع إجابتها غريباً عليّ وعلى رايا.

- وأنا أيضاً سأشرب الشاي.

قالت رايا، كما لو أن سميرة قد حزرت بالضبط ما ترغب به الآن، ثم اقترحت عليها، وهي تنهض من على الديوانة، أن تذهب معها إلى المطبخ لتساعدها بإعداد الشاي.

نهضت سميرة، وقد أظهرت ملامحُها ارتياحاً واضحاً للطريقة اللطيفة التي كانت رايا تصرّ بها على رفع ما تبقّى من الكلفة بينهما.

ومع خروج رايا وسميرة من الغرفة تناول سالم كيلو العرق، بدرايةٍ ورفقٍ وعطف، راصداً، بعينيه المزرّرتين عليّ، وقْعَ حركات يديه على وجهي. ظلّ، لثوانٍ معدودة، يربت بأصابعه على سطح الزجاجة قبل أن يفتحها. صب منها، على مهله، في كأسين التقطهما من على الطربيزة المجاورة. ثم كسر العرق المُراق بخيطَيّ ماءٍ من الإبريق تاركًا، في كلّ كأس، مقدار خنصرٍ معهودٍ من الفراغ ما لبث أن ملأه، بالتفكّه ذاته، بمكعّبات الثلج.

ثم رفع كأسه.

- لن يشاركني بهذا العرق نديم أفضل منك في موسكو.. بصحتك!

قال.

- بصحتك!

أجبته.

وبعد أخذِهِ رشفةً من كأسه تناول قطعة من الكبة النيّة برأس شوكةٍ وقدمها إلي. ثم برأس شوكة أخرى تناول قطعة مشابهة ضمّها في فمه، وهو يقول إن فكرةً، قد تكون مهمّة، قد شغلت ذهنه في المطبخ، وهو يسمع نشرة الأخبار من إذاعة مایاك بينما كان وسميرة يحضّران العشاء هذا المساء. ثم عاد إلى كأسه ورشف رشفة جديدة أتبعها بقضمةٍ من باذنجانة صغيرة مخلّلة، وهو يقول إنه، في حياته كلها لم يكن شيوعيًا ولا أحبّ يومًا أن يكونه، ولا تعاطف مع الشيوعية ولا مع الشيوعيين لا من قريب ولا من بعيد، لكنه، برغم ذلك كلّه، لا يرغب، لا اليوم ولا غداً، بانهيار الاتحاد السوفييتي. وأنا على يقين، تابع كلامه، لو أن كِلْيتيّ يوري

أنـدروبوف تحمّلتـاه ثـلاث سـنوات إضـافية فقـط لمـا شـاهدنا سـحنة الكحولي بوريس يلتسين على شاشات التلفزيون ولا كنا سمعنا أخباره من إذاعة مایاك بوصفه مخلّص روسيا الجديد. هذا لا يعني طبعـاً أنني مغرم بيوري أندروبوف، ولكنني أحترم فيه كثيراً أنه كان يعرف أن ما كان يحكمه إنما هو دمّلة مزمنة ضخمة بحجم الاتحاد السوفييتي. وقد كان يعرف ذلك أكثر بكثير من الآخرين لأنه هو نفسه شارك لسنوات طويلة بصنع هذه الدمّلة وتوزيمها. وللسبب ذاته كان يدرك، أكثر من الجميع أيضاً، خطورة انفجارها بشكلٍ عشوائي كما بدأ يحدث أمام أعيننا الآن.

وكنت، منذ أيام تعارفنا الأولى، قد حفظت عن ظهر قلب كل آراء سالم تقريباً حول ما كان يجري في تلك الفترة في الاتحاد السوفييتي، فقد كان يكرّرها عليّ، بصياغات مختلفة، كلما أتاح له ذلك سياقُ الحديث بيني وبينه. وفي بعض الأحيان كان يزخرفها ببعض التحسينات الجديدة على شكل إشاعات دارجة حديثاً أو نمائم طازجة أو نكات لاذعة على هذه الشخصية السياسية أو على ذلك الفريق السياسي أو على ذاك الحدث.

وغالباً ما كانت تقلقه، مع رياح التغيير التي بدأت تعصف بأوروبا الشرقية كلّها، فكرةُ انهيار الاتحاد السوفييتي. وكان يربط، دون قرائن كافية، بين انهياره وبين مصلحة إسرائيل المباشرة برغم أن الاتحاد السوفييتي بالنسبة للعرب لم يكن قط كأمريكا بالنسبة لإسرائيل، كما كان يقول. فالاتحاد السوفييتي لن يقاتل بدلاً عن العرب لتحرير أراضيهم المحتلة، لكنّ وجوده ضروري جداً إذا فكّروا يوماً بتحريرها جدّياً بالحرب أو بالمفاوضات. ثم إن أحداً لا يضمن، إذا انهار الاتحاد

السوفييتي، أن لا تنهار روسيا نفسها. ولا ينبغي لروسيا أن تنهار، كان يقول، لأن لدى روسيا ما تقوله وتقدمه للعالم بغض النظر عن من يحكمها. ثم إن من الغبن وضيق الأفق وسوء النية أيضاً أن تنظر إلى روسيا من خلال ما يجري في الكرملين فقط. روسيا كانت وستظل أهم من الكرملين ومن كل الطغاة الذين حكموها عبر التاريخ.

كنت أحرص عادةً، في بداية حديثه بصورة خاصة، على أن أبدو أمامه كما لو كنت أصغي إليه وأستمتع بكلامه. لم أكن أشعر طبعاً بأنني كنت أقدم له تنازلاً من أي نوع حين كنت أتيح له فرصة أن يكون راضياً قدر الإمكان عن آرائه السياسية أمامي، فقد كان أحد أقرب الناس إلي في موسكو إن لم يكن أقربهم على الإطلاق. ثم إنني اعتدت أن أعيش، في داخلي، أحداثاً أخرى تأخذني بعيداً عنه كلما استفاض بعرض تحليلاته السياسية التي أعرفها. وما كان يجعلني أحترم رغبته المتكرّرة بإقناعي بآرائه أنه كان يبدو لي غالباً ليس متأكّداً من صحتها، ما كان يضطرّه كأنما، في كلّ مرة، إلى العثور على نقطة انطلاق جديدة ليعيد صياغتها أمامي بطريقة مختلفة من أجل أن يتخلّص من شكوكه بها لا أكثر. وقد كانت صورة يوري أندروبوف، الجالس فوق الدمّلة المزمنة الضخمة التي كان يحكمها، نقطةَ انطلاقه الجديدة في هذه الليلة إلى إعادة تشكيل آرائه المعهودة.

لم أتوقّف طبعاً، طيلة حديثه السياسي، عن الاستمتاع بتناول الأطايب السورية النادرة الممدودة أمامي على الطاولة. وكان لا يفوّت، في أثناء كلامه، أن يطالبني، من وقت قصيرٍ إلى آخر، بإفراغ كأسي كلما أفرغ كأسه من العرق لكي يملأهما معاً من جديد. كما كنت أنتبه في

البداية، على خلفية آرائه المتواصلة، إلى ضحك رايا وسميرة المشترَك الذي كان يتناهى إلينا أحيانـًا من المطبخ مع رائحة زكيّة لطعام ساخنٍ شهيّ تحضّرانه هناك. غير أنهما سرعان ما غابتا عن بالي تمامـًا عندما انغمستُ بالأحداث التي بدأت تجري، في داخلي، مع تتالي كؤوس العرق التي صرت أصبّها بنفسي، فما عدت ألاحظ حتى سالم إلا في لحظات متقطّعة دون أن أعي طبعـًا ما الذي كان يقوله لي بالضبط.

ثم لم أعرف كم مضى من الوقت عندما انتبهتُ، كأنما بمحض المصادفة، إلى أن سالم صامت. كان يسند مرفقيه بين صحون الطاولة شبه المُفرَغة وقد استقر رأسه بشكلٍ مائلٍ بين راحتيه، وهو يوصوص عينيه باتجاهي ليراني كأنما بشكلٍ جيدٍ. كنت أبدو أمامه صامتـًا أيضـًا، غير أنني كنت في تلك اللحظة أغنّي، في داخلي، بأعلى صوتي "مرينا بيكم حمد واحنا بقطار الليل واسمعنا دقّ قْهوة وشمّينا ريحة هيل". كنت جالسـًا في مطعم حنا كعدة بحلب، وكان من حولي أصدقاء قدامى لم أرهم منذ سنوات. لم يكن سالم يعرفهم ولا كانوا يعرفونه، فلم يكن كأنما مناسبـًا لأحد أن أجعله جالسـًا معنا. وفي أثناء انهماكه الطويل بتسميعي آراءه السياسية في موسكو، كنا، أنا وأصدقائي في حلب، قد شربنا الكثير من العرق وثرثرنا كثيراً بالأدب والفن والسياسة وتبادلنا آخر النكات واغتبنا أصدقاءنا الغائبين، ثم تشاركنا بفروجٍ مشويّ على الفحم وبكثير من زوارق المقبلات المجانية الصغيرة التي كان يدعمنا بها الغرسون عزيز طيلة الوقت. وكان المعلّم حنّا كعدة حيّـًا يرزق وراء طاولة الحساب، برغم وفاته التي حدثت، في الواقع، منذ ثلاث سنوات كما كان قد أخبرني أحد أصدقائي في رسالة. كان الآن جالسـًا، في داخلي،

على كرسيّه الخيزران، منحنياً بحدبته كالعادة فوق طاولته، يسمع غنائي من بعيد دون أن يلتفت إلينا. كان كأنما حريصاً على أن يُشعرنا بأننا ما نزال في أول المساء. حتى عندما دوّت ساعة مطعمه الجدارية، بدقاتها المتوعّدة الحازمة، معلنةً، لنا على وجه الخصوص، بلوغَها الثانية بعد منتصف الليل، ظلّت عيناه شبه المُغمَضتين تشردان في قطه الأبيض الضخم النائم فوق طاولته إلى جوار تلفونه الأسود القديم. كأنه كان لا يريد استعجالنا بإنهاء كؤوسنا الأخيرة مع أننا كنا آخر من تبقّى من زبائنه في صالة المطعم.

عندما انتبهت إلى صمت سالم بدا لي كأنه كان يتابع، بفضول واضح، ما كنت أعيشه بعيداً عنه في داخلي، فقد كان ينظر إليّ بانتباهِ من يشاهد أمامه شريطاً سينمائياً شيّقاً. وكنت أستطيع أن أبقى جالساً صامتاً حتى الصباح، وأنا أكمل أمام عينيه سهرتي التي ارتجلتُها مع أصدقائي القدامى في حلب، لولا أنني لمحت رايا فجأة تقف أمام الطاولة وهي تحمل زورقاً كبيراً معرّماً بمعيّنات ساخنة من كبّة الصينية. كانت متهلّلة الأسارير تنظر إليّ بفخرٍ لافت، وتنتظر، كأنما بصبرٍ نافد، أن أعبّر لها عن احتفائي الكبير بالأكلة السورية اللذيذة التي كانت تحملها بين يديها. بيد أنني، وهذا ما أدهشني فعلاً، ظللت أنظر إليها دون أن أنبس بكلمة واحدة. ولا أعتقد أن ملامحي آنذاك كانت تشي لها بأي اهتمام بمفاجأتها السورية العزيزة النادرة في مدينة مثل موسكو. كنت أعي طبعاً مقدار الندم الذي سوف أندمه بعدئذٍ على برودي المخزي الآن، إلا أنني كنت متأكّداً، بالقدر نفسه، من عجزي عن القيام بأيّ تصرّف آخر. كأنني كنت أُرضي الآن، دون إرادةٍ مني، إحساساً دفيناً بإحباطي من أخبارها

الجديدة التي اعتقدتُ أنني قد هضمتها في أول المساء. ثم أردت كأنما أن أعترف لها بهذا الإحباط الآن دون مواربة، لعلّي أتخلّص من عطالتي المشينة، لكنني خشيتُ في اللحظة الأخيرة من أن أقول لها شيئًا قد لا أعنيه أبداً بعد دقائق. فالأفكار والمشاعر المتشعّبة في نفسي بدت لي، في تلك اللحظة، أكثر تعقيداً وتداخلاً وتبدّلاً من أن أصوغها لها بدقّةٍ كافية. وما زاد من شعوري بالخزي أن سالم ظلّ، في هذه الأثناء، يوصوص عينيه لكي يراني بشكلٍ جيد، فلم يلاحظ كأنما وجود رايا حتى الآن. ثم آلمني أنّ ضيقًا صريحًا لم تفلح في مداراته عني بدأ يظهر على وجهها. فكّرتُ أن أوسّع، على الأقل، مكانًا، على سطح الطاولة المزدحم، للزورق الثقيل الذي كانت ما تزال تحمله حتى الآن، لكنني لم أستطع. كنت، مثل مُكبّلٍ بقيودٍ غير مرئية في كابوس، لا أقوى كأنما على تحريك ساكنٍ من أجلها مهما حاولتُ. وعندما لاحظ سالم أخيراً وجود رايا مع زورق الكبة الكبير، سارع فوراً إلى لمّ الصحون، التي كنا أفرغناها، من على الطاولة، طبّقها بين يديه على عجل، وحاول أن ينهض بها. ثم بدا أن كؤوس العرق، التي كرعها معي، لم تسمح له بالتوازن بمثل السرعة التي فزّ بها من مكانه، فمال نحو الأرض وتداعى. وكانت رايا تهمّ بإنزال زورق الكبة، في المكان الذي شغر الآن على الطاولة، لكنها فوجئتْ بسالم يهوي مع الأطباق باتجاهها، فنقزتْ خطوةً سريعةً إلى الوراء وأسقطت زورق الكبّة من يديها على الأرض. ثم ما لبثت أن انفجرت بالبكاء وانسحبت مسرعة من الغرفة، بينما كان سالم يقهقه، وهو مسدوح على ظهره، بين ما تناثر حوله من الصحون وكِسَر الزجاج وبقايا الطعام ومعيّنات كبّة الصينية.

ظهرت سميرة بعد قليل بوجه مضطرب، اقتربت مني، كما لو أنها لم تلاحظ ما حدث في أرض الغرفة، ورجتني بصوتٍ مهذّب خفيض أن أذهب الآن إلى المطبخ لكي أكلّم رايا.

شعرتُ، فور نهوضي من مكاني، بأنني أتوازن بعناء شديد وأن كلّ ما كان في رأسي من الصور والخواطر والأحاسيس قد ازداد تبعثراً، فما عدت فجأةً قادراً على تمييز شيءٍ من شيء. وما إن بدأتُ أميد في طريقي إلى باب الغرفة حتى انتقلتْ الفوضى الناشبة في رأسي إلى الخارج فصارت قطع الأثاث والجدران تنزلق من حولي باتجاهات مختلفة. ولعلّي كنت أستطيع إعادةَ بعض النظام إلى رأسي وتثبيتَ ما أمكنني من الأشياء التي صارت تحوم حولي، لو رجعتُ إلى مقعدي وجلست. إلا أنني كنت ما أزال أذكر، برغم الفوضى العارمة في كل مكان، أن هنالك غايةً مهمةً جعلتني أنهض من مكاني وأن عليّ، على ما يبدو، أن أكمل طريقي من أجلها إلى المطبخ دون تلكّؤٍ هنا أو هناك.

لم يكن مفتوحاً أمامي في الموزع سوى باب المطبخ الذي ظلّ يراوغني، ذات اليمين وذات الشمال، حتى تمكّنت من دخوله برغم كل شيء. ثم خيّل لي بعد قليل أنني لمحت، في برهة خاطفة فقط، ما يشبه ظهر رايا يدور من حولي مع ستارة النافذة والبراد والغسالة وفرن الغاز والمجلى وخزائن الصحون وأغراض أخرى كانت تتشوّه وتتداخل طيلة الوقت كما لو كانت تدور في مرايا محدّبة. بالإضافة إلى إكسسوارات صغيرة الحجم كانت كأنما تسبح في مدارات قريبة جداً من وجهي، فلم أستطع التعرّف عليها. ثم اعتقدتُ أن عليّ، قبل أن أشق طريقي إلى ظهر رايا، أن أتأكّد مما إذا كان الشيء الذي لمحته الآن كان ظهرها بالفعل. ولكي أتأكّد من ذلك كان على

الأشياء التي تبرم من حولي أن تثبت في أمكنتها فوراً، ليتاح لي أن أفرزها بعضها عن بعض ولأعرف، إذا وجدتُ رايا، كيف أصل إليها من أوضح الطرق. وقد كنت عاجزاً تماماً عن تثبيتها بنفسي، فقد بدا لي أنها كانت تدور بتأثير قوةٍ خارقةٍ لا علاقة لها بي على الإطلاق. لكنني، مع ذلك، ما أردت كأنما أن أستسلم للزوبعة المُدوِّخة التي كانت تحيط بي، فرجّحتُ أن تكون رايا موجودة في المطبخ حتى وإن كنت لا أراها. قدّرتُ أن ما يفصلني عنها الآن ليس أكثر ربما من مترين أو ثلاثة أمتار، لكنّ ما فاجأني أنني لم أستطع تخيّلَ وجهها بين الأشياء الطائرة من حولي، مع أنني كنت قادراً، قبل أيام فقط، على تخيّل ملامحها بوضوح عندما كان يفصلني عنها آلاف الكيلومترات. ثم خطر بي أنني قد لا أستطيع تخيّل وجهها، بأيّ حالٍ من الأحوال، ما لم تفصلني عنها الآن آلاف الكيلومترات. لو كان يفصلني عنها الآن آلاف الكيلومترات لما كانت ربما تبرم من حولي وتكاد ترتطم بي وتسقطني أرضاً دون أن أميّزها عن الفرن أو الغسالة أو البرّاد. بعد ذلك وجدتُني أهتف في داخلي لماذا يا إلهي لا تفصلني عنها الآن آلاف الكيلومترات لماذا يا إلهي لا تفصلني عنها الآن آلاف الكيلومترات لماذا يا إلهي لا تفصلني عنها الآن آلاف الكيلومترات حتى شعرت بالغثيان، فأغمضت عينيّ في الحال. بدا لي عندئذٍ، لِلَحظات فقط، أن كلّ شيءٍ قد سكن من حولي، ثم سرعان ما شعرت بأنني بدأت أهوي في فراغٍ مظلمٍ شاسعٍ عميق. تمنيت لو أن شيئاً أميناً وثابتاً يتلقّاني قبل أن أرتطم بالقاع، لكنْ ما تلقّاني شيء. ظللت أهوي وأتقلّب، مدةً طويلةً، في ظلامٍ دامسٍ سميكٍ لا قرار له حتى ظهر فجأة وجه سالم أمامي. كان يجفف رأسي ووجهي من ماء بارد ببشكير أزرق وكنت جالساً أمامه على كرسي. أدركت

بعد لحظات أنني في الحمام وأنني قد استفرغت قبل قليل كل الأطايب السورية التي أكلتها وكل كؤوس العرق التي شربتها طوال الليل.

- سوف نشرب القهوة.

قال لي سالم وهو يخرج من الحمام.

نهضت، ووقفت أمام مرآة المغسلة. كان وجهي ينمّ عن إجهادٍ شديد، لكنّني كنت أشعر بصفاء غريب ما شعرت به منذ مدة طويلة.

خرجت من الحمام واتجهت إلى الغرفة.

كان سالم ورايا جالسين حول الطاولة، النظيفة الآن من الأطباق والكؤوس، فأخذت مكاني إلى جانب رايا على الديوانة.

دخلت سميرة بعد لحظات تحمل، على صينية، ركوة قهوة محضّرة وفناجين. وضعتْ الصينية على الطاولة وصبّت القهوة ثم وزّعت علينا الفناجين.

- سوف تنام أنت ورايا في غرفة نومنا.

قال سالم.

لم أعلّق على كلامه، نظرت إليه وابتسمت له ابتسامة امتنان صغيرة.

أنهيت شرب قهوتي صامتاً، وانتظرت ريثما أنهت رايا شرب فنجانها ثم نهضتُ.

- سوف نغادر.

قلت.

- لن تغادر إلى مكان يا صديقي فالمترو لا يعمل في الساعة الثانية بعد منتصف الليل كما تعلم، وسيارات الأجرة لا تمر بالهيّن في هذا الوقت.

قال سالم، وقد نهض وسميرة.

ابتسمت له ابتسامةً صغيرةً من جديد دون أن أعقّب بشيء آخر، ثم اتجهت إلى الموزّع مع رايا، فتبعانا.

عند باب الشقة شكرتهما على استقبالهما، واعتذرت عما سببته لهما من القلق في آخر السهرة، ثم فتحت الباب أمام رايا، فخرجتْ وخرجتُ وراءها.

رافقنا سالم وسميرة إلى كوريدور الطابق، وظلا واقفين معنا حتى لحظة نزولنا في المصعد.

حين أصبحنا وحيدين، في المصعد ثم في الشارع المقفر بعد خروجنا من البناية ووقوفنا على الرصيف في انتظار سيارة أجرة، لم نتبادل كلمة واحدة. اعتقدتُ بأنني أصبحت على الأغلب شخصاً لا يُحتمَل بالنسبة لها. وكنت مستعداً لأتفهّمها لو أنها سحبت ذراعها من تحت ذراعي الآن وركضت بأقصى سرعتها بعيداً عني.

- أنا آسف.

قلتُ فجأةً بصوت خفيض، وأنا أنظر إلى الأرض.

- تعلّمت أشياء كثيرة من سميرة في المطبخ.

قالت، فالتفتُّ نحوها مبدياً رغبتي بالإصغاء إليها. وإذ لم تستأنف كلامها بتعداد الأشياء الكثيرة التي تعلّمتها من سميرة في المطبخ وددتُ أن أسألها عنها. لكنني لمحت، في تلك اللحظة، سيارة أجرة بضوء أخضر صغير قادمة من بعيد، فسارعت برفع ذراعي مشيراً للسائق أن يتوقّف.

تباطأت السيارة حتى توقفت أمامنا بمحاذاة الرصيف، ففتحتُ باب المقعد الخلفيّ لتجلس رايا، ثم جلستُ في المقعد الأماميّ.

لقّنتُ السائق عنوان بيت أنوش، وأنا أستسلم لراحة مفاجئة غمرتني بها طراوة المقعد، ثم لم تمض سوى ثوانٍ معدودة، كما بدا لي، حتى شعرت بيدٍ توقظني برفق من كتفي- كانت يد رايا، وكانت السيارة تقف أمام مدخل البناية التي تسكن فيها أنوش.

أخرجت محفظة نقودي وحاسبت السائق، ثم نزلت فيما كانت رايا تقف الآن على الرصيف.

- سوف نحضّر مساء الأربعاء، أنا وأنّوش، محشي ورق عنب.. لن نلفّه على الطريقة الأذريّة بل على شكل أصابع كما يفعلون في سورية، وسيكون جاهزاً في الساعة السابعة مساءً.. سنكون في انتظارك.. هل ستتأخر؟
- لن أتأخر.
- **حسن إذاً إلى مساء الأربعاء.**
- **إلى مساء الأربعاء.**
- **في الساعة السابعة.**
- **في الساعة السابعة.**

يوم الأربعاء

في الساعة السابعة من مساء يوم الأربعاء كنت، في داخلي، أتجوّل مع نونا في حديقة النباتات، وآكل مع رايا محشي ورق العنب في شقة صديقتها أنوش، وأفكّر بتصليح دراجتي المعطوبة في الموزّع لكي نتنزّه عليها أنا والدمية، فقد كان الطقس جميلاً جداً في ذلك المساء.

انتهت